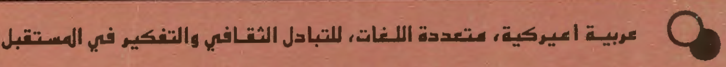
جسور

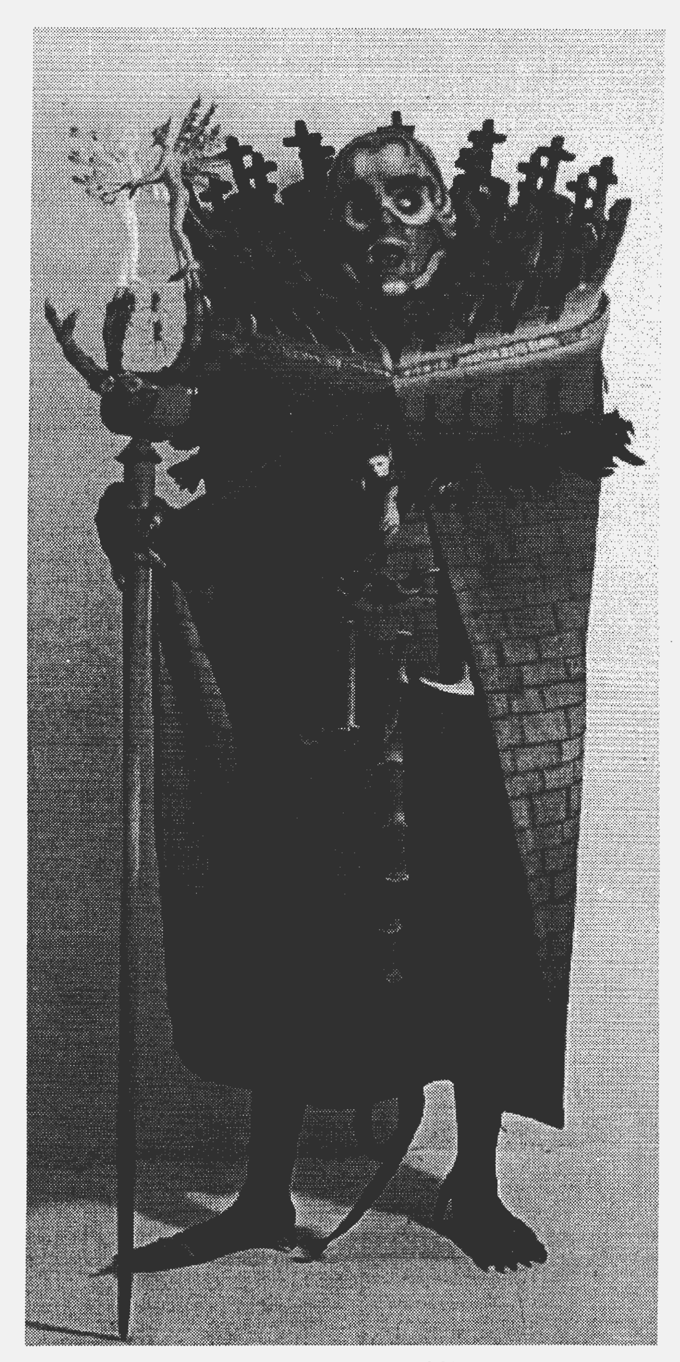


الثقافة والهيمنة

إدوارد سعيد
محمود درويش
فؤاد مغربي - نصير عاروري
عزمي بشاره -خليل برهوم
محمد عبده يماني
تيسير الناشف - صبحي حديدي
منير العكش
برهان غليون
شاليغرام شكله - فريال غزول
دانيال مور
عيسى بلاطة
ديانا هداوي - حليم بركات
طه جابر العلواني
قاسم الوزير - أميره الزين
جمال أبو حمدان
عبدالوهاب المسيري
سيد محمود القمني
إسرائيل شاحك
جمال البنا - خليل الخوري
تحية خالد عبدالناصر
حسين هداوي - سركون بولص
شادي خوري
منى عسلي ڤن إنغن

العدد: ٥/٦





Jean Benoît. *Le Necrophile*. 1964-1965

WHEN THEY WANT TO SLAUGHTER

You have driven me from the East to this place, and I have been here two thousand years or more... When people want to slaughter cattle they drive them along until they get them to a corral, and then they slaughter them. So it was with us... My children have been exterminated; my brother has been killed.
(Chief Standing Bear of the Poncas)

جســـــور

مجلة ثقافية فصلية أسسها في واشنطن عام ١٩٩٢

منيـر العـكـش

تصدر جسور عن دار: Kitab

P. O. Box 34163 Bethesda, MD, 20817 USA

TEL: (301) 869 5853 FAX: (301) 869 6120
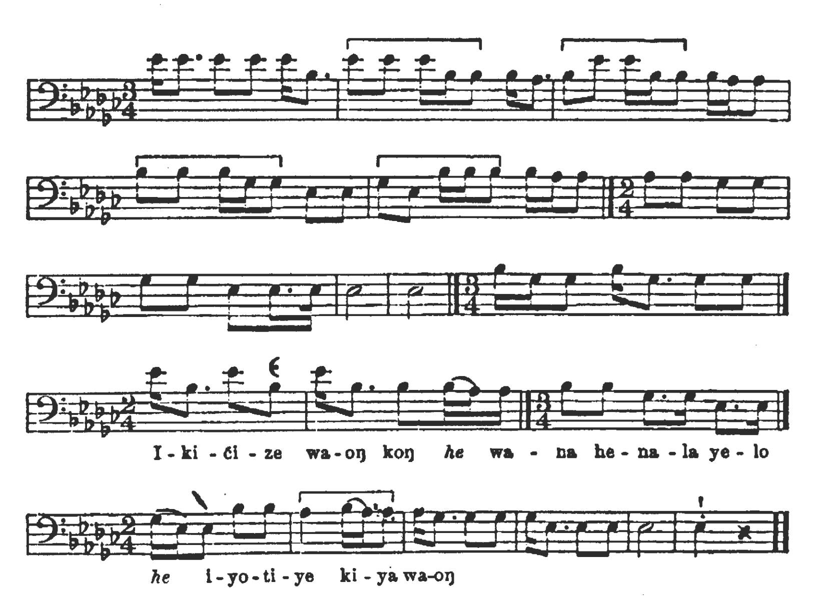
الإشتراك السنوي ٣٦ دولارا أميركيا للأفراد، و٦٥ دولارا للمؤسسات والهيئات

تدفع الإشتراكات لحساب دار Kitab وترسل إلى عنوانها

المقالات المنشورة تعبر عن رأي كاتبيها

جســـور

٦/٥



Courtesy of the Bureau of American Ethnology Collection

SONG OF CHIEF TATANKA YOTANKA

A warrior I have been
Now it is all over
A hard time I have

هيئة التحرير

حليم بركات * جبرا ابراهيم جبرا * جمال أبو حمدان
محمود درويش * إدوار الخراط * ضياء العزاوي * روجيه غارودي
إدوين (تيد) كينيدي * محمد عفيفي مطر *دانيال مور* حسين هداوي

رئيس التحرير الضيف

نصير عاروري

رئيـس التحرير

منير العكش

أمانة التحرير

اميرة الزين

Contents المحتويات Sommaire

English Section القسم الإنكليزي

شكر وتقدير

لكريستين أُربان، منى عسلي ڤن إنغن، صبحي حديدي،
اسرائيل شاحك، وليد الخالدي، جورج عازار، نويل عبدالأحد،
طه جابر العلواني، فرانك كولينس
فاروق مردم، دانيال مور،
فبفضل جهودهم النبيلة شهد هذا العدد النور

Teotihuacan Mask, greenstone and obsidian, (9x24.2x20.4cm). Museo del Templo Mayor, Mexico City
This Aztec beautiful greenstone mask was made in Teotihuacan about 1,000years before it was buried, as a valued heirloom, at the Templo Mayer.

من أعلى
هضبة عمري المرتفعة
هاعيناي تخترقان الماضي.
وآه! مازلت أرى في منعطفات الوادي الغائر
أطفالا ونساء مذبوحين، كأن عيوني في عز صباها ترعى
أكوام القتلى والجثث المنثورة حول مسيل الماء
وترى - أبعد من هذا- في الوحل الدامي
أحلاما تحت ركام الثلج مدفونة.
الأحلام الرائعة لشعبي
ماتت فيها
(بلاك إلك . زعيم هندي أميركي)

When I look back now from this high hill of my old age,
I can still see the butchered women and children
lying heaped and scattered all along the cooked gulch as plain
as when I saw them with eyes still young. And I can see that blizzard.
A people dream died there.
(Black Elk- Ogala Sioux)

الثقافة والهيمنة



الأصولي والقديس

في سياق الحملة التي تشنها الولايات المتحدة على الأصولية ؛ اعترف الرئيس كلينتون أمام «الكنيست» بأنه كان في بعثة دينية عندما اصطحبه كاهنه إلى الأراضي المقدسة (فلسطين) قبل ١٣ سنة حيث عايش فيها تاريخ اليهود كما يرويه «الكتاب المقدس». وقال السيد كلينتون مخاطبا رؤساء الملائكة: شارون ورابين وناتيناهو بأن كاهنه الذي رعى تربيته الروحية هو الذي أوصاه قائلا: «إذا تخليت عن إسرائيل فإن الله سيغضب عليك»، وهو الذي كشف له الحجاب عن «إرادة الله التي تقضي بأن تكون إسرائيل -كما هي في العهد القديم- لشعب إسرائيل إلى الأبد». ولكي يؤكد على التزام إدارته بإرادة الله و«حلم أجداد اليهود» ،كما عبر عنهما العهد القديم وجسدتهما الحركة الصهيونية، فإنه قطع لكاهنه عهدا وميثاقا وقال على لسان الرئيس الراحل كينيدي: «إن إرادة الله يجب أن تكون إرادتنا».

هذه الصلوات المباركة لعودة «إرادة الله» من السبي إلى أورشليم الدولة الأميركية على غرار ما كان قبل الدستور والثورة وميثاق الحقوق Bill of Rights وكل ما حققه الآباء المؤسسون Founding Fathers ليست جديدة إلا في لغتها الثائرة على التعبيرات المضللة التي كانت تستخدمها الإدارات السابقة مثل «التحالف الإستراتيجي» كبديل عن «التحالف المقدس» ومثل «القيم المشتركة» للتعبير عن «الإيمان المشترك» ومثل «الالتزام الأخلاقي» الذي لم يكن يعني سلوكيا إلا «التعصب الديني»...

الصراحة التي كشف بها الرئيس كلينتون عن بنية وعيه للمسألة الفلسطينية أولا، وعن تأثير الكنيسة وأفكار العهد القديم على سياسة إدارته ثانيا؛ وعن المعنى الإستعماري«المكابي Maccabi» للسلام الذي يريد تحقيقه ثالثا، وعن طبيعة

«كبسولة الديناصور» التي صنع منها حديقته الجيوراسية Jurassic Park رابعا؛ إذا كانت تدل على أن «عرب أوڤيد Ovid» أفلسوا وهانوا ولم يعد لديهم شيء يضطر الرئيس كلينتون للنفاق، فإنها تدل أيضا على أن «الثورة الأميركية» أفلست في عهده ولم يعد لديها ما تقوله بالنسبة لهذا الوحل الأصولي الذي تغرق فيه الدولة الأميركية كلما تعاملت مع العرب، ومع المسألة الفلسطينية بشكل خاص.

إلحاح كلينتون على تشبيه أميركا -بلد الهجرة والأمل وتعدد الأعراق والمعتقدات والحرية والدستور وميثاق الحقوق- بإسرائيل الدولة اليهودية التي لم تستطع مختبرات «الكروموزم» فيها إلى الآن تقرير من هو اليهودي، يعني أن أميركا- كلينتون لم تبارح ما كانت عليه «الهند الجديدة» التي وصلها المستعمرون الأوائل في سفينة العهد القديم ومعهم «إرادة الله-يهوه» وكل العتاد الأخلاقي اللازم لإبادة «غوييم» الأرض. يقول ديمونت Max I. Dimont في «اليهود الذين أعجزوا الموت *The Indestructible Jews*» : «إن هؤلاء البيوريتانيين الذين جاءوا لاستعمار أميركا كانوا يعتبرون أنفسهم "عبريين Hebraists" وكانوا روحيا أكثر يهودية من أيوب ذلك الأممي المقدس الذي استطاع أن يندس بين أنبياء اليهود. لقد أرادوا أن يبنوا وطنهم على أساس العهد القديم، ولهذا اتخذوه على المستوى السياسي والاجتماعي أساسا أيديولوجيا لقوانينهم وعاداتهم. كانت تصورات "الشعب المختار" تأخذ بألبابهم مثلما أخذ بألبابهم يهوه إله العهد القديم الذي أرادوا تنفيذ وصيته بالسيطرة على العالم».

اللغة العبرية ومعها اللاتينية - لا الانجليزية- هي التي كانت لغة التعليم الأساسية في جامعة هارڤرد عند تأسيسها في عام ١٦٣٦. وشريعة موسى هي القانون الذي أراد كوتون John Cotton حاكم ماساشوستس تبنيه إلى جانب العبرية التي أرادها لغة رسمية لأبناء مستعمرته وبقية مستعمرات الدم الأزرق الثلاث عشرة على ساحل الإطلنطي. وعند زحف «أبناء الرب» من جزيرة روانوك Roanoke في اتجاه الغرب لم تكن حروب الإبادة والتطهير العرقي وحرق المحاصيل ومصادرة الأراضي وإطعام أطفال الهنود للكلاب إلا مظاهر «ارادة الله -يهوه» في العهد القديم كما تجلت للرئيس كلينتون من جديد وألهمته وهو يخطب في «ساتيريكون الآلهة Satyricon» أن يشبه أميركا بإسرائيل وأن يشعر وكأنه في بيته ووطنه.

برغم الهزيمة الأيديولوجية أمام الثورة الأميركية وروح التنوير الإوروبية التي تبناها «الآباء المؤسسون» :باين Paine وجفرسون Jefferson وواشنطن Washington وآدامس Adams وماديسون Madison وفرانكلين Franklin فقد شقت هذه «العبرية» المكابية Maccabi مع الزمن قنواتها إلى عقائد الأصوليين الأميركيين

وأنبياء الرأسمالية المتوحشة الذين ما زالوا يعتقدون -والكلام لديمونت- أن هيمنتهم على العالم هي «إرادة الله». وهذه -كما يقول روجيه غارودي Roger Garaudy في «هل نحن بحاجة إلى إله»؟ *Avon-nous besoin de Dieu* : «خيانة للمسيح ورسالته، وتزييف قيصري لمملكته التي جعلها فينا وبيننا... فالمسيح الذي بشر بمملكة لم يعرفها تاريخ اليهود ولم يسمع بها؛ لم يأت لتنفيذ عهود قديمة، وإنما جاء ليجيب عن أكبر تساؤلات الإنسان حول معنى الحياة والموت. وهذه الإجابة ليست حكرا لشعب مختار، عبرانيا كان أو غربيا».

أراد الآباء المؤسسون بنقدهم لعقيدة المستعمرين العبريين Hebraists وتاريخهم إنقاذ أميركا من بشاعة الأصولية التي صنعت الفظاعات الدموية في تلك الأميركا التي تشبه إسرائيل. كانت كل كتاباتهم وأعمالهم تعبر عن اشمئزازهم من وصايا الكهان وخوفهم من تواطؤ الدولة معهم على حريات البشر و تعذيب عقولهم وأرواحهم. إن حرية الإيمان والكفر لم يصنها إلا هؤلاء الآباء «الكفار» في التعديل الأول First Amendment الذي حرر السياسة الأميركية من سيطرة الكهان، وأبعد خطر سيطرة السياسة الأميركية على «إرادة الله».

بهذا «التعديل الأول» صار خطاب كلينتون وكل توجيه كنسي لعقول المواطنين -بالتحالف أو التواطؤ مع الدولة- خرقا للدستور. لقد صنعوا الثورة الأميركية وكتبوا الدستور ووضعوا ميثاق الحقوق بهذه الصيغة التي نعرفها لأن ذاكرتهم مشحونة بفظاعات محاكم التفتيش وصيد الساحرات وأهوال حملات الإبادة وحرق المحاصيل ومحو القرى والتطهير العرقي والعنصرية التي جردت «هنود» أميركا من إنسانيتهم وجعلتهم في تلك الأميركا الكلنتونية التي تشبه إسرائيل مجرد كائنات مشوهة. ولقد تبين فيما بعد أن أعظم ما في الدستور الأميركي وأكثر تفاصيله مستلهم من «شرعة السلام الكبرى The Great Law of Peace» التي ظلت أكثر من ألف سنة تشيع الحب والسلام والتسامح في الشمال الأميركي بين ست أمم من هذه الكائنات الهندية النبيلة التي حكمت عليهم «إرادة الله -يهوه» كما حكمت على الكنعانيين قبلهم بالإبادة.

من أجل هذا أنفق الآباء المؤسسون وقتا طويلا في نقد أيديولوجيا الاستعمار العبري، وعبروا عن اشمئزازهم من وصايا «يهوه» الدموية ومضارباته العقارية وتسليته السادية بالشعوب والأعراق. فتوماس جفرسون وهو من أعظم الآباء المؤسسين لأميركا الأمل وتعدد الأعراق والمعتقدات والحرية والهجرة يقول في «الأفكار الحية *The Living Thoughts of Thomas Jefferson*» عن الإله الذي أقطع فلسطين «لشعب إسرائيل إلى الأبد» بأنه فظ cruel حقود vindictive

مزاجي capricious ظالم unjust، بينما أمضى توماس باين كل حياته في التفنيد والنقد والتحذير من خطابه المقدس الذي «يفسد البشر ويصنع منهم وحوشا». إنه في «عصر العقل *The Age of Reason*» يعري فلسفة أخلاق «العهد القديم» التي بررت، و لأكثر من خمسة قرون، حملات الإبادة والمذابح الطقسية والتضحية المقدسة بذلك «الآخر» الكنعاني المهدور الدم من الميسيسيبي إلى رأس الرجاء الصالح ومن الركبة الجريحة Wounded Knee إلى الحرم الإبراهيمي. «إن فكرة شعب الله وجبرية المصير (كما تقول لجنة التحقيق الدولية في عنصرية جنوب أفريقيا: *La France et l'apartheid*) هي التي بررت التوسع الإستعماري والمجازر الجماعية حين اعتبرت هجرة الإنسان الأبيض إلى أميركا الشمالية أو أفريقيا مثل هجرة بني إسرائيل إلى أرض الميعاد. وانطلاقا من هذا التوزيع النموذجي لهويات البشر فإن على شعوب أميركا وأفريقيا أن يكونوا الكنعانيين الجدد الذين قضت عليهم إرادة الله أن يخضعوا».

في هذه الفلسفة الأخلاقية التي عراها توماس باين نعثر على جذور أيديولوجيا «الإرهاب المقدس» عند باروخ غولدشتاين ومنظمة الأرغون والكو كلوكس كلان وكل أولئك <السياسيين> الدمويين الذين يعتقد پول ماكلين Paul Maclean ان أدمغتهم تعمل بمركب الزواحف Reptilian Complex، وفيها نعثر على «تعريفات lexicon» خطاب كلينتون ووصية كاهنه وسياسته الدولية وموقفه المخجل من عمليات الإبادة المنظمة للمسيحيين الفلسطينيين في مهد المسيح، ونتعرف على مفهومه للسلام وما يقصده «بارادة الله- يهوه رب الجيوش»:

بارادة الله: «ملعون كنعان، وعبد العبيد يكون»
بارادة الله: «سأسحق بك الأمم»
بارادة الله: «تشرب الدم إلى السكر»
بارادة الله: «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات»
بارادة الله: «سأرمي بجثث الفلسطينيين لطيور السماء ووحوش البرية».

بارادة الله وإرادة الرئيس كلينتون صار الإحتلال تمجيدا للرب، وصار كسر عظام الأطفال بطولة. وبارادتيهما تم تطويب أبطال العنصرية والتطهير العرقي والمذابح الجماعية وبعض شاربي الدم إلى السكر قديسين وشهداء.

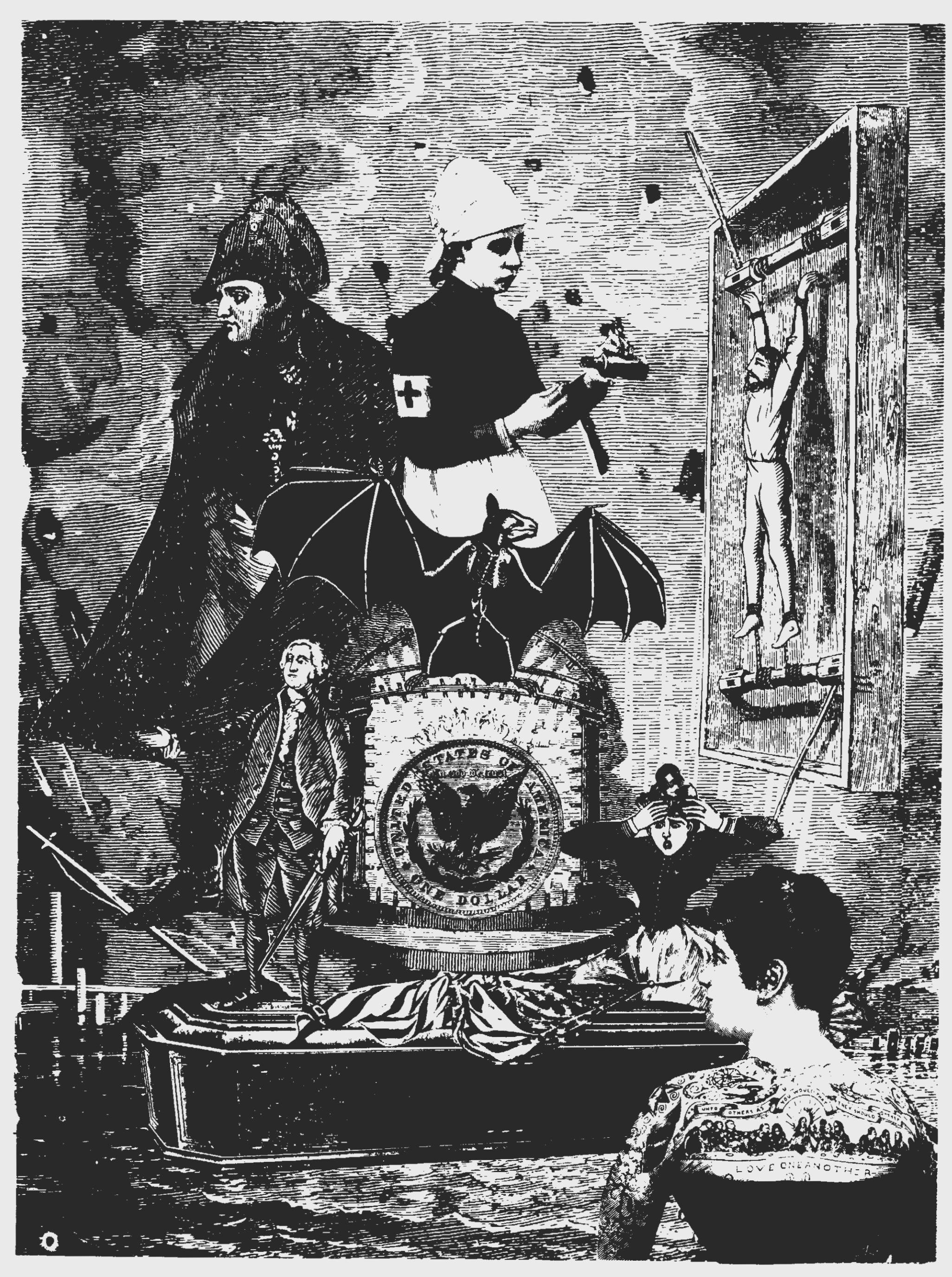
في ظل هذا التعطيل المقدس للعقل وملكة الحكم والشرائع الدولية وقرارات الأمم المتحدة ومبادىء حقوق الإنسان وكل هذا الإنقلاب الأصولي على الدستور والثورة الأميركية والآباء المؤسسين، تقيم إدارة كلينتون سيرك التزوير الطقسي لمعجم السياسة الدولية بدءا من تزوير معنى «الأصولية» وانتهاء بتزوير معنى «السلام» ؟

يقول الكاهن لكلينتون: «إذا تخليت عن إسرائيل فان الله سيغضب عليك»
ويقول شيخ حماس لمريده: «إذا تخليت عن فلسطين فان الله سيغضب عليك».
ألا يحق للمتفرجين على كرنفال العنف السماوي أن يسألوا: أليس في هذا البانتيون Pantheon حَكمٌ يقول لنا من هو القديس ومن هو الأصولي؟ من هو إله الإحتلال ومن هو إله الحرية؟ لماذا لا نسمع ما يقوله إله هذا الفلسطيني المسيحي الذي يصلب يومياعلى خشبة «الحضارة المسيحية اليهودية» ؟
كل الأصوليات خطر على عقولنا ومواهبنا وأرواحنا وإيماننا وخصب إنسانيتنا. وفي ذلك تستوي -كما يقول غارودي في *Intégrismes*- أصوليات التكنوقراطية والستالينية والمسيحية واليهودية والإسلامية. إن مفهوم الأصولية يتضمن كل حركة دينية أو سياسية تزعم أنها تملك الحقيقة النهائية الكاملة المطلقة مثل حقيقة الإختيار الإلهي... والأصولي بذلك لا يختلف عن أي طاغية... هذا يشمل أصولي النازية والستالينية كما يشمل أصولي سياسة اسرائيل الإستعمارية.
هنالك الآن دولة تملك من أسلحة الدمار الشامل ما يقتل سكان ١٧ كوكبا مثل أرضنا، وهناك الآن سياسة وأيديولوجيا وعلاقات دولية ونظام عالمي وأمم متحدة تعاد صياغتها أصوليا انطلاقا من «أخلاق السوق» ومن خطاب مقدس لا يعترف إنسانيا بوجود «الآخر»، بل يعتبر كل من هو «آخر» مشروعا مقدسا للتضحية أو شكلا مشوها من أشكال الحياة. وهنالك حاجة دائمة -في ظل «أخلاق السوق» النازعة الآن إلى البربرية وظل الهيمنات الإستعمارية الكبرى- إلى «فبركة» جديدة للبشر والثقافات. إن «إرادة الله» هنا هي التي تعطي هذا التشويه والمسخ والتزوير لثقافة «الآخر» وأخلاقه وتاريخه ومعتقداته معنى الإطلاق والشمول والضرورة.
لم يقم «السلام القرطاجني Carthginian Peace» عندما أبادت روما قرطاجنة عن بكرة أبيها بل عندما صار القرطاجنيون الناجون من الإبادة يقولون عن تدمير قرطاجنة ما يقوله الرومان، ولم يقم «السلام الطروادي» عندما محا الإغريق طروادة من على وجه الأرض بل عندما صار الطرواديون يستمتعون بقراءة هومير.
هذا «السلام القرطاجني» لم يدم إلا لأن إبادة «وعي المقاومة» كانت أدمى وأوحش من إبادة البشر. بذلك كتب للثقافة الرومانية أن تزور تاريخا فخورا بإبادة قرطاجنة مثلما يفخر الأميركيون بإبادة هيروشيما. ولعل ميكائيل غيلفن Michael Gelven في «الحرب والوجود *War and Existence*» يلخص كل هذه الهزيمة الأخلاقية للوعي البشري أمام تزوير التاريخ (من عجرفة تاريخ روما الرسمي إلى عجرفة البروباغندا الأميركية المثيرة للغثيان حول «السلام القرطاجني» المفروض على «عرب أوڤيد») حين يقول: «أخلاقي أو لا أخلاقي، هذا لا يعنيني، لأن الإنتصار

الروماني على قرطاجنة هو انتصاري أنا، فنحن في النهاية رومان بالوراثة».
والسيد كلينتون في خطابه لايخفي «وراثته» التي تجمعه برابين وشارون وباروخ غولدشتاين وتقطعه عن تراث الثورة الأميركية والدستور والآباء المؤسسين. في هذا الخطاب يعترف بأن سياسته الخارجية، بالنسبة للمسألة الفلسطينية على الأقل، هي تعبير عن «إرادة الله». إنها سياسة الإلتزام بتحقيق المصير القدري للأفراد والشعوب والأمم كما نص عليه كتابه المقدس. فأي سلام يريده للعرب أصولي مسكون بأخلاق السوق وأبشع أيديولوجيات الكراهية؟ ماذا تبقى لديه: غير هذه البروباغندا الفاجرة: «إذا ظننت أن للسلام معنى مختلفا عن الإحتلال والهيمنة فأنت شيطان أصولي إرهابي عدو للسلام.. مهدور الدم»؟ إن هذه الأصولية المدججة بأفتك قوة دمار على وجه الأرض أخطر أنواع الأصوليات وأكثرها تهديدا للإنسانية.
كل جنرالات «رب الجنود» يعرفون أن إرادته الغالية تقضي بإبادة الفلسطينيين وباقي الشعوب الملعونة من الفرات إلى النيل. هذه الإبادة لم تتم إلى الآن، لا لعفة في نفس الجنرالات، وإنما لأنها -برغم تفاني مادلين أولبرايت- غير ممكنة في المنظور القريب بالزخم والعنف الذي يتمجد به يهوه رب الجنود. إن إبادة «وعي المقاومة» هي الذبيحة الطقسية المثالية التي تمضي بالعرب الآن لكي يقولوا عن «السلام القرطاجني» ما يقوله الرومان.

* * *

هذا المحور «الثقافة والهيمنة» لا يعنى بخطاب كلينتون ولا بحتمياته النفسية psychic determinism. إن كل دراساته تبحث في واقع الهيمنة الأميركية الإسرائيلية وجذورها ومستقبلها وخطرها الثقافي انطلاقا من هذه «البونانزا» التي تتدفق على أميركا ودول الشمال الرأسمالي بأنهار الذهب وعشرات مليارات الدولارات وفرص العمل كلما سمع «علي بابا» شخيرا مزعجا في السرير المجاور.
لكن خطاب كلينتون هو الذي جعل السؤال عن «طروادة» العربية ممكنا: السؤال عن مصير «المشروع السياسي» الذي خلق هذه «الأمم» العربية قبل ١٤ قرنا وقد استدار حول نفسه الآن ٣٦٠ درجة ليعود إلى الدرجة صفر من دائرة حياته مدحورا مسحوق العظام تحت دبابة الإحتلال وفي النقطة التي انطلق منها.
في هذا الخطاب نكتشف كيف أن الإحتلال المباشر لا يستطيع العودة إلى حالة «التخفي» التي كان عليها طوال العقود الماضية إلا بهذا «السلام القرطاجني» وبترتيبات أمنية جماعية تكون إسرائيل فيها شريكا أساسيا يتوسط بين الرأسمالية الأميركية النازعة إلى البربرية وبين هذه «الحشرات السمينة في زمن الطاعون».
جسور



Ronnie Burk. *The Forces of Imperialism as Seen in The Cracked Mirror of Time*, 1991

عبادة أميركا

لأميركا في مخيلة العرب المعاصرة مكانة كبيرة، وإن كانت تضرب بعضها بعضا، كما هي فعلا في مخيلة كثير من أبناء العالم الثالث. إنها «الخواجا» المحترم في مجتمع يعبد الغربيين، ولا سيما أولئك الذين يملكون القوة منهم. و«الخواجا» لقب درج في أيام الإستعمار عندما كان البريطانيون والفرنسيون يستعمرون مناطق كثيرة من العالم العربي. ثمة من أخبرني بأن هناك ألقابا مماثلة في مناطق مختلفة من العالم الثالث تطلق عادة على «أجنبي» يعتبر متفوقا على «ابن البلد» مهما كان هذا ذكيا أو بارعا. وربما يقال للعربي إنه مصاب بـ«عقدة الخواجا» عندما يعتبر كل ما هو غربي متفوقا على كل ما ينتمي إلى حضارته وثقافته من بشر وأشياء.

الأميركيون اليوم هم «الخواجات» الجدد. ولكل ما هو أميركي الآن قيمة معتبرة لا تقدر بثمن. إن الثقافة الشعبية الأميركية التي تعرضها هوليوود موضع إعجاب وتقليد. فأبناء النخبة من بنين وبنات يرقصون على أنغام الموسيقا الأميركية. واستهلاك البضائع الأميركية ميدان للتفاخر. ويقال إن الأفلام الأميركية أفضل من أي انتاج سينمائي آخر سواء كان محليا أو أجنبيا. أما القوة العسكرية الأميركية فقد صارت معبودة لا سيما وأنها قامت بحماية «عمرو» من «زيد». وهناك الآن حماسة مفرطة إلى كسب ود الأميركيين ونيل رضاهم لأن أميركا مصدر للمساعدات الخارجية. ولقد قيل إن أميركا هي القوة العظمى الوحيدة الباقية في العالم وأنها فرضت سيطرتها الكاملة على كل المشرق العربي. فأميركا هي التي تقرر للعالم العربي ما عليه أن ينتج من نفط وتملي السعر الذي تشاء، كما أنها هي التي تفرض شكل التسوية التي يجب أن تتحقق وتحدد أطرافها وسرعة مسارها.

كيف يفسر المرء هذه العلاقة الغرامية الملتهبة بأميركا برغم كل ما اقترفته

السياسة الأميركية بحق المنطقة على مدى عدد من العقود؟ كيف السبيل إلى فهم حقيقة أن إمعان أميركا في إيذاء العرب وإيلامهم لا يزيدهم إلا إمعانا في عبادتها؟ وهنا لابد من التوضيح أنني لا أشير بهذا إلا إلى عرب النخب الحاكمة والطبقة التي تشكل قاعدتهم السياسية، ففي العالم العربي كثيرون ممن لم يفتنوا بأميركا ومازالوا يناهضون سيطرتها الثقافية والسياسية.

هذه المقالة جهد متواضع للشروع في عملية تفكير في أميركا ودورها، وذلك في محاولة للفهم. إنها بالتأكيد ليست صورة كاملة لما هي أميركا وما ليست هي، فمثل هذا المهمة تحتاج إلى وقت أطول و مكان أكبر ولا بد لها من أن تتجسد مع الزمن في عمل كبير مستقل. إنها محتاجة إلى مزيد من المقابلات والأحاديث مع أناس من العالم العربي وإلى قراءات متأنية واعية لما كتبه الأعلام المشاهير. لكنني أرجو لهذه المقالة في أقل ما أرجوه أن تستثير بعض الأسئلة وأن تسلط الضوء على الحاجة إلى التفكير والمناظرة وتبادل الرأي. إنني في هذا النص سأحاول أن أستعين ببعض الوقائع الشخصية التي أجدها مناسبة مفيدة لتوضيح مسألة ما أو صياغتها. لكنني لا استعين بذلك لأن لتجاربي الشخصية أهمية كبيرة وانما لأن من اللازم على الذين عاشوا منا في الولايات المتحدة سنين طويلة أن يشرعوا في مناقشة هذا الموضوع من أجل مساعدة الناس في العالم العربي على فهم أفضل لأميركا.

لقد دخل العرب العصر الحديث مستهلكين لا منتجين. لهذا ظلوا على هامش الإقتصاد العالمي وظلوا في حال من التبعية. إن توفر المبالغ الطائلة من البترودولارات لم يغير شيئا من معالم الصورة. لقد أتيحت للدول المنتجة للنفط فرصة سريعة لإعادة التنظيم الجذري للشروط الإقتصادية والسياسية، لكنها تقاعست عن ذلك. لهذا ظلت في حال من التبعية الكاملة تقريبا؛ تبعية عامة للغرب، وتبعية خاصة للولايات المتحدة التي صارت مصدرا للبضائع والمساعدات الخارجية والمساعدات «الفنية» والأحابيل السياسية والحماية العسكرية.

أما النخبة العلمانية التي تحكم عددا من البلدان العربية فإنها تعتمد على قاعدة إجتماعية سياسية ضيقة. إنها تشعر الآن أنها مهددة أكثر من ذي قبل بتحديات الأهالي والحركات ذات النزعات الوطنية والإسلامية. وهي تظن أن خلاصها يكمن في محاولة إعادة صياغة الشروط السياسية في المنطقة بصورة تعزز من فرص استمرارها. وإن أميركا وإسرائيل توفران لهم الحماية.

على مستوى الثقافة، فإن العرب، منذ أكثر من قرن، يعملون على ترجمة أدب الغرب والإنتاج العلمي وتعميمهما بين جماهير الناس. إن جهود نقل المعرفة الغربية مستمرة بدون كلل. لكن الهوة بين ما يترجمه العرب وما ينتجه الغرب

تزداد عمقا لأن العمل في الغرب يمضي أسرع من جهود الترجمة عند العرب. لهذا يبقى العرب دائما مسبوقين.

في البدء، ظهر الأميركيون على مسرح الشرق الأوسط مبشرين و «محسنين». لقد بنوا الجامعة الأميركية في بيروت وفي القاهرة. وكان للأولى دور هائل في الإعداد الثقافي لعدد كبير من زعماء العالم العربي، إضافة إلى مئات من ألوف العرب الذين تلقوا تعليمهم في أميركا وعادوا للعمل في بلادهم.

بعد الحرب الثانية كانت لأميركا سمعة طيبة في العالم العربي. ولأنها لم تتلوث في تجربة استعمارية فقد رأى فيها بعض العرب منجاة من النفوذين البريطاني والفرنسي اللذين أمعنا في تدمير المنطقة فترة طويلة من الزمن. وفي عام ١٩٥٦ وقف أيزنهاور موقفا حازما فطلب إلى البريطانيين والفرنسيين والإسرائيليين الإنسحاب من قناة السويس وسيناء. وقد تأثر بهذا الموقف رجل فلسطيني من بيت لحم كان من لاجئي ١٩٤٨ فقرر باعتزاز تسمية ابنه البكر «أيزنهاور». بذلك صار الطفل يعرف باسم أيزنهاور محمد حسن.

في تلك الأيام، ولسنوات طويلة خلت؛ كانت أميركا منارة الرجاء. فهي مهجر بعيد يستطيع المرء أن يعمل فيه بجد ليقتصد لنفسه ثروة يعود بها إلى بلاده ليصنع بهاشيئا ذا شأن. وليست قصة الإخوة «شومان» إلا واحدة من القصص الشائعة بين العامة، فهي تتحدث عنهم كيف ذهبوا إلى أميركا وحملوا البضائع على ظهورهم ليبيعوها من باب إلى باب ويجمعوا ثروة هائلة عادوا بها ليؤسسوا «البنك العربي» الذي صار مع الزمن واحد من أنجح بنوك الشرق الأوسط. بعض المهاجرين الأخرين مضوا إلى أميركا اللاتينية وكرروا القصة نفسها. إنهم قد يعودون للزيارة أو لتزجية سنواتهم الأخيرة. وهم يتحدثون بلكنة منقرضة ويغنون أغنيات لا يتذكرها أحد. ولسبب من الأسباب تبقى للمهاجرين الناجحين إلى أميركا الشمالية مكانة مميزة.

بمجرد أن تقلص النفوذ البريطاني والفرنسي بدأت أميركا بتنغيص حياة المنطقة تنغيصا سلبيا جدا. في أواخر الخمسينات وعلى مدى الستينات كانت أميركا تنظر إلى الشرق الأوسط من منظار الحرب الباردة حيث تتنافس هي والإتحاد السوفياتي عليه، وحيث يوجد احتياطي هائل من النفط الذي يعتبر عصب القوى الصناعية المتنامية، وحيث أخذت تتوسع توسعا شديد العدوانية لمصلحة دولة إسرائيل الشجاعة التي يقال زعما إنها محاصرة. وسرعان ما بدأ معظم العرب يرون في أميركا عدوا للقومية العربية وصديقا مخلصا لإسرائيل. وبالسرعة نفسها بدأ المستعربون الأميركان وتلامذتهم من العرب يعدون وينشرون أطروحاتهم التي

سادت مع الزمن وعملت على ترشيد السياسة الأميركية تجاه المنطقة: إن عداوة أميركا للعالم العربي وفقا لهذه الأطروحات ليست متأصلة فيها. إن الأميركيين هم ضحايا جهلهم بالعالم العربي وبالنزاع العربي الإسرائيلي. أما الدواء الناجع فيتمثل في عرض الحقائق على الناس في محاولة لتكوين رأي عام، فالرأي العام الواعي في المجتمع الديمقراطي سوف يتحول إلى سياسة واعية. هناك حاجة إلى فهم منصف ومتزن لأن لأميركا مصالح جوهرية في العالم العربي فيما هي ملتزمة بوجود الدولة الإسرائيلية. وقد تمسك العرب الموالون والعرب المعادون لأميركا بهذه الأطروحات سنوات طويلة برغم كثرة الأدلة المناقضة لهذا الطرح، وبالذات أن سياسة أميركا في المنطقة ترسم وفقا لحسابات استراتيجية لا وفقا لقوى الضغط المناصرة لإسرائيل التي تعتمد على الجهل والسذاجة عند الأميركيين.

في ١٩٦٠، قررت متابعة دراساتي العليا في الولايات المتحدة لأسباب مالية في الدرجة الأولى. يومها كان يزور القدس أستاذ في جامعة ييل Yale وكان هو الذي أعانني في الحصول على «القبول الجامعي». وأذكر أنه سألني ماذا أريد أن أدرس، فأجبته بأنني أريد أن أدرس الأدب الإنكليزي والأميركي. كان شديد الحماسة فقال لي على الفور: لعلك مع الزمن تكتب ردا على «الخروج Exodus» وتساعد على تصحيح الصورة المشوهة. هذا ما يحتاج إليه العرب. في ذلك الوقت لم أدرك تماما أبعاد ما كان يتحدث عنه إذ لم اكن قد قرأت «الخروج» ولا كنت مفتونا بتسجيل أغاني الفيلم، بل إنني لم أكتشف خطورة تأثير الفيلم والكتاب حتى جئت إلى أميركا.

إن لأطروحات ا «الجهل الأميركي» جذورا عميقة. وربما كان لأطروحات «البراءة» مثل هذه الجذور. فالأميركيون الذين التقينا بهم لطفاء كرماء وأصحاب نجدة. ومن الواضح أنهم لا يعرفون شيئا عن حياتنا وتاريخنا. إن المتعلمين منهم بدأوا يتلمسون النور عندما اطلعوا على قصصنا. أما الآخرون فكانوا مفرطي السذاجة. وأذكر أن الأطفال الفلسطينيين الفقراء الذين كانوا يتجولون في طرقات بيت لحم والقدس ليبيعوا الهدايا التذكارية والبطاقات وقناني الماء المقدس من نهر الأردن (غالبا من الحنفية) قد طوروا مع الزمن سلسلة من الملاحظات: السياح الفرنسيون بخلاء لا رجاء منهم، والطليان يكادون أن يكونوا فقراء مثلنا، الإنكليز متعجرفون ولا يمكن التعامل معهم. أما الأميركان فكان لهم على الغالب مركز الشرف في تصنيفات المغفلين المطلوبين. إنهم لم يكونوا مجرد كرماء مبذرين بل كانوا كذلك صيدا سهلا. وقد جاءت حكمة الشارع لتعزز تلك الأطروحات السائدة التي لم أسمع إلى الآن عن ظهور أطروحات مناقضة لها.

إضافة إلى هذه الملاحظات الغامضة التي لملمت بعضها من الأفلام الأميركية فإنني لم أعرف شيئا عن أميركا حتى وطئت أرض نيويورك في آب/اغسطس ١٩٦٠. لم أسمع في المدرسة بذكر أميركا ولا بذكر أي شيء أميركي. لقد تعلمنا التاريخ الفرنسي غيبا وقرأنا الأدب الإنكليزي بنهم. وكل ما أعرفه أن أميركا ما تزال غائبة عن المناهج المدرسية في كل أنحاء العالم العربي برغم مابينهما من مواجهات مزمنة معقدة، وقذرة أحيانا. ولا شك في أن إدوارد سعيد مصيب تماما عندما ينعى فقدان مركز أبحاث واحد في كل العالم العربي مخصص لدراسة أميركا على الرغم من أن كثيرا من المتنفذين العرب خريجو مؤسسات أميركية. لكن القرارات السياسية في العالم العربي لا تتخذ بناء على نتائج الأبحاث.

أذكر أن توني موريسون «الأميركية -الأفريقية»الحائزة على جائزة نوبل في الأداب قالت في إحدى اللقاءات أنها برغم ولادتها ونشأتها في أميركا فإنها أبدا لم تشعر بأنها أميركية. وبما أنني لست مولودا أميركيا فإنني أستطيع أن أفهم تماما معنى أن تعيش في منطقة رمادية. فأي أميركا اعتنقت عندما أصبحت مواطنا في هذا البلد؟ لقد تقدمت للحصول على الجنسية في ١٩٧٢ بعد أن اكملت سنوات الإقامة الاربع المطلوبة بصفة «أجنبي مقيم شرعيا». كانت زوجتي في حينها من مواليد أميركا وكانت ابنتي قد ولدت في عام ١٩٧٠. لقد عملت استاذا مساعدا في قسم العلوم السياسية بجامعة تينيسي في شاتانوغا.

وسرعان ما أيقنت، في فترة الإجراءات الرسمية، أنني أواجه عددا من العوائق منها (أولا)، أنني كنت مدافعا علنيا عن حقوق الفلسطينيين، إذ تحدثت إلى جماعات كنسية وجامعية وحاضرت في عدد من الإجتماعات الأخرى. كذلك كتبت في الصحف وظهرت على شاشات محطات التلفزيون المحلية. وفي تلك السنوات -كما تبين فيما بعد- تبنى الرئيس نيكسون ما يعرف بعملية بولدر Boulder التي خضع بموجبها «العرب- الأميركيون»المعروفون للمراقبة. وقد تم ذلك بعد أن قام الفلسطينيون بعمليات الخطف المسرحي للطائرات وبعد حادثة القتل في ميونيخ. ثم إنني (ثانيا)، كنت نشيطا في حركة مناهضة الحرب في ڤيتنام. ولقد نظمت بالتعاون مع زميل يهودي -صار صديقا لي- مسيرات سلمية وندوات وحشودا ضد الحرب. وأخيرا فقد كنت رجلا أكاديميا أعلم العلوم السياسية، وكان الأساتذة الليبراليون في تلك الفترة، ولا سيما منهم أساتذة العلوم الإجتماعية، ملومين بأنهم وراء مناهضة الشباب الأميركي لحرب ڤيتنام.

من الواضح أنني كنت لضابط الهجرة الذي جاء من اطلنطا لمقابلتي رجلا غير مرغوب فيه. وكان عليه أن يجد سبيلا يمنعني من «التجنس»، لكنه برغم كل

جهوده لم يستطع، وأصبحت مواطنا بالفعل. إن للناس في أميركا حقوقا. لقد كنت أتمتع -وأنا أجنبي مقيم شرعيا- بكل حقوق المواطن ماعدا حق الإنتخاب. كانت كل نشاطاتي محمية بالتعديل الأول للدستور الأميركي، وهو التعديل الذي يضمن حرية التعبير والتجمع. إنني لم أخرق قانونا. وفي يوم القسم الرسمي تقدمت وأنا مغموم مهموم، فلقد كنت طوال حياتي أمني نفسي بالعودة إلى العالم العربي لأشارك في التغيير بصورة ما، وهأنذا الآن أرهن مصيري بقبولي أن أكون مواطنا أميركيا. كانت إجراءات القسم مذلة. ولقد خلقت لكي أشعر بأنني لن أكون مواطنا عاديا بينما كان ضابط الهجرة يعتقد بأن مشاعري في تلك اللحظة ستكون عارمة. هل كنت أريد أن أصبح مواطنا في بلد كنت أشعر فيه وكأنني أعيش في أرض معادية؟ هل كنت أريد أن أواطن بلدا متورطا في عمليات قتل جماعية في الڤييتنام؟ هل كنت أريد أن أكون جزءا من تاريخ حافل بأعمال الإبادة للهنود الأميركيين إضافة إلى رهق العبودية والتمييز العنصري الدائم للملونين؟ لكنني «عقلت» أخيرا. إن العقل البشري مركب مدهش يسمح للمرء بأن يحتال على نفسه بأساليب لا نهاية لها. بذلك كان جوابي بالطبع: «لا». إنني سألتحق بأميركا هؤلاء الذي عرفتهم خلال إقامتي هنا؛ هؤلاء الناس الطيبين الكرماء المتفهمين. وإنني لفخور بمصاحبة هؤلاء الذين ناهضوا العنصرية وخاطروا بالقتال ضد التدخل في ڤييتنام وغيرها من بلدان العالم الثالث. إن أميركاي هي أميركا مارتن لوثر كينغ وأرلو غثري وجوان باز وجيمس بولدوين وبول روبيسون وتوني موريسون. إنني أحب هذه الأميركا وأكره تلك. ولسوف أبقى منفيا مبعدا برغم أنني أصبحت كامل المواطنة. ولعلي أحب أن أضيف أنني أستلذ العيش في هذه المنطقة الرمادية، ولم أكن أريد سواها.

بعيد التحاقي بجامعة «دوك Duke» في آب/اغسطس ١٩٦١ وجدت نفسي أتمشى يوما في مستشفى الجامعة. ولقد مررت ببعض نوافير الشرب العامة وتوقفت للشرب، فلاحظت أنه كان هناك نوعان من هذه النوافير: إحداها للبيض والثانية للملونين. وجمدت برهة في أرضي لأقرر أيها أشرب منها لأنني لم أجد نفسي في حياتي مجابها بالسؤال عما إذا كنت أبيض أو ملونا. إذن، ماذا أنا؟ إن أميركا تجبرك على التفكير في مسألة اللون والدين والوطن المنشأ. وهنا أيضا وجدت حلا للمعضلة بأن قررت الشرب من النافورتين.

أميركا هي بلاد «الأنا». ولقد كان يتعذر علي أن أتعلم التفكير بلغة «الأنا» ذلك لأنني نشأت في بيت تقليدي مسلم بلا إفراط ولا تفريط وفي بيئة عربية تقليدية تحترم الجماعة. ولكنني هنا كما كتب كريستوفر لاش أعيش ثقافة النرجسية حيث اللذة المباشرة رأس الحكمة وحيث لا هم للناس سوى أشغالهم

الشخصية الضيقة وحيث يغيب الإحساس الجماعي نهائيا. إن الحداثة هي التي أوصلتنا إلى هذه النقطة كما أن الرأسمالية الحديثة صارت نظاما يتطلب الإستهلاك: أنا أنفق فأنا إذن موجود. ولا شك في أن في هذا العالم الواسع مواطن يفكر فيها الناس ويعملون على أساس جماعي فيما يقول عنها روبرت بيللا إنها «بقع نمطية». وأحب أن أضيف هنا أنها تتقلص على كل حال.

إن ثقافة النرجسية بالضرورة ثقافة تعتمد التشخيص النفساني. أميركا أكبر منتج لتكنولوجيات الروح. هناك جيش من هؤلاء التقنيين (كعلماء النفس والمحللين النفسانيين والموظفين الإجتماعيين والمرشدين)، وليس هناك من أحد ينجو في مرحلة ما من مراحل حياته من اعتماد هذا التشخيص.

قبل سنوات كانت الجرائد المحلية تخصص عمودا أسبوعيا لأسماء المطلقين بين أهل المنطقة، ثم أصبحت القائمة طويلة جدا مما اضطر الجرائد إلى إلغاء هذه الزاوية. إن أعباء وضغوط الرأسمالية الحديثة بلغت حدا لم يستطع معظم المتزوجين معها مقاومة الإنفصال. إن العلاقات الإنسانية في ظل ثقافة النرجسية علاقات نفعية: «لنجرب الزواج» كما يقول الكثيرون. فإذا لم ينفع طلقنا.

إن انهيار المؤسسات، كمؤسسة الزواج والأسرة، كان وراء تصاعد بلاغيات «قيم العائلة»، فالسياسيون الرجعيون وأنصارهم المسيحيون -يمينا- أطنبوا في هذه البلاغيات مما اضطر الليبراليين إلى دخول معترك هذه البلاغيات أيضا. لكن كل قضية «قيم العائلة» ليست أكثر من صرعة عابرة: سوف تصدر بضعة كتب عن القضية يحقق مؤلفوها من ورائها ملايين الدولارات، وسوف يحلب السياسيون القضية لصالحهم، وفي النهاية لن يتحقق -إذا ما تحقق- إلا النزر اليسير بينما ستطوف على السطح صرعة جديدة تطغى على الأولى وينصرف اهتمام وسائل الإعلام عن القضية كليا.

الإعلام في أميركا يقدم للناس ما يسميه إرڤينغ غوفمان بـ«الإطار» الذي يرون من خلاله العالم. إن الأطر هي وسائل لتنظيم العالم أو بعض أجزاء هذا العالم بصورة تمسك بخيوطه وتجعله سهل القياد والفهم. كل شيء ينحشر في هذا الإطار الذي تصنعه وسائل الإعلام الكتابية والإلكترونية. إن كثيرا من الناس يستمدون معلوماتهم من التلفزيون الذي يصنع عقلية منحطة. ولعل نسبة قليلة من هؤلاء الذين «يعرفون جيدا» يستمدون معرفتهم من الصحف. فكلما زاد إدمان الناس على التلفزيون زاد جهلهم بالعالم من حولهم. لهذا فإن العامة، بصورة عامة، لا يعرفون الكثير. إن بعض الإستفتاءات التي تنشر في بعض المناسبات تدل على أن معظم الناس لا يعرفون من يمثلهم في مجلس الكونغرس.

قد يكون من باب التضليل الإفتراض بأن هؤلاء الذين يصنعون القرارات في واشنطن هم أيضا مجرد بشر «لا يعرفون إلا صورة مشوهة». نعم! إنك تجد في مجلسي الكونغرس دائما أعضاء لايعرفون الكثير عن منطقة بعيدة ما، لكن هذا لا ينطبق على المسؤولين في وزارة الخارجية أو مجلس الأمن القومي.

وعلى العموم، حين يكون هناك إجماع حكومي حول قضية خارجية معينة فإن وسائل الإعلام -وفقا لما يقوله هربرت غانس في «تقرير ماهي الأخبار»- تستمد موقفها من وزارة الخارجية أو من البيت الأبيض. وهذه هي حالة قضية الشرق الأوسط دائما؛ حيث أن هناك مبادىء وأعرافا مرعية ظلت ثابتة لسنوات عديدة. وعلى النقيض، فحين يكون هناك خلاف بين الحكومة حول السياسة تجاه أميركا الوسطى نجد أن وسائل الإعلام تنشر آراء الطرفين. إن المقالات التي تنتقد التجاوزات الإسرائيلية لا تنشر إلا حين يكون في السلوك الإسرائيلي ما قد يؤذي المصالح الأميركية.

وهنا يمكن الحديث عن «الإطار الأميركي» للعرب والمسلمين كما رسمته وسائل الإعلام وبعض الخبراء الأكاديميين. لقد كتب إدوارد سعيد مطولا عن هذه المسألة بدءا من كتابه «تفسير الإسلام» Covering Islam، وهو تفسير سلبي حتى العظم ومشحون بالإزدراء للعرب والمسلمين. إن وجهات النظر التي تعزز هذا «الإطار» هي الوحيدة المسموح بنشرها في الصحافة والتلفزيون. وهذا ما يفسر لماذا يستدعى فؤاد عجمي وغيره للوقوف باحتقار كبير في وجه كل ماهو عربي مسلم. إن دور «خبراء الإعلام» هو تبرير ودعم «الإطار» السائد وليس توعية الناس وإعلامهم. وهناك طبعا حالات قليلة نادرة يسمح فيها بالظهور لإدوارد سعيد أو غيره ممن يستطيعون توضيح الصورة جيدا ومجابهة «الإطار السائد» على الهواء مباشرة.

هناك الآن جهود جبارة لبناء إطار لصيد ما يسمى «الأصولية الإسلامية» وتصويرها بأنها الخطر الجديد الذي يهدد العالم بعد انهيار الشيوعية. إن صامويل هنتينغتون يتحدث عن مجابهة حضارية، ويستخدم ستيفن أمرسون في برنامج «٦٠ دقيقة» التلفزيوني بأسلوب أشد فظاظة كل إمكانيات التزوير ليضع نشاطات الجماعات الإسلامية في الولايات المتحدة في قفص الإتهام. هنا يتم تعطيل كل مستويات الأمانة الإعلامية المتبعة. إن الشائعات الرخيصة والأكاذيب السمجة تطلق جزافا لرسم أبشع صورة ممكنة لجماعات معجونة بالإرهاب والحرب المقدسة. وهنا يحق للمرء أن يتساءل عما إذا كانت هناك علاقة ما بين الإستخبارات الإسرائيلية والحكومة الإميركية وبين الإعلاميين، كما يحق له وضع علامة إستفهام كبيرة حول

أسطورة استقلال وسائل الإعلام في مجتمع ديمقراطي.

أذكر أن المؤرخ الأميركي الكبير كارل بيكر قال مرة إن «الأميركيين» في زحفهم نحو الغرب كانوا مسكونين بفكرة إعادة خلق العالم على «الصورة» التي يملكونها للعالم. ففي أوج الحرب الباردة صدرت أميركا أسطورة «التحديث» للعالم الثالث. أما وسائل الإعلام فإنها لم تكتف بالحديث عن ذلك باطناب وإسهاب فيما كانت ترسم صورا مضحكة لأبطال التحديث وزعمائه مثل ماركوس الفيليبيني وشاه إيران وكثير غيرهم. إن كثيرا من الأكاديميين أنتجوا المجلد بعد المجلد للحديث عن عن «التحديث والإنماء» و «التحديث والديمقراطية» و «التحديث والتفاهم».

كان البلد يعتبر «حديثا» إذا كانت فيه نخبة يستطيع الأميركيون التفاهم معها بالإنكليزية، وإذا كان يستهلك البضائع الأميركية ويلبس أهله الملابس الغربية ويتحدثون عن الثقافة الشعبية الأميركية، وإذا كانت دولته تصوت في الأمم المتحدة إلى جانب أميركا. ولا بأس بعد ذلك إذا ما كانت هذه النخبة تستخدم أدوات التعذيب والقهر للحفاظ على سلطتها، أو ما إذا كانت تضرب عرض الحائط بحاجات ومتطلبات الأغلبية من شعبها حين تقوم بسرقة معظم المساعدات الأميركية الممنوحة لبلادها. إن ذلك التحديث الذي لم يؤد أبدا، لا إلى إنماء وتطور ولا إلى ديمقراطية، قد طواه النسيان، وإن كان ذلك لا يعني أن الناس سوف يجرون تعديلا على حكمهم السابق. فالأسطورة ماتزال تعمل عملها لأنها ماتزال تخدم أهدافا سياسية لم تتغير.

لا بأس بالديمقراطية إذا كانت تحمل إلى السلطة من لا يؤذي مصالحنا أو من نستطيع أن نعمل معه. ولكنها-لا سمح الله- إذا حملت إلى السلطة جماعة من الإسلاميين الأصوليين (كما الحال في الجزائر) أو من الإشتراكيين (كما الحال في تشيلي أوائل السبعينات) فعندها تصبح هذه الديمقراطية شأنا آخر. والمعروف أن كيسنجر حين قيل له إن سلفادور أليندي قد انتخب من قبل شعبه في انتخابات حرة كما ينبغي أجاب: «إنني لست مسؤولا عن بلاهة الشعب التشيلي».

إن النظام الأميركي يعمل برغم كل علله وبرغم أنه معد لانتخاب بشر مشكوك في صلاحيتهم لوظائفهم. لكن هناك هوة بين النظام كما تصوره الخرافات الشعبية وتصدره وسائل الإعلام إلى بقية أنحاء العالم وبين فعالية النظام فعلا. إنه في أساسه نظام يحمي ويضمن تقسيم السلطة والثروة في أميركا. إن الفرق بين الحزبين الرئيسيين ليس جوهريا. إنهما يتنافسان على من هو الأفضل لادارة أعمال البلاد. إنه نظام ديمقراطية موجهة ومصممة من أجل ضمان أن الذين يمكن لهم أن يشاركوا هم أولئك المستعدون لمراعاة أصول اللعبة. لهذا نجد الأميركيين في حملاتهم

وتدخلاتهم الخارجية يفتحون «حنفية» الدولارات ويدعمون الجماعات والأحزاب التي يعتقدون أنها قادرة على التعاون معهم أو أولئك الذين هم أقرب إلى شاكلتهم.

أما بالنسبة للتعاون مع المعارضة فإن أميركا ابتدعت فن الإحتواء: أن تغض الطرف عن قضايا سياسية رمزية وأن تتصلب بالنسبة للمسائل الجوهرية. بهذه الطريقة تم في النهاية احتواء حركة الحقوق المدنية وغيرها من حركات الاحتجاج.

هل يحترم الأميركيون تعهداتهم؟ نعم، إذا كانت هذه التعهدات للأصدقاء والحلفاء. أما التعهدات المعطاة لمن يعتبرون أعداء فقضية فيها نظر. لقد وقعت أميركا أكثر من ١٢٢ معاهدة مع الهنود الأميركيين ونقضت هذه المعاهدات كلها واحدة واحدة. ولقد سئل ياسر عرفات أثناء حصار بيروت في صيف ١٩٨٢ إذا كانت الحكومة الأميركية ستحترم الإتفاقية التي توصل إليها فيليب حبيب من أجل حماية المدنيين الفلسطينيين الباقين في المخيمات، وتم إعلامه بالتعهدات الأميركية التاريخية مع الهنود الأميركيين. لكن عرفات لم يكن يملك خيارا آخر غير مغادرة بيروت وترك المدنيين حيث هم. في النهاية، اجتاح الجيش الإسرائيلي المدينة وأحاط بالمخيمات وأذن لميليشيا الكتائب اللبنانية باقتراف المذبحة المنظمة للاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا.

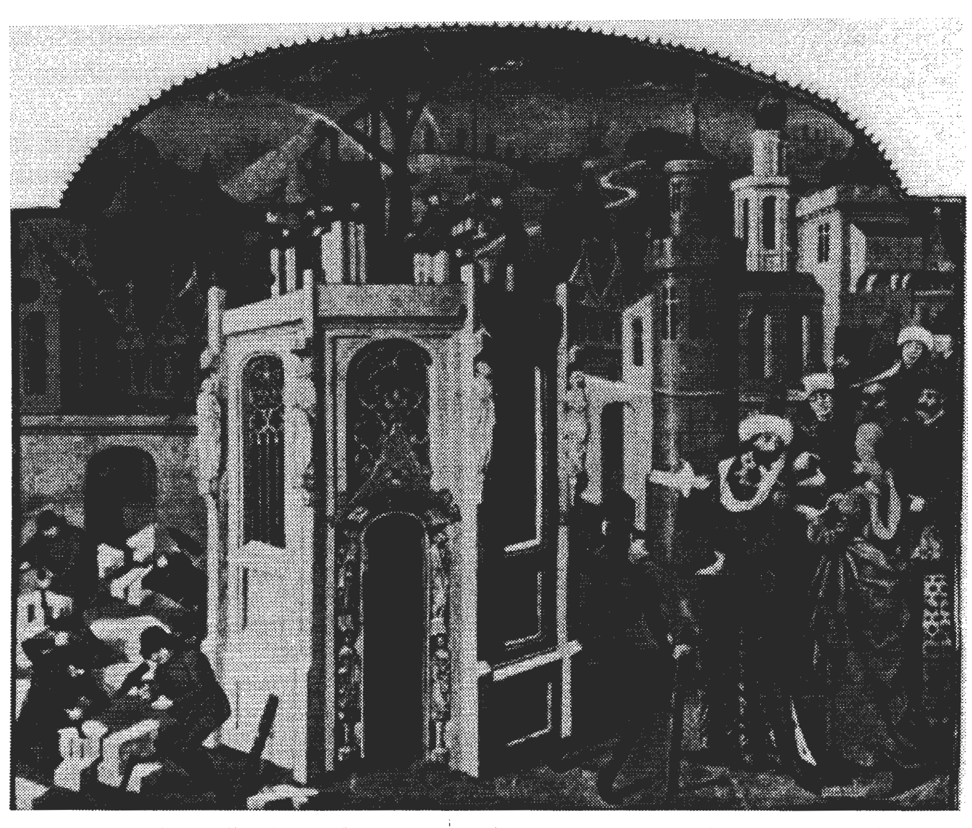
إن أميركا مجتمع معقد ذو تاريخ معقد. إنه مجتمع ما بعد الصناعة المتقدم حيث قد يتمتع الشخص بالحرية الأساسية وحياة سهلة بدون تعقيد. وإن لدى أميركا الكثير مما تقدمه لبقية العالم. لكن شتان بين أميركا التي تراها عيون معظم أبناء العالم العربي وبين أميركا الحقيقية.

في كتابة الجديد «الثقافة والإمبريالية» يبدي إدوارد سعيد الملاحظات الهامة التالية: «تكاد الكتابة الأدبية العربية التي تصور الأميركيين أن تكون معدومة. ولعل أبرز الإستثناءات من حيث الأهمية هو ما كتبه عبدالرحمن منيف في «مدن الملح»، لكن كتبه منعت من دخول عدد من البلدان، كما أن العربية السعودية موطنه الأول جردته من مواطنيته. إنني لا أعرف إلى الآن معهدا واحدا أو قسما أكاديميا مهما في العالم العربي مختصا بدراسة أميركا علما بأن الولايات المتحدة أكبر القوى الخارجية المؤثرة في العالم العربي المعاصر». إن من الضروري دراسة التاريخ والمجتمع الأميركي لكي نتمكن من فهم السياسة الأميركية. وهذا الجهل العربي المطبق بأميركا لطالما أدى إلى شيوع نظريات التآمر: ولعل أكثر هذه النظريات رسوخا هي القول بأن الإستخبارات المركزية الأميركية CIA تتولى إدارة السياسة الخارجية. ووفقا لهذه النظرية فإن الإنتفاضة الفلسطينية من صنع هذه الإستخبارات وكذلك انتصار الخميني في ايران وحرب الخليج الأخيرة. هناك نظرية

أخرى تقول إن اليهود هم الذين يديرون السياسة الخارجية الأميركية بالنيابة عن إسرائيل. إن نظريات التآمر ليست مقتصرة على الجماعات الثانوية في المجتمع بل إنها تمسك بكل الأوتار بدءا من الأميين حتى الزعامات في معظم البلدان العربية. لهذا لا بد للعرب من فهم هذه الأميركا التي تلقي بوطأتها على حياتهم. بل لابد لهم أيضا وهم أبناء حضارة ومدنية عظيمة أن يبحثوا في ماضيهم عن جواب واقعي لهذه الهجمة الشرسة للحداثة قبل أن تغرق مجتمعاتهم في هاوية اليأس الثقافي الذي تحمله إليهم الهيمنة الأميركية.

إنني على يقين من أن بعض المثقفين العرب على الأقل قد بدأوا يتناولون هذه المسألة على محمل الجد. وهناك بداية معتبرة أرساها المفكر والفيلسوف المصري حسن حنفي في عمل أساسي «مدخل إلى علم التغريب» (القاهرة ١٩٩٢). إن حنفي يدعو المفكرين العرب إلى مواجهة ماضيهم ومواجهة الغرب ومواجهة الحاضر لبناء ثقافة أصيلة أساسها حاجات مجتمعهم والوصول جوهريا إلى النبراس الجديد. وهناك نوى لمثل هذا المشروع القومي قد بدأت تتبلور في أعمال عدد من الكتاب العرب في مشرقهم ومغربهم. لكن العمل على محاولة فهم أميركا من أجل الوقوف في وجه هيمنتها السياسية والثقافية مايزال بحاجة إلى بداية.

فؤاد مغربي
قسم العلوم السياسية
جامعة تينيسي في شاتانوغا



الخليفة عمر يشرف على بناء مسجده في القدس كما صورته منمنمة فرنسية من القرن الخامس عشر
The Caliph Omar directs the construction of his mosque in Al-Quds (Jerusalem)
A fifteen-century French miniature

عبادة إسرائيل

مستعمرات اسرائيلية في وعي المسلمين للطبيعة والتاريخ

مع شكر خاص للدكتور طه جابر العلواني رئيس المجلس الفقهي
في أميركا الشمالية لمراجعته هذه الدراسة وتشجيعه على نشرها

ستحاول هذه الدراسة أن تبحث عن جذور المعتقدات الإسلامية الشعبية حول علاقة «بني إسرائيل» بفلسطين ووجودهم التاريخي فيها، وحقهم «الإلهي» في امتلاكها وما ترتب على ذلك من تزوير وانحراف وتشويه لوعي الطبيعة والتاريخ والإنسان والمقدس عند عامة المسلمين. إن هذه الدراسة لا تعنى باللاهوت ولاتتعرض إلا للإنحرافات التي طرأت على معتقدات البشر ومايزال لها آثارها السياسية والإجتماعية في واقعنا وبنية بعض أنظمتنا المعرفية والسياسية. وهي إذ تميز بين العقيدة فتحترمها، وبين التاريخ الذي ليس هناك ما يحرم تمحيص أخباره ونقد وثائقه ورجاله ستنظر نظرة نقدية إلى طبيعة «الثقافة» الشفهية اليهودية التي كانت سائده عند ظهور الإسلام وتستعرض جذورها وآثارها وأشكال وجودها التي ظهرت مجددا مع بداية الإستعمار البريطاني للشرق العربي وبدعمه على شكل قوى سياسية ودينية لم تكن أقل خطرا على فلسطين والأمة العربية والإسلامية من الحركة الصهيونية نفسها.

* * *

في أواخر السبعينات استدرجني البحث في «وعي الكون» إلى الإعتقاد بأن موعد إنسانيتنا مع الثورة الصناعية كان يجب أن يتم في القرن الثاني أو الثالث الهجري (الثامن أو التاسع الميلادي) على أبعد تقدير. وكنت أتساءل انطلاقا من هذا الفرض: لماذا تأخرت الثورة الصناعية عن موعدها الطبيعي قريبا من ألف سنة وأخطأت زمانها ومكانها؟ لقد أعد لنا أجدادنا في وادي الرافدين ووادي النيل وعلى ضفاف بحر إيجه وفي الإسكندرية كل ما يلزمنا لإنجاز الثورة الصناعية في القرن الثامن أو التاسع على أبعد تقدير، وفي المهد الطبيعي لهذه الثورة، أي فيما صار يعرف ببلاد المسلمين. هنا حيث اكتشفت إنسانيتنا الزراعة، ودجنت الحيوانات، وبنت الحواضر، وشقت الأقنية، وشيدت الجسور، وصنعت الأدوات المعدنية والزجاجية، واخترعت الدولاب والعربات، وركبت الأدوية. وهنا حيث اخترعت

الكتابة والأبجدية والحساب والفلك والجغرافيا والتقاويم والساعات والهندسة، ووضعت أول القوانين العلمية التي تمخر بها اليوم مراكبنا بين النجوم.

وهبت الإسكندرية للعلماء المسلمين كنوز أربعة آلاف سنة من المعارف والعلوم والبراعات الإنسانية، وحفظت لهم هذه الكنوز التي نجت من حريق مكتبتها أيام يوليوس قيصر، ثم في أيام حملة زنوبيا على الإسكندرية، وهيأت لهم كل ما يلزمهم لإشعال شرارة الثورة الصناعية. لقد أسلمتهم رسائل مجهولة المؤلفين في «علم القوى المتحركة Dynamics» و «علم القوى الساكنة Statics»، ووضعت بين أيديهم مبدأ «ستراتو Strato» الذي يقول «إن الطبيعة تكره الفراغ».. و «أن الفراغ يمكن تصنيعه»، وهو المبدأ الذي أدى إلى ظهور مئات الإختراعات والصناعات، وقدمت لهم قانون «الممصات» الذي صنعت به المضخات الرافعة والأرغن المائي والساعة المائية، وأهدتهم آلة أرخميدس Archimedes التي ترفع الماء إلى أعلى، وبذلت لهم اختراعات فيلون Philo العجيبة؛ تلك الآلات التي تتحرك بقوة الهواء، ولم تبخل عليهم حتى بالآلة البخارية التي اخترعها هيرون Heron الشاطر، وكشفت لهم أسرار صناعاتها المتقدمة، بدءا من لولب أرخميدس ومضخة ستسبيوس Ctesibius وانتهاء بصناعة الأدوية ومواد التجميل ونفخ الزجاج ونسج التيل وكيمياء الأصبغة وبناء العربات والأسلحة والنواعير، وأخذت بأيديهم إلى الجسر المفضي إلى الثورة الصناعية التي كان تأخيرها ألف سنة إضافية من أعظم مآسي إنسايتنا ووعينا الكوني، فقد كنت -وما أزال- أعتقد بأن الثورة الصناعية أعظم وأنبل ما اخترعته إنسانيتنا على الإطلاق.

«الثقافة» اليهودية الشفهية والمجتمع الإسلامي الأول

كانت المفاجأة الأولى عندما اكتشفت أن المسلمين، قبل ترجمة محمد بن ابراهيم الفزاري لأول كتاب في الفلك «السند هند» في سنة ١٥٦ هجرية (٧٧٢)، لم يكن لديهم إلا مصدر واحد لوعي الكون هو «الثقافة» الشفهية اليهودية التي ملأت بعد ذلك بطون التفاسير وكتب التواريخ والسِيَر واستعمرت عقول المسلمين وقلوبهم، وكانت مصدرهم الأول للمعرفة «العلمية» وتفسير الظواهر الكونية الكبرى.

بذلك فتح السؤال عن تأخر الثورة الصناعية أمامي بابا جديدا تدفقت منه مادة غريبة عن طبيعة اهتمامي، سرعان ما اكتشفتَ أنها أكثر مما أحتاجه في بحثي عن «وعي الكون»، بل لعلها صارت تشكل أساسا متكاملا لعمل مختلف مستقل ليس من اختصاصي. ومع ذلك فقد أفدت من بعض هذه المادة في فهم ظاهرة نفوذ «الثقافة» الشفهية اليهودية وأثرها في نسيج وعي الكون عند المسلمين. لكنني

أبدا لا أزعم أن هذه الظاهرة هي الجواب الشافي عن مسألة تأخر الثورة الصناعية عن موعدها الطبيعي، فهنالك عوامل كثيرة وأسباب متعددة لم يكن نفوذ «الثقافة» الشفهية اليهودية إلا واحدا منها.

كانت المفاجأة تزيدني ألما وغضبا كلما تأكد لي أن هذه «الثقافة» الشفهية هي التي استحكمت بوعي المسلمين للتاريخ والطبيعة والإنسان وتربعت على عرش القلوب والعقول والمقدسات طوال الفترة التي كانت فيها «ثقافة الإسلام» تتبلور وتتخذ ملامحها الأساسية. وكان ألمي وغضبي يتوقدان أكثر وأكثر كلما عرفت حجم الكارثة التي نجمت من هذا «الإنقلاب»، وما ترتب على ذلك من آثار إجتماعية وثقافية وسياسية؛ أدت -في اعتقادي- إلى تزوير لحياتنا الإسلامية وإيذاء لا حدود له بمسيرة حضارتنا الإنسانية.

هذه «الثقافة» الشفهية المتوارثة التي اختلطت فيها الأساطير الشعبية والخرافات الدينية وقصص المعجزات والخوارق، وامتزجت فيها الروايات المتداولة عن أسفار «العهد القديم» وعبادات اليهود الوثنية القديمة في الجزيرة العربية ومنقولاتهم المشوهة عن الأمم القديمة، وانصهرت فيها أقاصيص الكهان وكثير من ترهات الخيال البدوي..كانت تَعتَبِر تاريخ اليهود، كما وصل اليها من أصداء «العهد القديم»، تاريخا طبيعيا مقدسا للسماء والأرض والإنسانية. وكان هذا الخليط المشوه من اليهودية الشفهية والخيال الصحراوي يحول الطبيعة نفسها إلى عَرَض هامشي في حركة التاريخ اليهودي ومسيرته نحو «غاية نهائية» مقدسة تتمثل في مجيىء «المسيا» وقيام «مملكة اسرائيل» على أنقاض مدنياتنا الإنسانية الأولى.

كان يهود «العهد القديم» في كثير من قصصهم وأدبياتهم مثالا على هذا الكبت المقدس الممزوج بالهيستيريا والعدوانية وكراهية الإنسان ومدنياته. وكان هذا «العهد القديم» ومايزال من أخطر ينابيع أخلاق الكراهية والعنصرية و«التطهير العرقي» في تاريخ البشر. فليس هنالك حضارة واحدة من تلك الحضارات العظيمة التي بنت لنا أساس إنسانيتنا وقواعدها، ونسجت بدايات وعينا العلمي والمدني والأخلاقي سَلِمت من لعنته ونذيره لها بالتدمير والخراب والإستعباد والإبادة، من غير تبرير سوى عبادة الذات والتوحيد بين ما تريده وبين ما يريده الله. وهذا -لا القرآن- فيما أعتقد هو جوهر الأخلاق و«الثقافة» الشفهية التي مدت عامة المجتمع الإسلامي الأول بأساس تصوراتهم عن المقدس ووعيهم للطبيعة والإنسان وتاريخ العالم، واضطرتهم إلى طرد السبب الطبيعي من الظواهر الطبيعية، وأقامت في أدمغتهم أول وأعتى مستعمرات «اسرائيل».

كانت هذه «اليهودية الشفهية» التي تبلور تاريخ التسيب الصحراوي

والحياة الرعوية تسقط إحباطاتها أمام المجتمعات المدنية المنظمة ما بين وادي النيل ووادي الرافدين على شكل ذهان هذائي paranoia كثيف ومعقد يجعلها تؤله ذاتها وتعتقد أن كل ما هو خارج هذه الذات -بدءا بالبشر وانتهاء بالطبيعة- نجس شرير مستباح لها ولا مبرر لوجوده إلا عبادتها . وكانت تضرب جذورها في الحقد على كل ما هو إنساني وكل ما هو طبيعي فتفسر الخلق والكون والتاريخ والظواهر الطبيعية ضمن غائيات نابعة من هذا الذهان الهذائي هدفها الإيحاء بأنها تقدس المركزية اليهودية وتعبدها . بذلك فسرت كل ما يوافق هذه المركزية بأنه ثواب من ربها وتكريم ونعمة ، ثم أولت كل ما يختلف معها بأنه عقاب وغضب ونقمة . وبهذا التفسير قلبت التصورات الطبيعية للعلة والمعلول ، وطردت العلة الطبيعية من العالم ، ثم لفقت كونا ذاتيا مزاجيا بدون نظام أو قوانين يقف على الطرف النقيض من التصور القرآني للكون المنظم المسخر للإنسانية anthropic ، وأعدت كل الشروط اللازمة لوأد الثورة الصناعية وسيادة عصور الظلام . (هذه الملاحظات المقتطعة من سياقها لا تقدم فكرة واضحة عن رأيي في أهمية الدور العلمي للحضارة الإسلامية) .

تقديس اليهود ومشروعهم السياسي

مع ظهور الإسلام؛ كان من المفترض أن يخرج التاريخ من بيت الطاعة اليهودي فيستعيد شموله الإنساني! وكان من المنتظر أن ترتاح الطبيعة من مزاج «يهوه» العصبي فتعود إلى العمل وفق قوانينها الطبيعية! غير أن هذا لم يحصل لأسباب منها ان الإسلام لم يخرج كثيرا من القبائل «الجاهلية» من الظلمات إلى النور ، بل إنها هي التي حاولت إخراجه من النور إلى الظلمات . ومنها ان التاريخ الطويل واللغة الواحدة والأسماء المتبادلة والحياة المشتركة جعلت التمييز بين اليهودي والجاهلي مستحيلا !

مَن هو اليهودي ، ومن هو غير اليهودي في قبائل مثل «بني عكرمة ، وبني ثعلبة ، وبني عوف ، وبني القصيص ، وبني النجار ، وبني الحارث ، وبني ساعدة ، وبني جشم ، وبني الأوس ، وبني الشطيبة ، وبني محمر ، وبني زعور ، وبني كعب ، وبني وائل ، وبني القين ، وبني القينقاع ، وبني عمرو ، وبني بهدلة » ، وكثير من هذه القبائل اليهودية التي عاشت في جزيرة العرب ثم انتشرت مثل خلايا السرطان في جسد المجتمع الإسلامي الأول؟

كيف التمييز ولسان هذه القبائل اليهودية عربي مبين كان المرجع في تفسير معاني المفردات والإصطلاحات والأحاديث والآيات؟ كيف التمييز وأسماء ابنائها «عبدالله ومعاذ والليث وأوفى وزيد وسعد وحنيف وسلام ونافع ومناف والمغيرة

والحارث ورفاعة ووهب وكعب ومالك وقيس وسلمة وحنظلة والنضر ومقاتل وسفيان ووائل وعمرو ومعن وحنتمة والوليد وهارون والنعمان وميمون والمنذر و... »؟

ومما زاد في صعوبة التمييز:

❑ أن تدوين التاريخ والسير والمغازي والأنساب وعلوم اللغة والحديث لم يبدأ كما يقول السيوطي في «تاريخ الخلفاء» إلا في نهاية النصف الأول من القرن الثاني (١٤٣هـ)، أي بعد أن كانت الثقافة الشفهية اليهودية قد افترست الوعي الإسلامي للتاريخ والطبيعة والإنسان ولم تبق منه إلا أشلاء ممزقة.

❑ أن «ثقافة» يهود الجزيرة الشفهية، طوال هذه الفترة الطويلة التي كان يتبلور فيها «عالم الإسلام» كانت وحدها المستبدة بوعي الكون والتاريخ والإنسان والطبيعة والأنساب؟

❑ أن بعض يهود الجزيرة أعلنوا إسلامهم، وأن السبايا اليهوديات صرن أمهات وجدات لكثير ممن صنعوا ثقافة القرن الإسلامي الأول. فبعد غزوة خيبر مثلا، كما يروي الطبري وأصحاب المغازي والتواريخ، «فشت السبايا من خيبر في المسلمين»، ثم ذاب الباقي من يهود الجزيرة داخل المجتمع الإسلامي الأول بطرق ماتزال إلى الآن غامضة ومريبة، بين من يقول: إن سماحة الإسلام أبقتهم في مواطنهم ثم أسلموا، وبين من يقول إن معظمهم أعلنوا اسلامهم في الفترة التي استقرت فيها «دولة قريش» بعد حروب الردة وتوحدت تحت رايتها كل جزيرة العرب، وبين آخرين يقولون إن عمر بن الخطاب أجلى من لم يعلن اسلامه حين بلغه أن رسول الله قال في وجعه الذي قبض فيه: «لايجتمعن بجزيرة العرب دينان». وهناك أخيرا رواية في «العقيدة اليعقوبية *Doctrina Iacobi*» وهي وثيقة تاريخية نادرة تركها شاهد عيان من فلسطين، وترجع إلى ماقبل سنة ٦٤٠م (١٩ هجرية)، ونشرت في برلين عام ١٩١٠ تتحدث عن «اشتراك اليهود مع جيوش المسلمين في فتح فلسطين وبيت المقدس»!! كذلك يذكر «سيبيوس» Sebeos في «تاريخ هرقل *Histoire d'Héraclius*» شيئا عن هذا الإختلاط بين اليهود والمسلمين في فتح فلسطين ويضيف إلى ذلك أن الخلاف شجر بين المسلمين واليهود حول مخطط بناء «المعبد!».

ومهما كان الأمر فقد ظل يهود الجزيرة داخل النواة القبلية الأرستقراطية للمجتمع الإسلامي الأول، وظلوا أعظم أركان «الثقافة» الشفهية التي صنعت وعي المسلمين بالطبيعة والخلق وتاريخ الإنسانية وأنسابها. لكنهم فوق ذلك كله – كما تؤكد المصادر الإسلامية نفسها– ظلوا.. يهودا.

ويستفاد مما كتبه المؤرخون المسلمون ولاسيما ابن خلدون في «المقدمة»:

❑ أن يهود الجزيرة الذين أعلنوا الإسلام بقوا على ما كان عندهم من العقائد اليهودية، بينما لم يأخذوا من الإسلام إلا أحكامه الشرعية، وهي أحكام وافق بعضها ماكانوا عليه (من يهودية) قبل الإسلام، بينما استمد بعضها من آيات اقتطعت من سياق قصص بني إسرائيل. وهذا يعني أن هؤلاء «المسلمين» الذين بقوا على ما كان عندهم من العقائد اليهودية كانوا شكليا مسلمين، مما سمح ليهودية «العهد القديم» التي أنكرها الإسلام وأبطلها بمتابعة وجودها الإجتماعي والديني والمشاركة في رسم المعالم الثقافية والتاريخية للمجتمع الإسلامي الأول.

❑ أن مفسري القرآن كانوا يتساهلون في نقل الخرافات الشائعة بين «أهل التوراة» ممن يصفهم ابن خلدون بأنهم أصلا «بداة..لاتحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه». وقد افتروا الكثير من الأحاديث النبوية لتبرير هذا التساهل في النقل، وأهمها حديث: «حدثوا عن بني اسرائيل ولاحرج» وحديث عبدالله بن عمرو: «رأيت فيما يرى النائم كأن في إحدى يديَّ عسلا وفي الآخر سمنا وأنا العقهما!! قال: فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن». وكان عبدالله هذا قد أصاب يوم اليرموك زاملتين (حمل جملين) من كتب «أهل الكتاب»، فكان يحدث منهما. كذلك يروي الطبري أن ناسا من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب، ويحدثونهم أنه من عند الله. ويروي ابن كثير في «البداية والنهاية» فيما يقول انه حديث نبوي: أن الرسول كان يحدث عامة ليله عن بني اسرائيل ولا يقوم من ذلك إلا لصلاة، ثم ينسب اليه: «حدثوا عن بني اسرائيل فقد كان فيهم الأعاجيب» مع ان الرسول عاتب عمر بن الخطاب في حديث آخر عندما جاءه بكتاب أصابه من «أهل الكتاب»، وقال له: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا! فقال له: «أمتهوكون (متحيرون) فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا ماوسعه إلا ان يتبعني»، بل انه عليه السلام؛ إدراكا منه لنفوذ الثقافة اليهودية الشفهية وخطرها نبه مولاه زيد بن ثابت إلى خوفه من اليهود على كتابه، فقال له: «إني لا آمن أن يبدلوا كتابي»! وبرغم ذلك فإن تفاسير القرآن، كما يقول ابن خلدون، «امتلأت من المنقولات اليهودية». وهذا غير مستغرب فقد كان أعداء النبي من قريش نفسها يقولون إن القرآن من «أساطير الأولين»، بينما كانوا يؤمنون بأن التوراة هي «الكتاب»، لا كتاب سواها، وأنها الكتاب الوحيد الذي كتبه الله بيديه، ولهذا فرضوا -بعد إسلامهم- على من يمسها أن يتطهر، ثم نسبوا ذلك إلى النبي عليه السلام.

❑ أن بعض هؤلاء اليهود الذين احتفظوا بعقائدهم، ولم يأخذوا من الإسلام إلا تطبيق الأحكام الشرعية، كانت لهم عند المسلمين منزلة عظيمة ومقام رفيع

وكـان بينهم رجـال، يقـول ابن خلدون عنهم: انهـم «عظمت أقـدارهم عند المسـلمين بـسـبب ما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة».

❑ أن عامـة «الجاهليين» الـذين غلبت عليهم الأمية على اختلاف قبائلهم وعقائدهم، اعتبروا ما يـسـمى بكتاب اليهود مرجعا مقدسا فيه علم كل شيء. وكانت المصادر الإسلامية، بغزارة نقلها عن «كتاب اليهود»، لا تترك شكا في أن عامة المسـلمين أيضا كانت تؤمن بأن اليهودي يقرأ عقل الله وأفكاره ويُعتبر مرجعا لتفسـير كل ظواهر العالم الطبيعي، وتاريخ الإنسـان، والأزمنة والأمكنة التي سبقت خلق الزمان والمكان، وأنه يعرف تفاصيل القيامة والبعث والحشر، والخرائط المجسمة للسموات ولتضاريس الجنة والنار. والواقع أن اليهودي و«الجاهلي» كليهما لم يكن يعرف الكثير عن تراث اليهودية، ولم يكن يقرأ إلا أصداء هذا التراث وخرافاته ومزاعمه وأوهامه في ذاكرته و«ثقافته» الشفهية. وفي اعتقادي أن أبطال هذه المأساة الذين أظهروا كل هذه الحماسة للعنصرية اليهودية وللمشروع السياسي اليهودي، لم يكونوا أفرادا يشار إليهم بالبنان، فمعظم أساطين هذه «الثقافة» من اليهود أو غير اليهود مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وعبدالله بن عباس كانوا واجهة «العقل الباطن» لمجموعة كبيرة جدا من البشر الذين اشتركوا في إحياء هذا المهرجان المقدس الدائم لليهود واليهودية ونسجوا خيوط «الثقافة» الشعبية المشبعة باليهودية بالطريقة التي نسجت فيها «ألف ليلة وليلة». لهذا كانت للقصة الواحدة روايات وروايات، وكان لها رواة ورواة وأبطال وأبطال، وكان يصعب تمييز العناصر الأسطورية من الخرافات الشعبية أو الحكايات التوراتية في هذه «الثقافة» الشفهية المبثوثة بصيغة تكاد تكون واحدة في أمهات مصادرنا التاريخية الأولى.

كانت قريش نفسها تقدس اليهود وكتابهم. فلقد تجاوزت قبيلة الرسول قرابة الدم التقليدية وتخطت عصبية القبيلة لتتحالف مع اليهود في غزوتي «الخندق» و«الأحزاب» وغيرهما. ثم انها ذهبت أبعد من ذلك فاستفتت اليهود فيما يقوله كتابهم عن «الدين الجديد». وكان من بعض سيرة هذا التحالف القديم أن نفرا من اليهود -كما يروي الطبري ومعه كثير من أمهات التاريخ والسيرة- قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب الرسول، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ ومن المسلمات أن قريشا ما كانت لتسأل اليهود الموازنة بين ديانتها وديانه محمد عليه السلام، أو تطلب منهم الحكم على ما كانت تعبده وترتزق منه، لو لم يكن لليهود في نفوسها مقام جليل مقدس ومنزلة أسمى من الديانتين المسؤول عنهما.

* * *

استمر تقديس هذه «الثقافة اليهودية الملفقة» بين أبناء المجتمع الإسلامي الأول برغم تعارض الكثير من مقدساتها مع أبسط قواعد الإسلام وتصوراته، وتصادمها مع مسلمات العقل وبدهياته. والتاريخ -كما سنرى- مايزال يحتفظ بكثير من الشهادات والوثائق التي تصف لنا كيف كانت تعيش مثل العث في أدمغة أساطين الثقافة الشفهية أيام البعثة وبعدها، فتعمل تحريفا وتزويرا في التصورات القرآنية للطبيعة والتاريخ والإنسان؛ تزييفا لم يصل حدود التفنن إلا لأن عبادة الذات والكراهية المقدسة لمدنياتنا الإنسانية الأولى بين وادي النيل والرافدين -كما يصورها العهد القديم- كانتا وماتزالان من أعظم فنون مجتمعات التسيب «الجاهلية» وأطول معلقاتها وأنشط أسواقها وأطول أيامها.

كانت أعظم آيات تقديس هذه «الثقافة» اليهودية هو الإيمان بعنصريتها ومشروعها السياسي كما سنتبين لاحقا، أما الآن فيكفي أن نشير إلى بعض الأشكال الطريفة من هذا التقديس:

❑ من ذلك اعتقادهم بأن اليهودي لا يَقتل إلا شهيدا سواء كان كافرا أو مؤمنا، ظالما أو مظلوما، وأن اليهود الذين عبدوا العجل وقاتلوا موسى فقتلهم هم شهداء لمجرد أنهم يهود.

❑ ومن ذلك ما نسبوا إلى الله قوله لموسى: «لا أعبَد الأرض لأحد بعدك». وهي الترجمة المهذبة لما قاله «يهوه» لموسى في سفر الخروج: «إني جعلتك الها!!...وهارون أخوك يكون نبيك !!». وهذا ما صار لاحقا- مع تبديل الأسماء- محور عقيدة بعض الفرق الإسلامية.

❑ ومنها ايمانهم بأن الله هو الذي أحل لليهود دم الأمم القديمة وأرزاقها وأعراضها ونساءها وأطفالها وبلادها، وجعل ذلك «موروثا» لهم. بذلك نقلت التواريخ والتفاسير الإسلامية معظم الجرائم والمذابح الجماعية اليهودية عن «العهد القديم» بتقديس وإجلال وتمجيد ورفعتها إلى مرتبة العبر الإلهية.

❑ ومن ذلك التقديس ايمانهم بأن الله يعطل نظام الكون لليهودي، كأن يوقف الشمس عن المغيب لكي يستطيع اليهودي ذبح الفلسطيني قبل أن يدخل السبت. ورواية الطبري تقول: إن اليهودي «دعا الله أن يحبس الشمس ففعل»! بذلك قتل الفلسطيني وأسبت اليهودي.

وقد بلغت قداسة هذا السبت درجة تحريف بعض شعائر الإسلام وتزويرها عندما حاول معاوية بن أبي سفيان، كما يروي ابن عساكر، نقل صلاة الجمعة إلى السبت، مثلما حاول عبدالملك من بعده نقل الحج من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى أيام خلافه مع ابن الزبير.

ويلخص ابن خلدون في مقدمته أسباب تقديس «الثقافة» الشفهية اليهودية فيقول:

«إن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية. وإذا تشوفوا إلى معرفة شيء من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم، ولا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حِمير الذين أخذوا بدين اليهودية، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم (!) مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها مثل بدء الخليقة وما يرجع إلى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم. ويتساهل المفسرون في مثل ذلك. وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين كانوا يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك إلا انه بعَد صيتهم وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة، فتلقيت بالقبول من يومئذ!!».

ومما يؤكد رواية ابن خلدون:

أولا، ما يستفاد من الدراسات التاريخية والجيوتوراتية الحديثة التي تتفق كما يقول كمال الصليبي على: «..ان مسرح حياة يهوذا «يهوده» الذي أخذت منه اليهودية اسمها كان في منطقة الطائف، وأن يهوذا في الأصل قبيلة حجازية سكنت مرتفعات الطائف، ومن هناك تفرعت وانتشرت جنوبا، وأن «بني اسرائيل» في الأصل عبرانيون وآراميون؛ العبرانيون هم من تهامة عسير وينتسبون إلى جد أسطوري اسمه اسرائيل، وهو الإسم الذي دمجه سفر التكوين عن قصد بيعقوب. والآراميون يسكنون منطقة الحجاز، ثم انصهر الفرعان في شعب واحد يعرف ببني اسرائيل، وأخذوا عبادة إله البراكين يهوه عن بني يعقوب». وبالتالي فإن «الثقافة» الشفهية اليهودية أساسا هي ثقافة المجتمع الإسلامي الأول؛ عليها قامت عمارة عقله الباطن أو «لاوعيه الجماعي»، ومنها بنيت مسلمات فهمه للإسلام نفسه.

إن اليهود أنفسهم لم يجدوا في أرض فلسطين حتى اليوم ما يثبت أنها كانت وطنهم الأم، أو مهدا لديانتهم، أو انهم كانوا فيها أكثر من جالية هامشية، كما لم يجدوا إلى الآن دليلا واحدا قاطعا على أن أحداث «العهد القديم» دارت في هذا البلد الذي يزعمون أن ربهم «يهوه» وعدهم به، فالأكثرية الساحقة من أسماء

الأماكن التوراتية -كما يقول الصليبي أيضا- غير موجودة في فلسطين، أو في العراق، أو في الشام، أو في مصر، أو حتى في سيناء. وبينما يجمع علماء الساميات أن اللغة العبرية والعربية من أصل واحد ومنبت واحد لقبائل رعوية واحدة يعترف بأصولها المشتركة معظم المؤرخين لانجد في المقابل نسبة معقولة من مثل هذه الجذور المشتركة مع اللغات التي كانت سائدة في فلسطين أو مصر أو العراق أو سورية، حيث يزعمون أن هذه البلدان كانت أكثر من الفي سنة مسرح اختيار «يهوه» لهم وتفضيلهم على العالمين، ومكان نزوحهم وخروجهم وسبيهم وملكهم*.

ثانيا، أن النسابين العرب اعتمدوا في تأصيل أنساب «أجدادهم» على ما جاء في «العهد القديم» وأقروا بتصوراته لتاريخ العالم؛ بدءا من خلق آدم حتى بلوغ هذا التاريخ كماله مع ظهور «المسيا» وقيام مملكة اسرائيل. ثم أقروا بكل الأساطير العنصرية في أسفار «العهد القديم»، ونسبوها إلى الله وقدسوها وجعلوها منطلقا مصيريا للإنسانية. وواضح لمن يتابع الوصايا والعهود والإختيارات اليهودية المنسوبة -من غير تبرير ديني أو أخلاقي- إلى الله في تراث القرن الإسلامي الأول أن أساطين ا «لثقافة» الشفهية اليهودية أرادوا أن يضعوا أساسا دينيا مقدسا للعنصرية التي جعلهم «العهد القديم» أول ضحاياها. وقد تبنى النسابون والمؤرخون المشبعون بهذه «الثقافة» أسماء أولاد آدم واعتمدوا أسماء الأماكن والبلدان وفقا لرواية «العهد القديم» وملحقاته في «الثقافة» الشفهية اليهودية، وتبنوا شجرة النسب العبرانية واتخذوها شجرة نسب للإنسانية، بل اعتمدوا «الوصية» من جد يهودي إلى جد آخر ومن نبي يهودي إلى نبي آخر، وأكدوها وصدقوها من غير تبرير ديني أو أخلاقي سوى عبادة اليهود لأنفسهم، فمن آدم إلى ابنه «شيث»، ولا مبرر لاختيار «شيث» من أولاد آدم سوى أن اليهود يزعمون أنه أساس شجرة أنسابهم، نزولا إلى نوح، فإلى أنبياء اسرائيل -بتسلسلهم التوراتي- واحدا بعد واحد. وجريا على هذا التقديس فإن تمييز العهد القديم بين «الملوك والقضاة والكهنة والأنبياء» التغى نهائيا في «المصادر الإسلامية» التي أطلقت صفة النبوة على كل هؤلاء بدون تمييز (وبعضهم قتلة مجرمون) فقدستهم واستحدثت لهم «علاقة مريبة»

---

* ليس في القرآن الكريم كلمة واحدة تشير-تصريحا أو تلميحا- إلى أن الله تبرع بفلسطين لبني إسرائيل، أو أن أحدا منهم ملكها أو عاش فيها، أو تنفس من هوائها، أو أن فلسطين هي الأرض التي وعدهم الله بوراثتها أو ملكها أو ذبح أهلها كما تذكر كتب التواريخ المنخورة بالثقافة الشفهية اليهودية والتي يقرؤها أطفال المسلمين في المساجد، وكما رسخ في وعي الملايين منهم حتى الآن. ماهو ثابت في القرآن الكريم أن الله أعطى ابراهيم عليه السلام وأهله وأبناءه وذريته الأرض التي بوأ له فيها مكان البيت حيث رفع القواعد من البيت وأذن في الناس بالحج وسأل ربه أن يجعله بلدا آمنا كما سنرى لاحقا.

مع الله بدون تمييز إذ يكفي أن يكون الإسم يهوديا أو متداولا في روايات «الثقافة» الشفهية اليهودية ليصبح نبيا مقدسا مرسلا من الله أو «رجلا من الصالحين».

ومع أن القرآن الكريم -كما سنرى- يقول لهم بصريح العبارة إن ابراهيم «أسكن أهله» في الجزيرة على الإطلاق وبدون تخصيص ولا تمييز؛ فإنهم تجاهلوا ذلك ورفضوا إلا أن يتبنوا الأسطورة العنصرية عن هاجر وسارة لكي يؤكدوا مزاعم «العهد القديم» ومشروعه السياسي وموقفه التمييزي من العرب (أبناء إسماعيل)، وهي القصة التي صارت من المسلمات الغبية عند المسلمين.. هي وكل خلط «العهد القديم» وخبطه عن تعدد شخصيات ابراهيم عليه السلام وأهله وطبيعة رسالته.

أوحت هذه «الثقافة» اليهودية الشفهية بتركيزها المتطرف المريب على المركزية اليهودية للكون والإنسانية بأن الإسلام تخلى عن عالميته وشموله فلم ير من «العالمين» إلا اليهود وتاريخهم وأحلامهم ومشروعهم السياسي. إن كثيرا من المسلمين لم يعد يرى في تراث الإنسانية السابق على ظهور الإسلام إلا أعقم ما في هذا التراث، بينما راح -بتأثير هذا «الثقافة» اليهودية- ينظر إلى الثقافات والمدنيات التي صنعت أنبل ما في إنسانيتنا نظرة الحقد والشتم والإستعلاء الغبي. وتحت هذا العمى المقدس كان مشروع «العهد القديم»يشفي غليل انتقامه من الفرات إلى النيل. حتى كتب اللغة تبنت عنهم خرافة «بلبلة الألسنة» انطلاقا من كراهية «العهد القديم» لبابل. وهذا ما ترتب عليه ارتهان تاريخ البشر و «أنسابهم» وأقدارهم ومصائرهم -في وعي المسلمين- للخرافات اليهودية السائدة في الجزيرة، وأدى إلى مسخ الإنسانية كلها إلى هذه القبائل البدوية اليهودية، وانتهى إلى تشويه الطبيعة وتقزيمها بما يناسب المشروع السياسي للعهد القديم.

وجريا على هذا التراث نقل المؤرخون وأصحاب السير مزاعم اليهود في أن بيت المقدس هو «المعبد» وأن فلسطين هي أرض إسرائيل المقدسة، وأن بلاد الشام وساحل البحر المتوسط حتى الإسكندرية كانت لإسرائيل. ومنهم من تبرع فضم إلى مملكة إسرائيل بلاد الروم، وجعل ملوك اليونان من نسل «عيصو» أخي إسرائيل، مع كل ما يترتب على هذه المزاعم من استحلال هدر دماء كل من وقف في وجه المشروع السياسي الإسرائيلي ومن إعجاب وتقديس لهستيريا الكراهية والحقد والعنصرية، وتعاطف مع الجرائم البشعة والمجازر الجماعية التي تحفل بها صفحات «العهد القديم» مما صار أساسا في وعي العامة وتراثا مقدسا لا تستطيع أن تجابهه من غير أن تتهم بالكفر والإلحاد أو بالأصولية والتطرف والإرهاب.

هذا إذن هو المشروع السياسي للعهد القديم وقد دس أساطين «الثقافة» اليهودية الشفهية سمه في وعي المسلمين. لقد جعلوا بر بني اسرائيل برا لله،

وعصيان أهوائهم معصية لله، وزعموا أن ذلك أساس في تفسيرالكثير من كوارث الطبيعة وهلاك الأمم وتدمير المدن ونشوء الحضارات وسقوطها، ثم نقلوا تفاصيل هذه الخرافات عن «العهد القديم» أو عن «الثقافة» الشفهية اليهودية بتعاطف وإعجاب. كل الأمهات من كتب التواريخ والتفاسير والمغازي والسير الأولى، وبدون استثناء، طافحة بهذه «الثقافة» التي نسبت كل ما شهده العالم من خير وصلاح وعمران وحضارات إلى اليهود. ليس هناك من مدنية أو حضارة أو عمل صالح في الأرض لم يجعلوا له أصلا يهوديا. وليس هناك من شر أو كارثة شهدتها الأرض إلا وكانت انتقاما لليهود. حتى «حركة التاريخ» و«قوانين الطبيعة» نفسها تعمل في هذه «المصادر الإسلامية» بمزاج عنصري ممالىء لليهود ولمشروعهم السياسي.

الجذور الإسرائيلية في الجزيرة

مصادر التاريخ الإسلامي الأولى، وليس دووتي C.M. Doughty، ولا بلاشير R. Blachere، ولا أرنست رينان Renan أو غيره من علماء الساميات، هي التي تقدم لنا التفسير المعقول لسيادة «الثقافة» الشفهية اليهودية في الجزير العربية وتزودنا بالأدلة على عراقة اليهودية وتجذرها فيها قبل الإسلام. فقبل أن يخترع المستشرق الألماني شلوزل A. L Schlözel اصطلاح «السامية» في القرن الثامن عشر كان ابن خلدون، وقبله هشام الكلبي، أول من أشار في المصادر العربية، فيما أعلم، إلى أن الجزيرة ربما كانت مهد اليهودية ومسرح الكثير من أحداث توراتها وقصصها. انه يقول مثلا أن القبيلتين اليهوديتين «بني قريظة» و«بني النضير» كانتا تسكنان بعد موت موسى بنواحي يثرب، وأن جدي القبيلتين «قريظة» و«النضير» كانا كاهنين من ولد الكوهن بن هارون أخي موسى. كذلك يرى ابن خلدون أن وجود اليهود في المدينة، ومنهم بنو بهدل، يرجع إلى أيام العماليق، بعد وفاة موسى. وهذا في رأيه أول سكن لليهود بيثرب، ومنها انتشروا في نواحيها، واتخذوا الآطام والأموال والمزارع. ويروي «ابو الفدا» في «المختصر في أخبار البشر» أن سكنى اليهود خيبرا وغيرها من الحجاز تم في زمان موسى، وأن يهود الحجاز هم أحفاد جيش بني اسرائيل الذي أفنى العماليق بأمر من موسى، ثم استقر في مساكنهم، واستوطن الحجاز.

ويقول أبو الفرج في «الأغاني» أيضا ان الإسرائيليين الذين كانوا يسكنون الشام، «حين ظهر عليهم الروم فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم فروا هاربين إلى مَن بالحجاز من بني اسرائيل». أما ظهور الروم على يهود بلاد الشام فهناك ما يشبه الإتفاق بين التوراتيين على أنه تم في سنة ٧٠ ميلادية، والأرجح أن يهود بلاد

الشام لم يهربوا في ذلك الزمن المبكر إلى مَن بالحجاز من بني اسرائيل بل عادوا إلى أهلهم ومواطنهم الأولى. فمثل هذه العودة اليهودية كانت تحصل دائما عندما تصطدم الأحلام «المسيائية» البدوية بالواقع المدني المنظم خلال موجات الهجرة المتعاقبة التي كانت «تحاول ملكا».

ولقد تكررت ظاهرة العودة التي تحدث عنها صاحب الأغاني على تعاقب الهجرات «المسيائية» إلى عالم المدنيات القديمة. بل إن لدينا شهادة نادرة عن عودةٍ يهودية تمت في السنة التي بَعث فيها محمد عليه السلام كتبه إلى ملوك العالم، كما جاء في «الحوليات» الأرمنية التي اختتمت تاريخها في عام ٦٦١ ميلادية، وهو «عام الجماعة» الذي انتهى فيه الخلاف التراجيدي بين علي ومعاوية. وكان «سيبيوس» وهو من معاصري «الحوليات» قد نقلها في كتابه النادر «تاريخ هرقل» عظيم الروم، ونشره Macler بباريس عام ١٩٠٤. وتتحدث الشهادة عن موجة من اليهود عادوا من الرها Edessa إلى الجزيرة العربية بعد أن استرد «هرقل» منطقة «الرها» من الفرس في عام ٦٢٨، فالتقوا كما يقول «سيبيوس»:

> «بمحمد ‹عليه السلام› التاجر الذي قال لهم انه رسول الله ودعاهم إلى الإيمان بإله ابراهيم، وكان واسع العلم والمعرفة، محيطا بقصة موسى. وقد حرم محمد عليهم أكل الميتة وشرب الخمر والكذب والزنا. وقال لهم: إن الله أعطى هذه الأرض لابراهيم وذرية ابراهيم من بعده إلى الأبد (يوم القيامة)، ثم حفظ عهده هذا عندما أحب اسرائيل. وأنتم يا أبناء ابراهيم إن الله لم يخلف لكم وعده الذي وعد به ابراهيم وذرية ابراهيم، فاذهبوا وانتشروا في هذه الأرض التي أعطاها الله لأبيكم...».

هذه الشهادة النادرة هي التي نبهتني إلى أن القرآن الكريم لم ينسب ابراهيم عليه السلام بعد نجاته من النار إلا إلى جزيرة العرب. فالجزيرة (لا فلسطين) كما يؤكد القرآن الكريم:

هي «الأرض المباركة» التي مضى اليها ابراهيم مع لوط.

وهي الأرض التي بوأ الله له فيها مكان البيت.

وهي الأرض التي فيها رفع القواعد من البيت وطهره للطائفين والعاكفين،

وفيها كان مقامه من دخله كان آمنا.

ومن هذه الأرض أذن في الناس بالحج.

وهناك دعا الله أن يجعل هذا البلد آمنا.

وفي ذلك الوادي «غير ذي زرع» أسكن أهله، ثم سأل ربه أن يرزقه وأهله من الثمرات.

وهى الأرض التي ليس في القرآن إشارة واحدة إلى أن إبراهيم خرج منها، لا

هو ولا أبناؤه. وفي هذه الأرض وحدها، بشهادة أوثق مصادر المسلمين وغير المسلمين، كان يعيش أتباع ملة ابراهيم.

ثم إن هذه الأرض (لا فلسطين) هي الصحراء الحق، بدون تزوير للطبيعة، أو كذب على التاريخ، أو تصفية للبشر.

وهذه هي الأرض التي يستطيع المهاجر بعقيدته وأهله اليها في ذلك الزمان أن يسكنها ويرثها قرير العين مرتاح الضمير إلى أنه لن يَلحق أذى بمخلوق، ولن يعتدي على حق انسان، لأنها كانت، وسط ذلك البحر الزاخر من المدنيات، الأرضَ الوحيدة التي لايزعم أحد من البشر أنها وطنه، أو أن «الله» يظلمه ويعتدي على حقوقه إذا أورثها غيره أو وعده بها.

أما روايات «الثقافة» الشفهية التي تفتري غير هذا، والتي نخرت عقول المسلمين وسممت وعيهم للتاريخ والكون والطبيعة وأخلاق السماء فليست إلا تردادا للخرافات اليهودية ودليلا آخر على عراقة تواطؤ أساطين هذه الروايات مع اليهود وأحلامهم وادعاءاتهم ومشروعهم السياسي.

ثم إن غزارة قصص بني اسرائيل في القرآن الكريم وإعادتها وترددادها وتكرارها، حتى في السورة الواحدة أحيانا، لهي من أعظم الأيات على أن هذه القصص لم تكن إلا التراث المحلي الخاص بالمجتمع «الجاهلي»؛ تراث آبائهم وأجدادهم وتاريخ ايمانهم وكفرهم وسيرة كرهم وفرهم وهجرتهم وخروجهم وعودتهم وغير ذلك مما صاغته كتب اليهود ثم تبنته التواريخ الإسلامية بعجره وبجره. طبعا هذا تراثهم وهذا ما تطيقه عقولهم، فبأي حديث يحدث القرآن هذه «الأمة» التي تفردت بين كل أم الأرض بأن جعلت الأمية فضيلة وتعجرفت بها ورفعتها إلى مرتبة «النعمة الإلهية» غير هذا الحديث عن بشر مثلهم يشاركونهم الأرض والتاريخ والبنية الإجتماعية، ليسهل عليهم استخلاص الدروس و العبر وفهم الأيات ممن جاءهم الأنبياء فافترسوهم ووضعوا على ألسنتهم الإلياذة الخالدة لكراهية الإنسان؟

كانت آيات هذه القصص ولغة خطابها وأسلوبها وطريقة عرضها وقرعها لمسامع أبناء المجتمع الإسلامي الأول وعقولهم تؤكد على العلاقة الوثيقة بين قصص بني اسرائيل وأبطالها وأحداثها وبين تراث ابن الجزيرة وملاحم صحرائه وعقله الباطن. إن هذا التراث الذي احتفظ الجاهليون اليهود وغير اليهود بذكراه الشاحبة المشوهة في ذاكرتهم الجماعية وتوارثوا رواياته جيلا بعد جيل ولفقوا منه موسوعة «أساطير الأولين» لم يكن يعيش في ذاكرة أحد على وجه الأرض غيرهم.

ولدينا شهادة نادرة في «التاريخ الديني لسوزومان *The Ecclesiastical History of Sozomen*» تؤكد على عراقة اليهودية في الجزيرة العربية قبل الإسلام،

فهي شهادة ترجع إلى القرن الخامس، أي قبل ظهور الإسلام بأكثر من قرن، ورواها شاهد عيان هو رجل من غزة كانت لغة أمه العربية، وكان اسمه «سَلامان»، وهو اسم منتشر في الجزيرة، كبني «سلامان بن سعد». و«السلامان» جمع سَلامانة وهي من شجر السهل. يقول «سلامان» في شهادته:

«إن العرب أبناء اسماعيل وهاجر يحرمون أكل لحم الخنزير، ومازالوا يمارسون شعائرهم اليهودية. أما انحرافهم عن اليهودية فإنه نشأ مع الزمن... أو لعلهم نسوا الشريعة المفروضة من قبل جدهم اسماعيل»
ويضيف الشاهد: «إن القبائل العربية تعلمت أنسابها من اليهود، وعادت إلى تطبيق الشريعة اليهودية والعادات اليهودية. ومازالت حتى هذا اليوم تنظم حياتها وفقا للتعاليم اليهودية».

وهناك أيضا اتفاق بين أصحاب التواريخ والمغازي والسير على أن أصل يهودية اليمن هو من المدينة المنورة، وأن تبَع حين جاء ليخرب المدينة التقاه حبران يهوديان من قريظة إسماهما كعب وأسد. فهوداه هو ومن معه من أشراف قومه وعامة صحبه وجنوده، وصرفاه عن مراده. وتضيف الرواية أن الحبرين اليهوديين مضيا بتبَع وقومه المتهودين إلى مكة فكان أول من كسا البيت الحرام. ثم عاد تبع إلى اليمن ليدشن تهويدها. وهذه رواية مبثوثة بصيغ مختلفة في عشرات من كتب التواريخ، وهي من أعجب الشواهد على نفوذ «الثقافة» الشفهية اليهودية في الجزيرة، فهي لم تكتف بالتعبيرعن اهتمام اليهودية بالكعبة وكسوتها وعن «تعظيمها» للبيت الحرام (وهو ما لا يعترف به سجل يهودي)، ولم تقتصر على الإيحاء بأن المدينة كانت مركز تبشير يهودي. بل قالت أيضا إن اليهود حموا مكة والمدينة من الدمار إكراما للنبي القرشي الذي قرأوا اسمه وصفاته في كتابهم، وكانوا ينتظرونه فتصطفق أحشاؤهم إليه، وتتحرق قلوبهم إلى دينه. ثم نَظمت لنا كل هذه القصة التي لانعرف فيها حدود الواقع من حدود الخيال في شعر مهلهل، وختمته بمفاجأة ذات دلالة، وهي أن تبَع، بعد ما تهود هو وقومه على يدي الحبرين اليهوديين، أبى أن يغادر الأرض المقدسة من غير أن يَسكن أشراف قومه اليهود مكة المكرمة ويستعمرهم فيها!

وفي «المحبر» لابن حبيب قصة أدهى، من أهدافها كما هو واضح:

- إيهام بسطاء المسلمين بأنه لولا اليهود لما كان هناك نبي ولا اسلام
- التحريض على كراهية ما يكرهونه. إن «بختنصر»لم يكن عدوا لليهود وحسب بل إنه كان يريد استئصال النبي محمد لولا إخلاص اليهود.
- إضفاء صفة النبوة على كل إسم يهودي بدون تمييز (وقد أضفوها أصلا على كثير من قتلة «العهد القديم» وفجاره)

وتقول القصة التي لا شك في أن مفتريها يعرف من أين تؤكل كتف بلهاء المسلمين: «أن الله أوحى إلى إبراخيا (!) بن أحنيا بن زربايل...<الخ>، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب ... أن يأمر بختنصر بغزو أهل حضور وباعربايا في جزيرة العرب. ثم إن الله أمر النبي أرميا بن حلقيا فجاء مكة، وأخرج منها معد بن عدنان الذي من ولدِهِ محمد صلى الله عليه وسلم، وهرب به إلى الشام، حتى إذا أقلع بختنصر عن العرب رده إلى مكة وأرض العرب خالية !».

وهناك اتفاق بين ابن حبيب في «المنمق» وبين الأزرقي في «أخبار مكة» والهمداني في «الإكليل» على أن اليهود ملأوا مكة قبيل البعثة، وكانوا ينتظرون ظهور النبي عليه السلام، فبرب مكة كم يهوديا من الذين أضناهم الشوق أسلم في مكة؟ لماذا الإستجداء والتهافت والإلحاح على أن يشهد اليهود وكتبهم على بعثة محمد عليه السلام؟ ألن تصح البعثة النبوية بدون شهادة اليهود؟ ثم أين اختفت إذن كل تلك الكتب والأوراق والشهادات المزعومة التي لم يعثر لها التاريخ على أثر، لا عند اليهود ولا عند المسلمين ولا عند أحد على وجه الأرض؟ ولماذا تحدثنا المصادر غير الإسلامية حديثا مختلفا؟ ولماذا صار على المسلم نفسه أن يسقط في عقدة الصّغار والدونية inferiority التي كان يعيشها «الجاهلي» تجاه اليهود؟ ولماذا وصل تلفيق شهادات اليهود إلى درجة الإساءة إلى الذوق والمشاعر والاستهتار بالعقل والمنطق والتاريخ، كما يشهد عليه هذا الأسلوبَ الأرعن الذي صاغ لنا قصة والد الرسول عليه السلام مع «فاطمة بنت مر» ؟ تقول القصة إن فاطمة بنت مر، وكانت عالمة بكتب اليهود، لما رأت نور النبوة في وجه عبدالله والد النبي عرضت عليه أن «يقع عليها ! » لقاء مائة من الإبل فارتجز:

* أما الحرام فالممات دونه *　　* والحل لاحل فأستبينه *

* فكيف بالأمر الذي تنوينه؟*

ثم مضى مع أبيه فزوجه آمنة بنت وهب، وظل عندها يومه وليلته فاشتملت بالنبي (أي: حملت به). وتزعم القصة أن والد النبي ندم على مافاته من عَرض المرأة «العالمة بكتب اليهود» وتراجع عن تقواه، ونقَضَ ما قاله في رجزه الذي صور فيه عفته وخوفه من الله، ورجع إليها يبغي الزنا... فصدته.

حين أصدر الباحثان البريطانيان «باتريسيا كرون P. Crone» و «ميكائيل كوك M. Cook» كتابهما المثير «الهَجَريّة *Hagarism*» في أواخر السبعينات غلب الظن على معظم الذين اطلعوا عليه بأنهما يبالغان في وصف التأثير «الثقافي والأخلاقي» اليهودي على حياة المجتمع الإسلامي الأول وعلى حركة الفتوح، ويغاليان في وصف النفوذ اليهودي وعراقته في جزيرة العرب. والواقع أن الباحثين لا يصدمان

القارىء بمبالغاتهما ومغالاتهما بل يثيران العجب والإشمئزاز بما أنفقاه من وقت وجهد وقراءة وصبر وأضنيا نفسيهما في هذه الرحلة الطويلة الشاقة لكي يوحيا في النهاية بأن الإسلام «نزعة بربرية» لم تنقذه منها إلا «الفضائل» اليهودية !

أما المفاخرة التي أقامها الباحثان البريطانيان بين البدوي اليهودي والبدوي غير اليهودي فلم تكن أكثر من حنين إلى الجوهر العنصري للمفاخرات والنقائض وفرزدقيات «العهد القديم» في مرحلته الصحراوية. وأما ما سوى ذلك من عراقة الوجود اليهودي في الجزيرة ونفوذ الثقافة الشفهية اليهودية فثابت في الواقع كما هو ثابت في المصادر «الإسلامية» نفسها. وقد وضع له «المسلمون» من النسابين وأصحاب التواريخ والسير عشرات المؤلفات المستقلة، أقربَها إلى كتاب الباحثين البريطانيين كتابَ لهشام الكلبي الراوية المؤرخ الذي يعتبر من أغزر مصادر الثقافة الشفهية الأولى وأساطينها، يتحدث فيه عن «الإسرائيليين العرب»، ويسرد فيه أسماء قبائلهم ومساكنهم وأنسابهم وأخبارهم وأشعارهم. وربما كان كتاب هشام الكلبي:

«تسمية من نفل من عاد، وثمود، والعماليق وخبرهم،

وبني اسرائيل من العرب، وقصة الهجريين، وأسماء قبائلهم»

هو الذي أوحى للباحثين البريطانيين حتى بعنوان كتابهما.

التحالفات الحربية مع اليهود

كتاب هشام الكلبي عن «... بني اسرائيل من العرب وقصة الهجريين وأسماء قبائلهم..» لايدع مجالا للشك في أن المصادر الإسلامية هي التي تزودنا بالأدلة على بداوة اليهودية الأولى وأصولها الرعوية في الصحراء العربية، وتعزز الشهادات التاريخية والقرآنية التي تقول إن الجزيرة كانت مهد ديانة ابراهيم وأولاده ومسكن أهله وذريته، وهي الأرض التي بارك الله فيها ووعد بها ابراهيم وذريته، وهي التي كانت مسرح الكثير من أحداث «اليهودية» الأولى، ثم تقدم لنا التفسير المعقول لسيادة «الثقافة» الشفهية اليهودية بينهم. فمعظم هذه المصادر تتفق مع ابن خلدون على أن جزءا كبيرا من منطقة الحجاز كان يهوديا أو خاضعا للسيطرة اليهودية، وأن قوة اليهود الإقتصادية والسياسية و «الثقافية» لم يكن لها ما ينافسها في شمال الحجاز ولا جنوبه، بما في ذلك قوة قريش نفسها، وأن قبائل مثل الأوس والخزرج كانتا في زمن البعثة خاضعتين للسيطرة «الثقافية» والإقتصادية اليهودية. وهذا ما تثبته على الأقل التحالفات الحربية الكثيرة المتكررة. من ذلك مثلا:

- أن غطفان هبت لقتال المسلمين دفاعا عن يهود خيبر

❑ وأن بني عامر ويهود بني النضير كانوا في حلف وعقد
❑ وأن بني سعد بن بكر كانوا مع يهود خيبر..

في سلسلة لا تنتهي من هذه الأحلاف التي أظلت اليهود وكثير من القبائل «الجاهلية» تحت لواء العداوة للمسلمين.

كان يهود بني قينقاع في عصر النبوة يحالفون الأوس، بينما كان بنو النضير يحالفون الخزرج. وقد أثقل اليهود القبيلتين بالديون والإلتزامات. وهناك اجماع بين التواريخ الإسلامية على أن اليهود كانوا يسيطرون على أسواق المدينة وضواحيها ويتحكمون بها، وأن تجارة التمر والشعير والقمح والخمر كانت وقفا عليهم، وان أهم صناعاتهم هي الصياغة والسيوف وبعض أدوات الحرب. إن الذين نسجوا قصة فاطمة بنت مر مع والد النبي وصوروا «طمعه» في أن يبيعها جسده لقاء مائة من إبلها - وهو مَن هو في الأسر المكية- إنما كانوا يعكسون في الواقع فحش الثراء اليهودي وسطوته على أهل مكة، ويؤكدون بطريق مواربة نفوذ التجار اليهود بين أهل مكة كما اتفقت عليه المصادر الإسلامية ! بل إن ابن حبيب يقول في «المحبر» إن اليهود كانوا يستقرون في مكة زمان البعثة وان لعبدالمطلب نفسه جارا تاجرا يهوديا من نجران.

ولا شك في ان هذا النفوذ اليهودي القوي والوهم بأن كتب اليهود تبشر ببعثة محمد عليه السلام وأن اسمه وموطنه وتاريخ بعثته وصفاته كل ذلك مدون في كتبهم هو الذي رسم الأبعاد الدرامية لبعض القصص التي وصلتنا فأسرع بقبيلتي الأوس والخزرج مثلا إلى الإيمان بالنبي، وجعلهم يتنادون فيما بينهم خائفين: «لايسبقنكم إليه يهود ! لايسبقنكم إليه يهود !». وكان مما زاد في خوف القبيلتين أن يهود الجزيرة أنفسهم -وهم كما يقول ابن خلدون «بداة لايعرفون اكثر مما تعرفه العامة» - ربما اختلط عليهم الأمر في البداية فظنوا محمدا عليه السلام مسياهم الموعود الذي ظهر ليحقق أحلامهم التاريخية في قتل أعدائهم، وأن الوقت قد حان لتصفية حساباتهم التاريخية، بدءا من استيطان فلسطين وبيت المقدس، وانتهاء بتدمير القسطنطينية، كما سنرى في قصة كعب الأحبار الملفقة مع الخليفة عمر وقصص كثيرة مثلها. ولهذا قالوا، كما روى ابن اسحق ومن تابعه من رجال السيرة والتاريخ: «ليقتلن اليهودَ أعداءَهم مع هذا النبي قتلةَ عاد وإرم».

ومع أنني أشك في أدلة كيستر M. J. Kister على أن الأوس والخزرج من أصل يهودي فإنني في المقابل أشك في كثير من الروايات التي بالغت في وصف العداوة بين اليهود وبين الأوس والخزرج. فالثابت أنه لم يكن بين القبيلتين وبين اليهود أي معركة أو عداوة تذكر على غرار ما كان بينهما ، بل كان «شحم بطون»

بعض أبناء هاتين القبيلتين من مال اليهود كما عبر عن ذلك الصحابي محيّصة بن مسعود عندما مشى الرسول إلى بقيع الغرقد، وقال: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه»، فوثب محيّصة بن مسعود على ابن سنينة، وهو رجل من تجار اليهود، فقتله، فقال له أخوه معاتبا: أي عدو الله ! قتلته؟ أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ! ومعروف ان يهود المدينة كانوا ينظمون القوافل التجارية. وقد وصلت إلى يهود المدينة تلك الفترة سبع قوافل تجارية قادمة من بصرى في يوم واحد كما يروي عبدالرزاق في «المصنف». وكانت تجارة يهود المدينة بالعطور والثياب والكحل والخمر أيضا. أما يهود خيبر فكانوا يتاجرون بالثياب اليمنية حتى إن المسلمين حين غزوا خيبر لم يبق منهم أحد لم يلبس الثياب اليمنية.

وأجمع أهل السير والتواريخ أن بعضا من الأوس والخزرج ظلوا بعد دخولهم في دين الإسلام يجيرون اليهود ويدافعون عنهم حتى بلغ التبرم والضيق بالرسول أن غضب عليهم ولعنهم. فالأوس دافعوا عن أسرى اليهود وتشفعوا لهم في غزوة بني قريظة. وتصف الروايات حماسة الأوس وحميتهم وتنافسهم مع الخزرج في حماية اليهود، وتقدم لنا الصورة الحقيقية للخلاف العميق بين موقف الرسول عليه السلام من اليهود وبين موقف المتهودين؛ فتقول: «فتواثبت الأوس وقالوا: يارسول الله إنهم موالينا دون الخزرج. وقد فعلتَ في موالي الخزرج بالأمس ما قد علمت». وكان الخزرج قبل يوم، فيما يروي الطبري، قد دافعوا عن يهود بني قينقاع حتى أغضبوا الرسول. ومن قصة ذلك أن عبدالله بن سلول وقف في وجه محمد عليه السلام وقال له: يامحمد أحسن في مواليّ، فأعرض عنه النبي. لكن ابن سلول أدخل يده في جيب الرسول وتلبب به وراح يشده، فقال الرسول: «أرسلني» (اتركني)، وغضب حتى رأوا في وجهه ظللا، كما تقول الرواية. ثم قال له الرسول ثانية: «ويحك أرسلني». قال ابن سلول: لا والله، لا أرسلك حتى تحسن إلى مواليّ ! ثم عاتب الرسولَ على قتلهم عتابا فظا فقال: أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأسود والأحمر تحصدهم في غداة واحدة؟ فقال الرسول: هم لك! ثم قال عليه السلام للمسلمين: «خلوهم ! لعنهم الله، ولعنه معهم».

ولم تصلنا قصة واحدة تشير إلى أن أهل الجزيرة كانوا يعتبرون اليهود غرباء أو جالية طارئة ! لا، ولم يصلنا مثل ذلك عن يهود الجزيرة أيضا ، على الرغم من أن كل تاريخ اليهود حيثما وجدوا هو تاريخ يصخب ويضج بالإستلاب والإغتراب والشكاية والعويل من المنافي و «ظلم» أهلها. بل هناك ما يشبه الإجماع على أن لهم في الجزيرة تشريعات و «مدارس» دينية وأعرافا خاصة بالذبائح والقرابين والقصاص والميراث والإعتراف والتطهير والرق والختان والنكاح وأحكام

المرأة والأعياد والصيام، مما لم يكن اليهود يعرفونه في أي مكان آخر. وهناك رواية صاعقة وردت في معظم التواريخ والسير تقول إن النبي عليه السلام أرسل نعيم بن مسعود إلى يهود بني قريظة ليوقع بينهم وبين قريش وينسف التحالف الحربي بينهما ضد المسلمين، فكان مما قاله سفير النبي ليهود قريظة: «البلد بلدكم! به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تحولوا منه إلى غيره».

فلسطين في «كتاب الله تعالى» لبني إسرائيل!

كان لليهود في زمن البعثة حضور كثيف فوق أرض الجزيرة مثلما كانت لليهودية الشفهية كثافة في وعي قبائلها للطبيعة والتاريخ والإنسان. ولسوء حظ انسانيتنا، كانت هذه القبائل تشكل الهيكل الإجتماعي والسياسي و«الثقافي» الأول للعالم الإسلامي، وكانت غالبية جيوش الفتوح من هذه القبائل التي ارتدت عن الإسلام ثم أعادها «سيف الله». ومعلوم أن كل هذه القبائل من البحرين إلى شمالي نجد ارتدت عن الإسلام يوم انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فلم يبق في الجزيرة إلا من في المدينة وجيش أسامة. ومع استئثار هذه القبائل بالسلطة معظم القرنين الأولين للهجرة وتوجيه الحياة الإسلامية بما يتفق مع «ثقافتها» اليهودية ووعيها وبنيتها النفسية والإجتماعية صارت سلطتها و«ثقافتها» الأساس الذي بني عليه وعي الطبيعة والتاريخ والإنسان عند عامة المسلمين، ولهذا فحين بدأ عصر التدوين بعد أكثر من مائة وأربعين سنة مضت على بناء دولة الرسول لم تجد الكتابة أمامها مادة أغزر ايحاء وتسلطا واعتدادا من هذا المهرجان المقدس للثقافة الشفهية اليهودية.

كانت «المسيائية» راية هذا المهرجان الذي أحيته الكتابة الأولى ليهودية تتمحور حول عبادة الطبيعة والتاريخ والإنسان والألوهة لمملكة اسرائيل وشعبها وعاصمتها. وكانت هذه العبادة التي تسللت إلى صلب الوعي الإسلامي للوجود تمثل جوهر ميتافيزيقا «الديانة» اليهودية، أي حيث يكمن المطلق اليهودي ويتعين وجوده المثالي وتتضح علته وتعرف شروطه. وبما أن هذه «المملكة» أساس عمل الطبيعة وحركة التاريخ والهدف من خلق الإنسان فإن على الوجود كله أن يحبس أنفاسه في انتظارها وانتظار «المسيا» النبي الملك القائد المظفر الذي سيقود «شعب اسرائيل» إلى عاصمتها ومعبدها.

وإذن، فمن المسلمات أن يظهر «شبح» هذه المملكة في كل ثقافة أو عقيدة أو دين أو أفكار متأثرة بالمسيائية اليهودية. إن أتباع السيد المسيح (غير البروتستانت) وجدوا التعويذة اللازمة لطرد هذا الشبح من ملكوت الأرض حين أوّلوا عبادة الطبيعة والتاريخ والإنسان والألوهة لمملكة اسرائيل تأويلا روحيا تبخر

معه المشروع السياسي اليهودي إلى السماء. أما «الثقافة» الشفهية اليهودية فقد حاولت أن تجد في الفتوحات التعبير الحي عن مسيائية «العهد القديم»، وظنت أن الوقت قد حان للتشفي والإنتقام، وبدأ يهود الجزيرة يمنون أنفسهم قائلين: «ليقتلن اليهودَ أعداءَهم مع هذا النبي قتلةَ عاد وإرم».

كان حديث اليهود عن ظهور نبي يكون «المسيا» المنتظر «ملك اسرائيل» من ابرز معالم «الثقافة» الشفهية اليهودية. وكان هذا الحديث الذي لا يمل اليهود من ترداده هو الذي أوهم كثيرا من أصحاب السير والتواريخ المسلمين بأن اليهود يبشرون فعلا ببعثة محمد عليه السلام، وأنهم ينتظرونه.

يهود «العهد القديم» منذ أن ختم «عاموس» مواعظه بنبوءة «عودتهم إلى فلسطين» وهم ينتظرون «المسيا» القائد اليهودي المظفر الذي سيقيم مملكة اسرائيل. والمصادر التاريخية الإسلامية تقول إن من كان ينتظره اليهود ومن بشّر به أنبياؤهم هو محمد عليه السلام، من غير التمييز بين «التوراة» التي أشار إليها القرآن الكريم وبين «العهد القديم» أو الكتب المتداولة بين أيدي اليهود. بذلك التبس على المسلمين أمر كتابة اسم النبي عليه السلام في «التوراة» بما يقوله «العهد القديم» عن ايمان اليهود بمجيء «المسيا». كما تشابه الأمر على بعض اليهود أنفسهم عندما بدأ المسلمون بفتوح الشام وفلسطين فظنوا بأن «خلاص اسرائيل» قد جاء على يد «أبناء اسماعيل»، وبدأوا بتفسير الفتوح تفسيرا مسيائيا!

وعند هذه النقطة تضافر التزويران؛ التزوير الذي كان يستجدي شهادة اليهود ويتهافت على طلبها من «كتبهم»، وتزوير اليهود الذين كانوا يريدون «قتل أعدائهم (شعوب المدنيات القديمة بين وادي النيل ووادي الرافدين) قتلة عاد وإرم»، على غرار مافعلوه بمسيحيي نجران. وكان من الطبيعي أن يهللوا ويفرحوا بكل ما يشفي كراهيتهم التاريخية للمدنيات الإنسانية الأولى.

وفعلا فقد كتب الحاخام شمعون بن يحيى تفسيرا مسيائيا لفتح فلسطين وبيت المقدس في ملحمة مقدسة طويلة بعنوان «ملحمة الأسرار Secrets of Rabi Simon ben Yohai»، وهي بالعبرية نشر «برنارد لويس B. Lewis» في عام ١٩٥٠ بعضا من مقاطعها مترجمة إلى الإنكليزية بعنوان «رؤيا قيامية للتاريخ الإسلامي *An Apocalyptic Vision of Islamic History*» قال فيها عن الفاتحين المسلمين انهم خلاص اسرائيل.

في فتح الشام وفلسطين اختلط «موعود الله» بمسيائية اليهود، وتضافر التزويران حتى ظن كثير من اليهود بأن خلاص اسرائيل قد جاء، وانضموا إلى جيوش الفتح إلى أن وضع الخليفة عمر حدا لهما في كتب الأمان التي أعطاها إلى

أهل فلسطين وبيت المقدس. وكان أهل فلسطين وبيت المقدس مثل أهل الشام والعراق عربا مسيحيين ليس لليهود بينهم وجود سياسي أو ديني أو تجمع سكاني يلفت النظر على غرار وجودهم وتجمعهم في الجزيرة. وكان واضحا مما تركه لنا المؤرخون المسلمون وغير المسلمين أن أهل فلسطين وبيت المقدس كانوا أكثر الناس حساسية وخوفا من اختلاط اليهود بجيش الفتح أو تدفقهم من الجزيرة تحت مظلة المسلمين. ومما زاد في خوفهم أن اليهود نصبوا كثيرا من الشراك ولفقوا عددا كبيرا من القصص والمنامات والنبوات فاكتشفوا في «كتبهم» فجأة قصة الفتوحات الإسلامية وأسماء رجالها وأبطالها! فزعموا مثلا أن هرقل ملك الروم رأى الفاتحين في منامه فاشتبهت عليه هويتهم. وتقول القصة إن هرقل صلى في بيت المقدس شكرا لله، ثم أصبح ذات غداة مهموما يقلب طرفه إلى السماء. وقال: «أريتَ هذه الليلة أن َملك الختان ظاهر»! ولا يعرف أحد إلى الآن - إلا فرويد ربما- لماذا ارتفع التاج في منام هرقل بهذه الطريقة وفوق ما كان في ذلك الزمان علامة على اليهود دون سواهم.

أمام هذا التزوير والتهويل اليهودي أصر أهل فلسطين على أن يكون الصلح مع الخليفة عمر لا مع قادة الفتح، وألحوا على أن يتضمن كتاب الصلح أمان الخليفة و«ذمة الله ورسوله» بأن لايكون الفتح بابا إلى هجرة اليهود إلى فلسطين وبيت المقدس. لهذا جاء الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس فعقد الصلح مع بطريقها صوفرينيوس، ثم كتب لأهل بيت المقدس المسيحيين الخائفين من تسلل اليهود اليهم كتاب الأمان:

> «لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايلياء (القدس) احد من اليهود... وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين...».

وواضح من كتبِ الخليفة إلى أهل بيت المقدس وباقي المناطق الفلسطينية:

❑ أنه لم يكن لليهود(سنة ٦٣٦) وجود سياسي أو ديني أو سكاني يلفت النظر بين المتصالحين من أهل فلسطين أو بيت المقدس، وإلا لكان الخليفة قد أعطاهم من الأمان على أنفسهم وأموالهم ومعابدهم مثلما أعطى المسيحيين، أو لكانت كتبَ الأمان ذكرتهم بشيء كما ذكرت كل الجماعات التي كانت في فلسطين.. حتى اللصوص.

❑ أن كتاب الخليفة عمر أكد أن سكان فلسطين وبيت المقدس كانوا

يتخوفون من تسلل يهود الجزيرة واستيطانهم في فلسطين. لهذا أعطاهم «عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين أن لا يَسكنَ معهم اليهودَ».

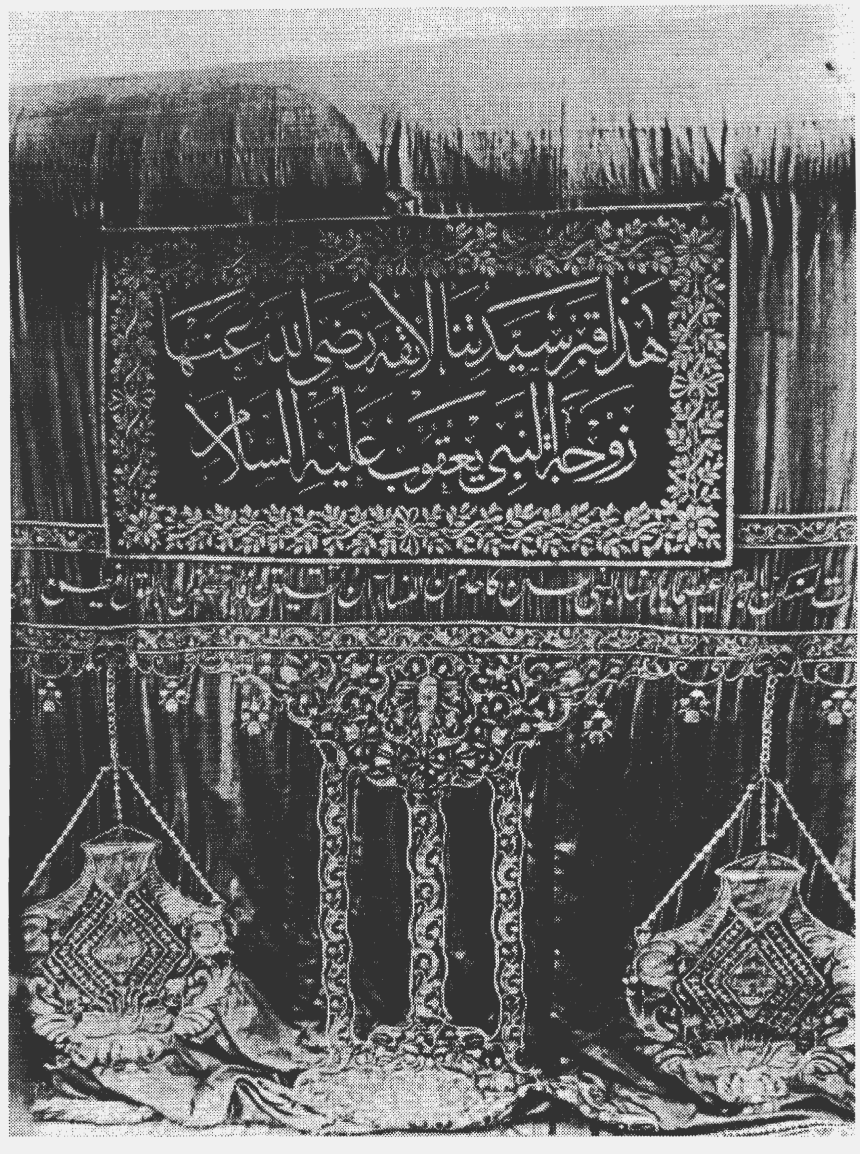
❑ أن هذا العهد الصريح الواضح بأن لا يَسكن معهم اليهود يعني أن احتمال التسكين والتوطين لليهود في فلسطين كان واردا، وأن الخليفة أعطى عهد الله وذمة رسوله بأن يحول دون ذلك.

❑ أن هوية أهل فلسطين وبيت المقدس مثل هوية أهل بلاد الشام والعراق كانت عربية مسيحية وأن كتاب الأمان كان اعترافا بهذه الهوية وضمانا بحرية إعلانها واستمرارها ودفع خطر الإستيطان والتهويد عنها.

وكان اليهود قد أشاعوا بأن فتح فلسطين وبيت المقدس هو زواج مقدس بين «خلاص بني اسرائيل ومُلك بني اسماعيل». ولدينا كثير من الشهادات المكتوبة في تلك الفترة عن شيوع الإعتقاد بتلك «المسيائية الغرامية». من هذه الشهادات المعاصرة للفتوح ملحمة الحاخام شمعون بن يحيى التي زعمت أن المسلمين ما جاءوا إلى بيت المقدس إلا لبناء معبد سليمان، بينما قالت عن خلاص اليهود: «وأنت يا<يهودي> ابن الإنسان! لا تخف ولا تحزن لأن الواحد المقدس تبارك اسمه لم يأت بمملكة إسماعيل إلا لخلاصك...».

إن إطلاق الأسماء اليهودية على كثير من المواقع الجغرافية والقبور والآثار التاريخية في بيت المقدس وعموم فلسطين أو نسبتها إلى رموز دينية يهودية لم تعرفه فلسطين إلا بعد الفتح. لقد وجد اليهودي الفرصة المناسبة لتعريف الفاتحين على معالم مملكة بني إسرائيل المقدسة. ولكي يشمل التهويد أكبر عدد ممكن من القبور والأثار فقد أطلق إسم النبي أو الشخصية التوراتية على أكثر من موقع واحد. بذلك، ومن غير أساس تاريخي أو ديني تمكنت «الثقافة» الشفهية اليهودية في ظل الفتح من القيام بأكبر حملة تهويد جغرافية شهدتها فلسطين قبل احتلالها من قبل الصهاينة. وهي حملة ما يزال بعض المغفلين والمستغفلين «المسلمين» يتابعونها إلى اليوم في كل أنحاء العالم العربي.

لدينا كذلك «رؤيا قيامية» ثانية أشار اليها I. Levi في مجلة الدراسات اليهودية الفرنسية *Revue des etudes juive* تخلع على عبدالملك بن مروان وسام «المسيا» الذي سيعيد بناء معبد سليمان، وتثني على الزواج المقدس بين اسرائيل واسماعيل. وتقول شهادات أهل البلاد المفتوحة المسجلة في «العقيدة اليعقوبية» و «تاريخ هرقل» انه كان يصعب عليهم التمييز بين اليهودي وغير اليهودي، وان اليهود كانوا بين صفوف الفاتحين وقد شجر الخلاف فيما بينهم حول بناء «المعبد!» وتخاصموا على تصميمه. ثم إن المصادر الإسلامية نفسها تصف تعبئة اليهود وتذكر



قبر السيدة «لائقة» زوجة النبي يعقوب! ، مجموعة خليل رعد، «قبل الشتات» لوليد الخالدي

الكثير من الأحداث والشهادات والقصص التي أثارت المخاوف والشكوك من ظواهر تهيّج اليهود واستنفارهم وتهويلهم على أبناء فلسطين وبيت المقدس.

من ذلك أن بعض الأحبار جندوا كل عبقرية التزوير والخرافة للتأكيد على أن أنبياء اليهود توقعوا كل شاردة وواردة من هذه الفتوحات وبشروا بأبطالها الذين «سيقودون اليهود إلى مملكتهم!! »، فمادام عمر بن الخطاب من نسل اسماعيل فإن كل إشارة لإسماعيل في كتب اليهود تؤكد على ظهور مَلِكٍ من ذريته «يخلص » بني اسرائيل. ومادام عمر بن الخطاب يدخل الأرض المقدسة على حمار فإننا نجد في «ملحمة الأسرار » للحاخام شمعون بن يحيى مقطعا طويلا، مخصصا لنبوءات حمير التوراة استيحاءً من حمار الخليفة عمر. وفي «عقيدة يعقوب » الرهاوي *Doctrina Iacobi* ما هو أشنع.

أما أصحاب المصادر الإسلامية المملوءة بهذه التعاويذ والتمائم فبعضهم وجد اسم عمر بن الخطاب ووصفه في التوراة مثل كعب الأحبار، وبعضهم اكتفى بالقول إن عمرا يذكر اليهود بأحد أنبيائهم مثل كعب ووهب بن منبه، بينما يقول الحاخام شمعون بن يحيى في ملحمته أن اليهود أقنعوا عمرا بأنه هو: «ثاني ملوك بني اسماعيل الذي تقول عنه التوراة انه سيكون عاشقا لإسرائيل مغرما بها فيجدد عهودها ويرأم جراحها ويكفكف دموع أبنائها ويعيد بناء معبدها، وأن بني اسرائيل بعد الآن لن يفارقوا معبدهم ولن يبعدوا عنه إلى الأبد ».

معظم هذه المصادر الإسلامية وغير الإسلامية اتفقت على أن اليهود هم الذين أطلقوا على الخليفة عمر لقب «Paroqa پاروقا » أو «فاروق » معربة، وهي كلمة مطورة عن الآرامية، معناها «المخلص » الذي سيقيم مملكة اسرائيل. ومايزال الذين نخرت اليهودية خلايا وعيهم الديني إلى اليوم «يكرمون » عمر بن الخطاب بهذا اللقب الذي لم يكن إلا شتيمة لكل ما آمن به الخليفة الراشد وما أعطى عليه أهلَ فلسطين «عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين » بأن لا يسكن اليهود في بيت المقدس.

ومن هذه التهاويل اليهودية التي تبناها المفسرون والمؤرخون زعمهم بأن عمر بن الخطاب وجد في بيت المقدس «الهيكلَ » الذي لم يستطع علم الآثار اكتشافه حتى الآن، ووجد «محرابَ داود » أيضا. بل يذهب الطبري نقلا عن أساطين البداوة اليهودية إلى القول:

«إن الله هو الذي بنى الهيكل، وأن هذا الهيكل يحيط بكرسيه ».

هل نفهم الآن كيف تحول الحج بسهولة من البيت الحرام بمكة إلى بيت المقدس أيام الخلاف الدامي بين عبدالملك بن مروان وعبدالله بن الزبير، ولماذا بنى

عبدالملك القبة فوق الصخرة، وكيف صار الحجيج يطوفون حول الصخرة كما يطوفون حول الكعبة وينحرون في بيت المقدس يوم العيد ضحاياهم؟ هل نفهم لماذا اخترع أساطين «الثقافة»اليهودية الشفهية هذا العدد الكبير من اليهود الذين التقوا بالخليفة عمر في طريقه إلى الشام فأكدوا له أنهم وجدوا اسمه وصفاته في «التوراة» وأن أنبياءهم يقولون إنه سيفتح بيت المقدس لهم، ثم بشروه بذلك وأهابوا به وباركوه؟

لقد أحيا اليهود مهرجانا لفتح بيت المقدس تظاهروا فيه أمام الخليفة وهتفوا وصخبوا واحتفلوا. هذا ما تقوله «ملحمة الأسرار» و«تاريخ هرقل» وكثير من شهادات أهل البلاد المفتوحة، وهذا ماتقوله أيضا قصة «إسلام» كعب الأحبار وتظاهرة الإبتهاج التي نظمها داخل بيت المقدس كما تتفق على هذه القصة معظم المصادر الإسلامية. تقول رواية المصادر الإسلامية إن كعبا الذي لم يمض على اعلان اسلامه إلا سويعات معدودة دخل مع خليفة المسلمين وصحابة رسول الله وقادة الفتوح إلى بيت المقدس..وأن الخليفة سأله مستشيرا: «أين يبني المحراب» فنصح له كعب ببنائه فوق الصخرة. ولما بدأ عمر يصلي في «محراب داود!» أخذ كعب بالهرج والصياح والهتاف فتبعه «المسلمون». وتقول الرواية: إن عمرا قد غضب، وقال: ماهذا؟ عليَّ بكعب! فأتيَ بكعب، فقال: يا أمير المؤمنين إنه تنبأ على ما صنعتَ اليوم نبي منذ خمسمائة سنة. فقال عمر: وكيف؟ فقال كعب الأحبار: إن الروم أغاروا على بني اسرائيل.. فبعث الله نبيا على الكناسة فقال: «أبشري أوري شلم! عليك الفاروق <المخلص> ينقيك مما فيك!». ثم اخترع كعب نبيا يهوديا نموذجيا آخر فأنطقه بما لا يحلم به البرابرة، تحريضا لعمر على تدمير عاصمة الروم التي كانت من أجمل مدن الأرض، فقال كعب: ثم بَعث إلى القسطنطينية نبي فقام على تلتها فقال: «يا قسطنطينية ما فعل أهلك ببيتي؟ أخربوه وشبهوه بعرشي وتأولوا عليَّ، فقد قضيت عليك أن أجعلك جلحاء يوما لا يأوي اليك أحد».

والسؤال الآن: كيف دخل هذا الحاخام إلى بيت المقدس مع خليفة المسلمين وصحابة الرسول وكبار قادة فتوح الشام بعد سويعات قليلة من إسلامه، وقصة اسلامه كلها منسوجة من كذب ساذج متهافت السياق يضرب بعضه بعضا ويعتدي أول ما يعتدي على «السلامة العقلية» لعمر بن الخطاب ومن معه من رموز الإسلام ويتهمهم جميعا بالغفلة والسذاجة؟ كانت كوميديا اسلام كعب منسوجة على غرار «كوميديا خلق آدم» في «سفر التكوين»، وقد تقمص فيها كعب معظم أبطال قصة الخلق ابتداء من آدم وانتهاء بالحية والشجرة المحرمة، ونسج لنا هذا الكذب المقدس الذي «دوخ» خليفة المسلمين، واستحمق عقول قادة فتوح الشام وصحابة الرسول، و«بلف» بلهاء المسلمين أربعة عشر قرنا! يقول الأزدي في «فتوح الشام»:

«أسلم كعب في قدوم عمر إلى بيت المقدس، وكان كعب من مؤمني أهل التوراة برسول الله» . ثم يترك الأزدي الكلام لكعب واصفا إسلامه:

كان أبي من أعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران من التوراة وكتب الأنبياء . لم يكن يدخر عني شيئا مما كان يعلم، وكان ذلك من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم. فلما حضرته الوفاة دعاني فقال: يابني قد علمتَ أني لم أدخر عنك شيئا مما كنتَ أعلم، إلا أنني حبست عنك ورقتين فيهما ذكر نبي يبعث، وقد أظل زمانه، فكرهت أن أخبرك بذلك فلا آمن عليك بعد وفاتي أن يخرج بعض هؤلاء الكذابين فتتبعه، وقد جعلتهما في هذه الكوة التي ترى، وطينت عليهما، فلا تعرض لهما ولا تنظر فيهما زمانك هذا، وأقرهما في موضعهما حتى يخرج ذلك النبي، فإذا خرج فاتبعه. قال كعب، <والرواية ماتزال للأزدي>: انه لما مات والده فتح الكوة واستخرج الورقتين، فاذا فيهما: «محمد رسول الله خاتم النبيين، لا نبي بعده، مولده بمكة ومهاجره بطيبة» . وقال: انه مكث حتى ظهر النبي، وهاجر، ومات. ثم بلغه أن خليفة قام مقامه. وحين قدم عمر إلى بيت المقدس أسلم، وذهب إلى عمر، وقال: يا أمير المؤمنين: إنه مكتوب في كتاب الله تعالى أن هذه البلاد التي كان فيها بنو اسرائيل وكانوا أهلها مفتوحة على رجل من الصالحين. فقال له عمر: ثكلتك أمك. أحق ما تقول؟ قال كعب: إي والذي أنزل التوراة.

وإذن فإن فلسطين في «كتاب الله تعالى» لبني إسرائيل!!

وهذا ما يعنينا من كل هذا التلمود الشعبي في هذا الزمن الذي يعمل فيه «أحبار الضاد» وعمائم «لانغلي» على التوفيق بين الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين وبين إرادة الله. وما يعنينا أيضا هو السؤال عما إذا كان هناك خيط بين هذا التلمود الشعبي وبين قوى ظلت منذ ثورة ١٩٣٦ توظف من في السماء وما تحت الأرض للإحتلال وتعمل على تدمير كل أمل في مقاومة المشروع السياسي لهذا التلمود وتهيئة الشروط اللازمة للتوحيد بين «عبادة إسرائيل» وبين «عبادة الله» ؟

ليس هناك من لا يكتشف في قصة إسلام كعب ألف ثغرة تهلهلها وتفندها. لكن الخطر لايكمن في بناء القصة وحبكتها وخيالها وشكلها الفني وانما في آثارها الإجتماعية والسياسية والثقافية الآن وفي هذه الفترة التي صار ت فيها «عبادة إسرائيل» فرضا مفروضا من الفرات إلى النيل وصارت حماية «مملكة إسرائيل» والدفاع عنها ومدها بالمال والمشاريع الإقتصادية هو المبرر الأول لوجود الكثير من الأنظمة «العربية» وأساسا لسياساتها وتوجهاتها. ليس الخطر في أن كعب الأحبار لم يسلم حين استخرج الورقتين ووجد اسم النبي وصفته ومكانه وزمانه أو أنه ماطل في تنفيذ وصية والده ثلاثين سنة فلم يعلن إسلامه إلا عند وصول الخليفة عمر إلى

بيت المقدس إنما الخطر في أن هذا التلمود الشعبي الحافل مايزال راقدا في حياتنا السياسية العربية كما ترقد الافاعي ومايزال يخبىء لنا أهله الكثير مما تتطلبه «عبادة إسرائيل» منا، ويتخذ أشكالا حديثة لا تختلف في توجهاتها وطبيعة أهدافها عما قرره كعب الاحبار في أول عبارة قالها أمام عمر بن الخطاب :

أن بني اسرائيل في كتاب الله تعالى هم أهل فلسطين؟!

المقاومة ماتزال ممكنة ومشروعة

انطلقت هذه الدراسة من قناعات لا يمكن صياغتها الأن إلا في هذه النقاط التقريرية الإجمالية:

أولا: ان يهودية «العهد القديم» في جذورها الأولى (قبل صاموئيل) كانت نوعا من «التفريغ abreaction» للإضطرابات النفسية والعصبية التي كانت تعاني منها جماعات بدوية متسيبة تعيش على الرعي، وتلجأ إلى الإغارة على أطراف الحضارات القريبة منها كلما وجدت فيها ضعفا أو غفلة، وان هذا التاريخ الطويل من الكر والفر والهزائم أمام الحضارات الإنسانية الأولى هو الذي صاغ «الوعي البدوي» بالمقدس ونمى الشعور لدى هؤلاء المتسيبين بكراهية هذه الحضارات وتقديس تدميرها باعتبار أن ذلك «موعود ربهم» وطريقه إلى مملكة شعبه. إن عبارة «الوعي البدوي» ليست إلا إشارة إلى مجموعة الخبرات والتجارب والأوهام التي عاشها –مئات السنين قبل الإسلام– «نوماد» الصحراء العربية على اختلاف معتقداتهم في مواجهة العالم المتمدن القديم ثم شملها «التقليداليهودي» وجعلها دينا ما يزال يستعمر وعي كثير من المسلمين وغير المسلمين.

ثانيا: «فكرة إسرائيل» في هذا الوعي البدوي المتسيب، وكما صيغت متأخرا في أكثر من صيغة، كانت من أعظم ينابيع الكراهية والعنصرية والتطهير العرقي في تاريخ البشر. إنها أول تقليد ديني معروف يقدس تدمير المدنيات والحضارات ويعتقد أن ربه أحل له نهبها واستعبادها وهدر دمائها، ويعتبر مملكته هي البديل الطبيعي للمملكة الإنسانية. لم يجد أصحاب هذا الوعي على الأرض متسعا تعيش فيه الإنسانية إلى جانبهم، ولم يكونوا يتخيلون قيام مملكتهم إلا فوق أنقاض الأرض وحضاراتها التي لم تكن في ذلك الحين إلا هذا العالم العربي المسيحي الشرقي زهرة الحضارات البشرية. ولأن هذا الوعي يستعمر عامة المسلمين فإنه أوهمهم بأنه ليس في تراث الإنسانية قبل الإسلام إلا هذا «التلوث المقدس» الذي نخر عقولهم وقلوبهم وجعلهم يحقدون ويتقوقعون ويزدادون جهلا بتراث المدنيات التي صنعت أنبل ما في إنسانيتنا. ومنذ أن كانت هذه «الجريمة ضد الإنسانية» دين التسيب

الصحراوي والوعي البدوي إلى أن صارت دين الوعي الإستعماري الحديث لم تتغير طبيعة كراهيتها ولا جغرافية ضحيتها، ولم تتورع عن ارتكاب الجرائم من أجل تحقيق مشروعها أو تمل من الحلم والتفكير والتخطيط والتحالف مع كل قوة تاريخية «عظمى» في سبيل تحويل هذه «الجريمة ضد الإنسانية» إلى «صنم» يعبده العالم.

(في الغزو الفارسي للقدس، قبيل الفتح الإسلامي لها بسنوات قليلة؛ اشترك اليهود مع الجيش الفارسي في ذبح ٩٠ ألف مسيحي مقدسي ثم اتخذوا البقية من أبناء المدينة عبيدا وباعوهم بأرخص الأثمان. ويروي ديونيزوس Dionysius of Tel Mahré السرياني في تاريخه المنشور في Liverpool University Press ١٩٩٣، أن اليهود بعيد فتح دمشق هم الذين كانوا يعلون أسطحة الكنائس والمعابد المسيحية ويحطمون الصلبان ويطمسون الرموز المسيحية في الشوارع).

ثالثا: كل دعاوى وحدة «الحضارة المسيحية اليهودية» التي نسمعها اليوم كانت، بمجرد أن قويت شوكة المسلمين، تستخدم من قبل القوى اليهودية لإثبات وحدة نسب اسرائيل واسماعيل ودينهما، وفقاً للملاحم القيامية التي راحت تبشر بأن اليهود سيقتلون أعداءهم تحت راية الإسلام.

اتخذ «أحبار» ذلك الزمان دعاوى وحدة النسب والدين «الاسرائيلي الاسماعيلي» مطية إلى مشروعهم السياسي كما امتطوا دعاوى وحدة «الحضارة المسيحية اليهودية» يوم احتلال نابليون لعكا ويوم صار الغرب هو القوة اللازمة لتحقيق هذا المشروع. ولأن «المسيحية» المتحالفة هنا لا تعني إلا الغرب الإستعماري فإن ملفقي هذه «الحضارة اليهودية المسيحية» الواحدة طردوا المسيحيين العرب من فردوس حضارتهم وهاهم يشهدون الآن بكل دم الزواحف على «انقراض» مسيحيي ومسلمي القدس كما ينقرض نوع نادر من طيور الأساطير الساحرة.

رابعا: معظم الحركات الإستعمارية للشرق العربي منذ نابليون بونابرت أدركت أهمية الوعي الديني وحاولت استغلاله وإعادة صياغته بما يناسب أهدافها. ولقد كان لكل من هذه الحركات «عمائمها الكبيرة» التي حاولت إقناع عامة المسلمين بأن الفرق بين سياسة المستعمر الصديق وأهدافه النبيلة وبين ما جاء به الإسلام فرق طفيف تافه يكاد لا يذكر. وكانت كل هذه المحاولات التزويرية تصطدم بإيمان البشر البسطاء الذين يعرفون بفطرتهم أن هذه العمائم «مسكونة»، وأن تسمية قائد الحملة الاستعمارية نفسه باسم إسلامي أو إلقاءه الخطب العصماء في مدح الإسلام والثناء على تاريخه ورجاله وحضارته العظيمة لا يغير شيئا من طبيعة حملته وأهدافه الإستعمارية ولا من واقع حلفه الاستراتيجي (=حربه المقدسة)

مع الدولة الصهيونية. ولأن البريطانيين في اعتقادي أبرع وأبدع وأذكى أساطين النفاق على الأرض فقد كانت السياسة الإستعمارية البريطانية للشرق العربي أكثر الحركات الإستعمارية سخاء في عدد رجالها الذين أسلموا وآمنوا وتعمموا وصلوا وصاموا وحجوا واختاروا لأنفسهم أسماء إسلامية، وكانت أيضا من أكثر الحركات الإستعمارية التي حاولت أن تماهي بين الإسلام وبين سياستها وأهدافها في الشرق العربي. أما في فلسطين فكانت كلما واجهت «شغبا» أو مقاومة لموجات الهجرة اليهودية استعانت بعمائم العرب وأمرائهم لكي يطمئنوا أهل فلسطين إلى إخلاص الحكومة البريطانية وصداقتها للعرب والمسلمين ويسألوهم «الإخلاد إلى السكينة وإيقاف الإضراب حقنا للدماء معتمدين على الله وحسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية». وكانت كل هذه الفتاوى حقنا مسمومة تنتهي بمزيد من التهويد ومزيد من السفن التي تحمل المستعمرين اليهود ومزيد من الدم والعذاب الفلسطيني إلى أن قامت «دولة الكراهية» واكتشف أهل فلسطين أن «الحاج عبدالودود البريطاني» وصديقه الحاكم «العربي» كليهما يعمل على تزوير الوعي الديني اللازم لاحتلال فلسطين.

إن العقل العربي الإسلامي ومنذ حجة الرئيس السادات إلى الكنيست يفقد آخر معاقل استقلاله، وإن كل خصائصه ومقوماته التاريخية تغسل الآن بسيل من فتاوى التطبيع والتهويد مما لا يجد أساسا إلا في تلمود كعب. هناك الآن شبكة من الإعلام والإرهاب والتوماهوك والقرارات والفتاوى الجاهزة في مجلس الأمن والجامعة العربية والأزهر الشريف، وهناك أساطيل من الكليشهات السياسية والثقافية والإيديولوجية تلف بخناق العقل العربي (الأصولي المتطرف) لتحقنه بقابلية «الهيمنة والصهينة» التي تشفيه وتجعله «معتدلا». لكن أفتك أسلحة هذا الحصار وأخطرها على مجتمع متدين حتى العظم مثل المجتمع العربي هو سلاح تزوير الوعي الديني. إن «فقه الهيمنة» الرسمي يشحذ كل طاقات التلفيق والكذب لتبرير الهيمنة والاحتلال، أو إنكار وجودهما وخطرهما، أو تحويل الأنظار عنهما، أو تهيئة كل شروط «الذبح الحلال» لمن يعمل على مقاومتهما.

خامسا: لأن كل ما في الأرض الآن من قوة يريد أن يكافىء المحتل بإعفائه من تطبيق قرارات الأمم المتحدة وبتسمية احتلاله «سلاما» وتسمية توسعه «رخاء إقتصاديا» فإن للوقوف في وجه هذه الجريمة ومقاومتها أولوية على كل عمل أو برنامج سياسي أو ديني. ليس هناك ما يخجل منه المؤمنون بمقاومة الإحتلال، ومازال رجم رموز الهيمنة والإحتلال والإستبداد عملا إنسانيا وأخلاقيا ودينيا نبيلا ومشروعا.

سادسا : لأن هذه الدراسة -غير المقصودة لذاتها- تبحث أساسا عن جذور المعتقدات الشعبية الإسلامية حول علاقة «بني إسرائيل» بفلسطين ووجودهم التاريخي فيها وحقهم الإلهي في امتلاكها فإنه لا بد من القول لأي حركة سياسية تتبنى الإسلام إنه ليس هناك من برنامج سياسي أتقى من تفكيك المستعمرات الإسرائيلية في الوعي الديني وتطهيره بهدف مقاومة «مشروع الكراهية» ومقاومة القوى التي ماتزال تزيف إسمه وتدعمه. هذه المقاومة لجريمة الإحتلال ما تزال -لكل الحركات السياسية المؤمنة بالسلام العادل- مشروعة أخلاقيا وإنسانيا ودينيا وفي إطار الشرعة الدولية المعرضة الأن للتزوير، وماتزال ممكنة إذا استطاعت هذه الحركات أن تحرر وعينا الديني والسياسي وتحرر انتاجنا واستهلاكنا وثرواتنا وقرارنا السياسي والعسكري من قوى الهيمنة وفقهها ورموزها.

منير العكش

التطبيع الفقهي

...كل تراثنا يندرج -أمام إطلاقية القرآن الكريم- في دائرة النسبي الذي تحيط به ثقافته الخاصة، وتؤثر عليه بيئته الإجتماعية والفكرية.

وحين ندرك ذلك إدراكا موضوعيا، مع تفهمنا -بذات الوقت- لخصائص الرسالة الإسلامية الخالدة من خلال عقلية كلية قادرة على فهم المقاصد والغايات فإن عقلية كهذه لقادرة على اكتشاف الكثير الكثير من مواقع الضعف في تراثنا بجانب الكثير الكثير من نقاط القوة.

ففي التفسير يمكن أن نجد «الإسرائيليات» كأخطر نقطة ضعف.

وفي الحديث يمكن أن نكتشف «الأحاديث المدسوسة».

وفي بعض القواعد الأصولية والأحكام الفقهية يمكن أن نجد الكثير من «شرائع الإصر والأغلال» التي فرضها الله على من سبقنا وجاء ديننا لنسخها واستبدالها بشرعة التخفيف والرحمة.

كل ذلك ليستمر أهل العلم من العلماء الربانيين في أداء مهامهم، ولتستمر حالة الإستنفار والرصد المعرفي في أوساط أهل الذكر لئلا يُدس على الإسلام ما ليس منه، وليحافظ على نقاء الرسالة وصفائها حتى يظهر الهدى ودين الحق على الدين كله، وليتم التفاعل الدائم المستمر بين القرآن والكون والإنسان حتى يصبح الكون كله بيتا آمنا للإنسان وتسود القيم المشتركة من الهدى والحق والأمانة العالم كله.

أين مكمن الخطر على الإسلام؟

حدد الله سبحانه خصائص الإسلام العالمية وشرعته التخفيفية قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم. وورد ذكر هذه الخصائص -ولاسيما خاصية التخفيف والرحمة -

في جميع المبشرات التي وردت في دعوات إبراهيم وألواح وتوراة موسى وإنجيل عيسى والصحف الأولى، واستقرت هذه الخصائص في نفوس البشرية قبل البعثة النبوية الخاتمة. وجعل الله من الخطاب العالمي المقترن بشرعة التخفيف والرحمة ووضع الإصر والأغلال ونسخ شرائع التشديد والإصر والأغلال والقيود أهم خاصيتين تميزان النبي الأمي صلى الله عليه وسلم عن بقية الرسل. ومن أهم وأبرز النصوص التي وردت في هذا تلك الأيات الكريمة من سورة الأعراف (١٥٥-١٥٨) التي سجلت واقعة ارتداد بني إسرائيل الجماعي حين عبدوا العجل ثم تضرعوا لله ليغفر لهم وليضع عنهم «شرعة الإصر والأغلال» لئلا يملوا عبادته ويستبدلوا بها عبادة عجل ذهب أو سواه، فأرجأ الله ذلك، وأعلن بأن ذلك كرامة مدخرة للبشرية لن تعلن لحين ظهور النبي الأمي صلى الله عليه وسلم الذي أوكل إليه نسخ «شرعة الإصر والأغلال». وتلك كانت علامته في سورة الأعراف: «واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر وارحمنا وأنت خير الغافرين(١٥٥) واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بأياتنا يؤمنون (١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم... (١٥٨)».

هكذا تمت كلمات ربك فبعث الله النبي الأمي -صلى الله عليه وسلم- كافة للناس بعالمية الخطاب وبحاكمية كتاب تنص على شرعة ناسخة لما سبقها قائمة على التخفيف والرحمة ونسخ «شرعة الإصر والأغلال» جملة وتفصيلا. فلما تبين لليهود ذلك وقد احتشدوا في جزيرة العرب من قبل البعثة ترقبا لظهور النبي الموعود من بينهم، طفح بهم الحقد، وأدركوا أن مزاياهم كشعب الله المختار قد انتهت، وعرفوا أن مرحلة تفضيلهم قد نسخت، فباشروا في الدس على الإسلام وعلى نبيه عليه الصلاة والسلام وهم يعلمون حقيقة النبي الأمي ويعرفونها كما يعرفون أبناءهم: «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» (البقرة:١٤٦).

وتحول الحقد إلى مؤامرات من كل نوع فاستهدفوا تزييف علامات النبوة الخاتمة وعلى رأسها «شرعة التخفيف والرحمة» الناسخة لـ«شرعة الإصر والأغلال» وكذلك إطلاقية الكتاب وحرمة نصوصه والحفظ الإلهي له، فدسوا في التشريع بعضا من

صفات الإصر والأغلال ليشوهوا شرعة التخفيف والرحمة، وابتدعوا أقوالا تقذف في عصمة الكتاب وحفظ آياته وكيفية جمعه وترتيبه للقضاء عليه ككتاب مهيمن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه، وكذلك الطعن في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم.

كيفية الدس اليهودي

انطلق اليهود من الآيات التي تنص على أن القرآن مصدق للكتب السماوية التي سبقته، ومن بينها التوراة [...] ففسروا التصديق بالموافقة والتأكيد، وجعلوا من التوراة «مرجعية» للقرآن، متجاهلين ومتجاوزين بذلك هيمنة القرآن على التوراة ونسخه لأحكامها. فتصديق الكتب السماوية السابقة الذي نص عليه القرآن هو تصديق الثابت والمشترك في رسالات الرسل كلهم من الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالربوبية والألوهية والصفات؛ وهيمنته عليها بتطهير تلك القضايا المشتركة مما أضيف وحرف وبدل، فهو المرجع لتلك الكتب التي سبقته وليس العكس: فهو إذن تصديق يرتبط بالهيمنة عليها وبنسخ شرائعها «فأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة»(المائدة: ٤٨). كما أن التصديق نفسه لا يعني التسليم بما حرف في أصول الكتب السماوية السابقة، ولكنه تصديق يسترجع حقيقة الأصول في تلك الكتب نافيا عنها ما زيف وحرف. ويرتبط التصديق بحفظ حقائق وأصول تلك الكتب في محكم القرآن[...].

انطلق اليهود من مفهوم التصديق، فحرفوه وفرغوه، وشحنوه بنقيض معانيه ليجعلوه تصديقا مطلقا لا تحيط به ضوابط الهيمنة واسترجاع الأصول والنسخ، فجعلوا كتبهم، بما فيها من تزييف وشرعة إصر وأغلال، المهيمنة على القرآن والمرجع المفسر لآياته. فلاغرابة بعد ذلك أن تتسرب جملة هائلة من الاسرائيليات إلى معارفنا المختلفة حتى يتبنى بعض الأصوليين قاعدة «شرعُ مَن قبلنا شرعٌ لنا، مالم يرد ناسخ»، أي: ناسخ جزئي محدد.

وحاولت يهود بكل ما استطاعت من حول وطول أن تدس على القرآن نفسه، توهما منها بأنه كبقية الكتب السماوية التي حرفوها وغيروها بحيث يمكن أن يدخله التحريف والتزييف، فما استطاعت وارتدت عن محاولتها تلك خاسئة حسيرة. وإذا كان الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب فرضي بما دون ذلك فإن يهود ارتضت هي الأخرى بما دون تحريف النص القرآني الذي حفظه الله بحرمته ونور وجهه فعمدت إلى الولوج من باب التفسير والتأويلات المختلفة ودس المرويات، مستغلة

التشابه بين بعض قصص القرآن ومقابلاتها في التوراة، وكذلك القضايا المشتركة المتعلقة بالخلق والكون والإنسان.

كان هدف يهود في بادئ الأمر دفاعيا، فهم قد استهدفوا الحيلولة بين عامة أبناء يهود وبين الدخول في الإسلام [...] فركزوا كل جهودهم على محاولة إقناع كل من له اطلاع على التوراة بأن نبي الله محمد بن عبدالله ليس هو النبي الذي بشر به موسى في الجبل وعرفت صفاته وخصائص شرعته. ولم تدع يهود وسيلة من الوسائل لم تستخدمها لتحقيق هذا الغرض، واستنفروا كل طاقاتهم على اختلافها لتحقيق ذلك، وفي مقدمتها طاقات أحبارهم وعلمائهم، فأضافوا وحذفوا وحرفوا في صفاته الواردة في التوراة [...] أما ما أعياهم تحريفه فأولوه وضمنَوا التوراة والتلمود شروحا تحقق مبتغاهم.

ذلك كان الهدف الأول؛ هدفا دفاعيا نجحوا فيه نجاحا جيدا فلم يتحول من اليهودية إلى الإسلام إلا عدد قليل.

أما الهدف الثاني فقد كان اختراق جبهة المسلمين نفسها. فإذا كان الهدف الأول ناشطا في أيام البعثة النبوية الشريفة، أي الهدف الدفاعي، فإن الهدف الثاني ما لبث أن لحق به من بعد حقبة النبوة الشريفة والخلفاء الراشدين، ومن بعد اتساع دار الإسلام حيث اتسعت فرص الإندساس داخل الأمة الإسلامية الكبيرة المتعددة الأعراق والثقافات والمنبسطة على أكثر من مصر.

صياغة اليهود لمداخل التزييف

إن كل فئة محترفة للتحريف ومستهدفة لإضلال غيرها لابد لها من توليد مداخل للتحريف من البنائية الفكرية ذاتها لتتم عملية الإختراق والتحريف من الأطر التي تعتبر مرجعا عقائديا للناس، لكي يكتسب التحريف والتزييف مرجعية ثابتة، ولو اقتضى الأمر الدس والتزييف والتلاعب بكل شيء.

كان للانحراف في مفهوم «تصديق الكتاب لما بين يديه»- مع تجاهل وتجاوز صفاته الأساسية في الهيمنة على ما بين يديه ونسخ شريعته ومنهاجه لشرائع ومناهج ما سبقه، والغفلة عن مفهوم الذكر وضوابط حفظه- آثار خطيرة في فكرنا نحن المسلمين، وفي معارفنا، فلولا ذلك لما وجد أصوليون مسلمون يتحدثون عن «شرع من قبلنا باعتباره شرع لنا، ما لم يرد ناسخ». لقد تجاهلوا النسخ الكلي ليلزموا المسلمين بالبحث عن الناسخ الجزئي في شريعتنا لما ورد في شرائع من قبلنا التي اعتبرت بمقتضى هذه القاعدة الأصل الذي علينا أن نرجع إليه قبل النبوة الخاتمة وبعدها. وقد فرّع البعض عن هذه القاعدة فقها حمل صفة فقهنا وصار جزءا من

الفقه الإسلامي. ولعل في بعض مباحث وفقه «الشجاج و »أحكامها التي بنيت على قوله تعالى «والجروح قصاص» -حكاية لما كتبه على بني إسرائيل- أمثالا جيدة على ذلك.

أما في إطار الحديث النبوي فقد شاع حديث أبي هريرة: «حدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج »[...] والحديث يبدو كأنه تطبيع للعلاقات بعد تلك النصوص التي حذرت من بني إسرائيل والرواية عنهم أو الثقة بما يقولونه، فهم موصوفون بأنهم «سماعون للكذب، أكالون للسحت»، «يقولون» و«يحلفون على الله الكذب وهم يعلمون»، وكذلك تحذيره عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب وغيره من قراءة التوراة قبل أن يتكامل نزول القرآن وتستقر معانيه في القلوب والعقول. لقد كان فقهاء الصحابة وقراؤهم يحذرون من الإكثار من الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكيلا يزاحم القرآن في صدورهم شيىء آخر ولو كان حديث رسول الله الذي عليه أنزل القرآن فكيف تطلق لهم حرية الحديث عن بني إسرائيل؟ إنها أشبه ما تكون بعملية تطبيع علاقات ثقافية لا تسمح أجواء العلاقات كلها -حتى وفاة رسول الله- بتصديق حدوثها. إن عمر بن الخطاب من قراء الصحابة وكبار فقهائهم ولا شك، ومع ذلك فإن الرسول عليه الصلاة والسلام عاتبه حين جاءه يوما وهو يحمل صفحات من التوراة، فقال عمر: «هذه كنت أصبتها من رجل من أهل الكتاب» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فاعرضها علي»، فعرضها عمر، وقال: «فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيرا شديدا ثم قال: «أمتهوكون فيها؟» -أي: أمتساقطون في النار؟- «وأنا بين أظهركم. لو كان أخي موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي»(والحديث ضعفه السيوطي).

إن القول بأن «شرع من قبلنا شرع لنا» أو «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» يتناقض تماما لا مع صريح الأيات القرآنية الدالة على هيمنة القرآن ونسخه للكتب الأخرى فحسب ولكن يتناقض أيضا مع مقتضيات نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلو كان شرع من قبلنا شرعا لنا لوجب على الرسول صلى الله عليه وسلم الرجوع لذاك الموروث السابق ليستفتيه في كل كبيرة وصغيرة عوضا عن انتظار الوحي أو الإجتهاد عند القائلين بجواز أو وجوب الإجتهاد عليه في الوقائع التي يسأل عنها ولم ينزل فيها وحي؟ فلماذا يجتهد الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك المسائل التي لم يجب عنها الوحي إذا كان شرع من قبلنا شرعا لنا؟ [...]

الإرباك التراثي الذي أحدثه اليهود

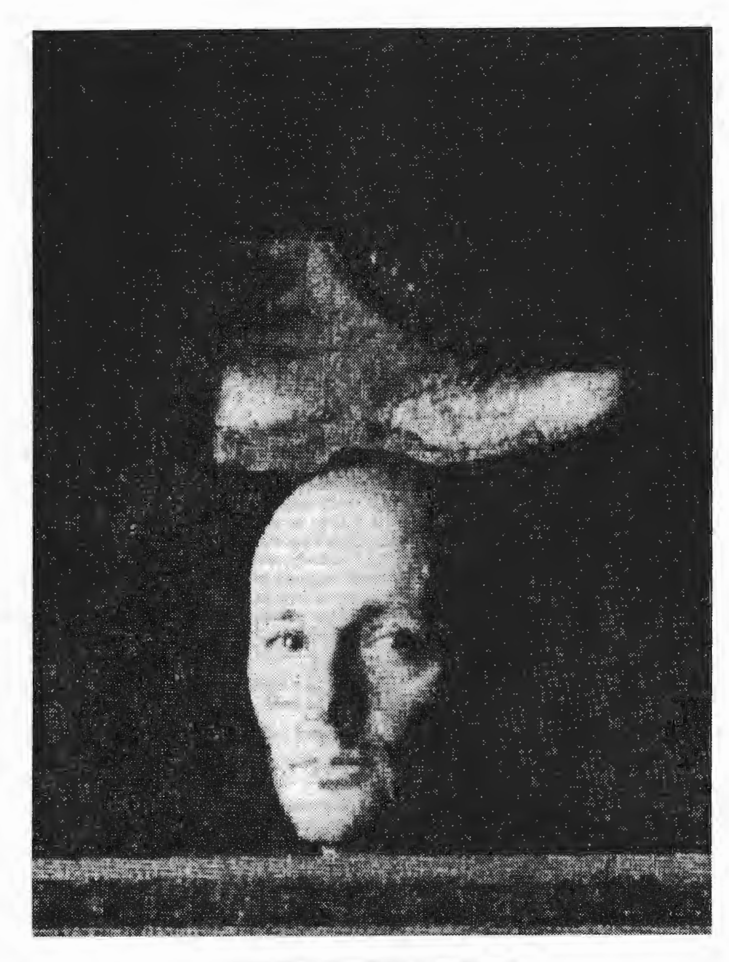
ويكفينا هنا أن نضرب مثلا على هذا الإرباك بفقه المخارج والحيل الذي لم تكن

إطلاقية القرآن ومنهجيته المعرفية الضابطة لكل صغيرة وكبيرة بحاجة إليه. فصدور هذا الفقه في حد ذاته دليل ارتباك وإحساس بالحرج أمام جملة من القضايا الفقهية والأحكام التي تبدو متناقضة مع روح هذه الشريعة ومقاصدها في التخفيف ورفع الحرج [...] ففيما يتعلق بالفقه وما دخل فيه نجد جملة من الأحكام الفقهية التي ذهب إليها فقهاؤنا -رحمهم الله- في عصور سابقة وتحملوا ما فيها من حرج. نذكر منها على سبيل المثال موضوع «الجروح قصاص» الذي مرت الإشارة إليه. فهذا الجزء من الآية ورد ضمن أحكام الإصر والأغلال التي فرضها الله على بني إسرائيل لا على المسلمين. والآية الكريمة صريحة في ذلك. قال تعالى: «وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن وبالسن والجروح قصاص...» (المائدة ٤٥)، فإذا ببعض الفقهاء يذهبون إلى الأخذ بمنطوق الآية بناء على قاعدة «شرع من قبلنا شرع لنا» مع نسيان مفهوم الهيمنة القرآنية ونسخ «شرعة الإصر والأغلال»، فقرروا وجود القصاص في الجروح، ووقعوا في حرج كبير[...] ولو أن الفقهاء -رحمهم الله- أخذوا بقاعدة نسخ شرائع الإصر والأغلال ومنطوق آية المائدة الدالة على اختصاص القصاص في الجروح بتلك الشرائع المنسوخة لما قامت حاجة إلى مثل ذلك في الماضي ولا في الحاضر حيث لا يزال البعض يفتي بمثل هذه الفتاوي على صفحات الجرائد.

لقد ترتب على دخول قاعدة «شرع من قبلنا شرع لنا» وما ماثلها إلى أصولنا الفقهية جملة من الأمور والأحكام الفقهية الخطيرة عدا ما أشرنا إليه في موضوع الجروح. لقد أزيلت الحواجز النفسية فتعامل بعض الفقهاء مع كل «شرائع الإصر والأغلال» باستعداد كامل للنظر فيما يأتي من اليهود على أنه أصل مهم يمكن أن يستفاد منه حكم أو توجه. وبذلك أعطي لأحبار تلك الشرائع في بعض الأحيان مرجعية خاصة تجعل الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم تبعا لأصحاب تلك الأديان والشرائع...!

طه جابر العلواني

* مختارات من دراسة غير منشورة عن «إشكالية الردة والمرتدين» تكرم الدكتور طه جابر العلواني مشكورا بأن سمح لجسور باقتطافها من دراسته المعمقة لتتناسب مع محور العدد الحالي، وواعدا بتخصيص بحث مستقل عن «التأثيرات اليهودية في الفقه الإسلامي» في المستقبل القريب. والدكتور طه جابر العلواني رئيس المجلس الفقهي لأميركا الشمالية وعضو «مجمع الفقه الإسلامي الدولي» ورئيس «المعهد العالمي للفكر الإسلامي»، وله العديد من التأليف والتحقيقات بالعربية والإنكليزية، منها: «الإجتهاد والتقليد في الإسلام» و «أدب الإختلاف في الإسلام» و «أصول الفقه الإسلامي: منهج بحث ومعرفة»، و «الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج».



Victor Mira, *Mere Crisis is not Enough*

برهان غليون*

الدخول في العالمية

والوضع الذي يبعث على الثورة في كل مكان

التحويل الديمقراطي للسياسات الوطنية

إذا استمرت الأوضاع على ما هي عليه، مع تفاقم الضغوط العنيفة والمستمرة، الداخلية والخارجية، المادية والمعنوية، واستمرار الانسداد السياسي، وانعدام التغيير، ونجاح النخب الحاكمة بالاعتماد على الخارج وعلى العنف المنظم في البقاء في الحكم، فينبغي أن لا نتوقع شيئا آخر غير الانتقال من عنف إلى آخر، ومن تطرف إلى تطرف ومن ثورة أو تمرد إلى حرب أهلية. ولا ينبغي أن نستغرب في المستقبل مشاهد مذابح وتصفيات لطبقات أو لنخب كاملة لم تعرفها ذاكرة التاريخ العربية من قبل.

ولن يستطيع أحد أن يتجنب طرح السؤال المحرج، أعني التفكير في أسلوب التعامل مع الكتل المهمشة والمتمردة سواء استعملت للتعبير عن تمردها ايديولوجية دينية أو دنيوية. فالمشاكل تتراكم والانسدادات تتفاقم والتوترات تشتد والتناقضات تستعر، وليس في الأفق ما يشير إلى أن هناك من بين أعضاء التحالف القائم في السلطة من يفكر بأقل من الاحتكار الكامل للمصالح أو أبعد من الحفاظ البسيط على المنفعة والموقع والمنصب الصغير.

ولو تفكر العديد ممن لا يشغلهم إلا تغيير الأفكار والقضاء على الايديولوجيات الخصم لأدركوا أن المسألة تتجاوز بكثير مشاكل الصراع على تحديد عقيدة الدولة وتقسيم السلطة بين الجماعات والطبقات، لتمس وجود الدولة نفسها كمؤسسة وطنية جامعة، ومنعها من التحلل والتفكك والانحلال، ليس بالمعنى القانوني والاداري والسياسي فقط ولكن حتى بالمعنى الجغرافي والترابي. فهي لم تعد لا دولة وطنية ولا دينية، ولا اشتراكية ولا رأسمالية ولا عربية ولا أجنبية. إنها باختصار ليست شيئا آخر سوى ظل نفسها الذي يغطي بالكاد على المصالح الجزئية والمادية الصرفة التي

تنخر فيها تماما كما تنخر السوسة نواة الثمرة وتبقيها قشرة من غير مضمون.

هذه هي المشكلة، وهذه هي أبعادها وآفاقها. وبصرف النظر عن طريقة التعبير عنها. وهي مشكلة وطنية بالمعنى المزدوج، أي بمعنى تأسيس مبدأ المواطنية في المعاملة الداخلية، وبمعنى الرد على التحديات الخارجية وإرادة الهيمنة الدولية. وعلى هذه المشكلة ينبغي أن يرد الفكر السياسي، ومنها ينبغي أن يستمد العناصر التي تساعده على بلورة حلول جديدة وصوغ سياسات ناجعة. وليس من الممكن لا من أفق المذهبية الاشتراكية ولا القومية ولا الاسلامية وحدها خلق الدينامية الكفيلة بإعادة تجميع القوى وتأليفها وتعبئتها للرد على هذه التحديات الكبيرة. بل ليس من الممكن لأي عقيدة أن تقوم بذلك. إن الذي يسمح لهذه القوى بالتآلف والتجمع والتفاهم منذ الآن هو تجاوز مذهبياتها جميعا، أي نزعتها التمذهبية، نحو علاقة سياسية هي ما يضمنه مبدأ الديمقراطية الذي يعني التوافق عن طريق المفاوضة والحوار على قاعدة المعاملة بالمثل واحترام ما ينبغي أن يصبح حقل المصالح الوطنية. ويتطلب هذا موقفا يربط الايمان بمثل عليا بالانفتاح على آراء الآخرين ومواقفهم واحترام مصالحهم الحيوية أيضا.

إن المطلوب من الديمقراطية هو أن تعيد انتاج اللحمة الوطنية حتى يمكن لمجتمعاتنا أن تبلور سياسة فعلية وتوفر جزءا من جهدها لحل مهام الثورة التقنية العلمية التي تتحكم اليوم بأي تنمية اقتصادية أو اجتماعية. فمعركة التنمية هي معركة النفوذ الفعلي إلى مصادر الثروة الحضارية، من قوى تقنية وعلمية وخبرات وأسواق وتنظيمات ومؤسسات وموارد طبيعية. ولا يمكن لجماعة أن تطمح في المشاركة في الرأسمال الحضاري الشامل هذا إلا إذا نجحت في تحقيق شرطين رئيسيين: الأول أن تقيم وجودها الوطني على أسس مستقرة ومتينة، أي أن تتجاوز أزماتها الداخلية وتمتن وحدتها الاجتماعية والفكرية. والثاني أن تضمن اندماجها في كتلة دولية كبرى قادرة على بلورة استراتيجية عالمية والمشاركة في عملية الانتاج والترويج المرتبطة بها، لا تكرار نماذج وطنية بالية. إنه يعني الدخول في العالمية. والترجمة العملية لذلك بالنسبة للجماعة العربية هو استخدام التفاهم الداخلي الوطني من أجل تأسيس قواعد التفاهم الوطني العربي الأوسع الذي يشكل أساس التعاون الاقليمي المثمر. فالمصير الوطني لا يتوقف على الرغبات الذاتية ولكنه ثمرة لتوازن القوى والفعالية الحقيقية في الساحة الكونية. ولا يمكن لمجموعة أن تنال أكثر مما تستطيع أن تدافع عنه بكفاءتها وتضامنها ووحدتها. الديمقراطية والاندماج الاقليمي هما إذن مفتاحا الشعار الذي يعبر عن حاجات التطور الانساني ومهمات التنمية الحضارية في حقبتنا الراهنة، في المنطقة العربية كما هو الحال في جميع المناطق

الأخرى. وهما مترابطان. فلا أمل في تأسيس ديمقراطية مستقرة، ودمقرطة الحياة الاجتماعية والسياسية العربية، من دون تغيير شروط عملية الانتاج والتوزيع العالمية، ولا أمل في تغيير هذه الشروط من دون تبديل أنماط توزيع وممارسة السلطة الوطنية وتنظيم العلاقات الاقليمية. وفي هذا المشروع الديمقراطي والاتحادي معا هناك مكان، ولا بد أن يكون هناك مكان، لجميع القوى والتيارات والمذاهب الفكرية والسياسية.

إن الخروج من المنطق الاستقطابي، وهو الهدف البعيد أو الغاية من أي استراتيجية تغييرية، عربية وعالمية، يستدعي، قبل ذلك وكشرط له، الخروج من أزمة المجتمعات الوطنية التاريخية التي تعيشها اليوم جميع التشكيلات الجنوبية التي أخفقت في تحقيق الاقلاع الاقتصادي والتنمية المحلية. ولا يمكن الخروج من هذه الأزمة إلا بالنجاح في إعادة بناء الوحدة الاجتماعية في هذه التشكيلات، وتجاوز الانقسامات الداخلية، وتوسيع هامش المبادرة الحضارية الفعلية في مواجهة قوى السيطرة العالمية التي تضع مصير البلاد في قبضة المؤسسات المالية والاقتصادية والسياسية الدولية. ولا يمكن بناء هذه الوحدة بتوجيه اليسار ضد اليمين والاسلامية ضد العلمانية وتعميق النزاعات العقائدية، ولكن بالعكس، من خلال اكتشاف نموذج جديد لتوزيع وممارسة السلطة السياسية والاجتماعية، وبتشجيع التحالفات السياسية وتجاوز الخلافات الفكرية من أجل خلق التكتلات الاجتماعية المصلحية القوية، أي بخلق تيار جماعي حي وقوي وشعبي قادر على إجباط استراتيجية التفكيك والتمزيق والهيمنة الأجنبية.

الديمقراطية ليست مشروعا عقائديا، ولا طوبى دينية أو علمانية، ولكنها قاعدة إجرائية ضرورية للتوصل إلى التسويات الاجتماعية والسلام الأهلي ومن ورائهما للتراكم الحضاري بدل التدمير الذاتي والانتحار الجماعي الذي نرى نماذج متعددة منه في ساحتنا العربية. إن الديمقراطية هي شرط مسبق لقيام أي مشروع وطني، أي الضمانة لوجود مشاريع جدية ومجسدة للمصالح الحقيقية، بقدر ما يستدعي هذا الوجود حرية التفكير والتأمل والتعبير، وحرية التنظيم والعمل والنشاط من أجل تطبيق المبادىء والمثل والدفاع عن المصالح المشروعة. فلا ينبغي أن نعتقد أن الجماعات تقوم على مشروع واحد يجذب إليه جميع البشر ويجعلهم يسيرون كالقطعان وراء قيادة ملهمة. إن المجتمعات منتجة باستمرار لمشاريع جديدة ومتبدلة حسب المصالح والأوضاع والتناقضات الداخلية والخارجية. المهم أن تكون هناك آلية سليمة للخروج من هذه المشاريع والتصورات المتناقضة أو المتباينة برؤية جماعية أو بأغلبية شرعية ومقبولة.

ولا يمنع غياب القوة الديمقراطية القوية والجاهزة في الساحة السياسية العربية اليوم أو القوى الاجتماعية القادرة على حمل المشروع الديمقراطي الاجتماعي من تبني الخيار الديمقراطي، ولا يسيئ لهذا الخيار. ولو كان الأمر كذلك لكان علينا أن نسير وراء ما هو قائم ولا نفكر إطلاقا بالتغيير، بل لما احتاج أي تغيير إلى العمل وبذل الجهد والكفاح، ولما كانت هناك ضرورة لخوض المعركة الديمقراطية. إن غياب مثل هذه القوة لا يشير إلا إلى ضرورة بنائها وإنشائها ولا يستنتج منه أن الديمقراطية فكرة طوباوية غير ممكنة التحقيق. إننا نعمل من أجل الخيار الديمقراطي لأننا نعتقد أنه السبيل الوحيد لاخراجنا من الحرب الأهلية وبالتالي لوضع مجتمعاتنا على طريق العمل الجدي والفعال للخروج من الأزمة العامة ذات الأبعاد العالمية. فإذا أخفقنا في ذلك، لم يعد هناك أي أمل لنا في مثل هذا الخروج، وصار محتما علينا أن نخرج من التاريخ. وبناء قوة ديمقراطية منسجمة يستدعي عملا فكريا وعقائديا نشيطا على الساحة الثقافية، ويتطلب تطويرا للموقف الديمقراطي في الصراع الراهن، وتشجيعا للمجتمع المدني على الحفاظ على أكبر هامش ممكن من الاستقلال وعدم الانسحاق في الحرب الأهلية الراهنة التي يفرضها التناقض المطلق في التصورات المتنازعة. وكل هذا يتطلب، كما يتطلب خوض أي معركة أخرى، ايمانا مسبقا بالهدف وبمشروعيته وأهمية تحقيقه وضرورته، وبالتالي الايمان بالمجتمع وبالمستقبل.

وكما يتعارض الموقف الديمقراطي مع موقف الانسحاب أو التسليم بالأمر الواقع، أي التسليم هنا للسلطة القائمة، فهو يتعارض كذلك مع موقف الادانة الشاملة والتيئيس من الحاضر والمستقبل وتشجيع الأطراف المختلفة على الاستمرار في العنف أو استعداء بعضها على البعض الأخر. إن جوهر الموقف الديمقراطي هو العمل الجدي والمستمر لوقف الحرب سواء عن طريق نقد خطاباتها المختلفة وشعاراتها أو عن طريق نقد السياسات والقوى التي تدفع إليها وتشجع عليها. ففي هذا الصراع الايجابي والفعال ضد الحرب الأهلية وفي العمل على تسويد قاعدة الاحتكام للديمقراطية تكمن فرص نمو وضع جديد وتتبلور القوى السياسية والفكرية التي تضمن ولادة الديمقراطية كنظام سياسي اجتماعي جديد. وبالعكس إن تنامي قوى الحرب والنزاع والصدام المسلح سيعمل لا محالة على تراجع القوة الديمقراطية وتدمير المصالح الاجتماعية للاغلبية الشعبية وإغلاق آفاق المستقبل أمام الجميع كما هو حاصل اليوم.

وبالرغم مما يتسم به الموقف الديمقراطي الراهن من ضعف في البلاد العربية، فإن النزوع إلى نظام يقوم على الاحترام المتبادل والمشاركة السياسية وضمان المصالح الحيوية للجميع وتأكيد الكرامة والحرية الفردية يبرز أكثر فأكثر يوميا وينعكس في

سلوك الأفراد والعديد من الجماعات. ويتجلى بشكل خاص في ردود الفعل الرامية إلى فكفكة قنبلة الحرب الأهلية الراهنة وجذب أكثر ما يمكن من عناصر المعارضة والاحتجاج والتذمر نحو خيار الصراع السلمي أو بالوسائل السلمية والسياسية، في مواجهة الخيار الفاشي المتنامي والخيار الشعبوي الحامل لبذور الانقلابية والتصفية المحتملة للنخبة المناوئة "البرجوازية". وعلى كل الأحوال لا يمكن النجاح في جذب الجمهور المحبط والمتمرد نحو قيم الديمقراطية وخطها بالتحالف مع النظام، ولا بتصوير المعركة كأنها معركة تصفية الحساب بين العلمانية والدينية والحداثة والتقليد.

وفي اعتقادي أن الذين يدعون إلى العنف كحل للصراعات والنزاعات الاجتماعية إنما يدعون إلى قتل أي حل ديمقراطي ويعملون على استمرار الأزمة وتعميقها. ولو تتبعنا المنابع الحقيقية لتنامي آلية العنف والعنف المضاد لوجدناها قائمة في انسداد النظام السياسي القائم ورفض النخب الحاكمة التخلي عن أي جزء من السلطة المطلقة التي يتمتعون بها، أو الاعتراف بأن السلطة ليست حكرا أبديا على فئة أو طبقة أو نخبة، وليست ملكية خاصة. فليس من الممكن مواجهة الحرب الأهلية والتخفيف من التوترات الاجتماعية التي تغذيها من دون الاعتراف بضرورة وحتمية التغيير والحق في التغيير والمشاركة في السلطة التي يعني التحكم فيها التحكم بمصير الأمة ذاتها. ومن دون الانتباه إلى هذه المسائل الخطيرة الكامنة وراء انفجار العنف، يتحول الحديث عن الديمقراطية إلى استراتيجية جديدة للحفاظ على الوضع الراهن، وهو ما تسعى إليه النخب الحاكمة، بتبنيها لصيغة مزورة وفاسدة من التعددية. لكن هذه الاستراتيجية لم تخدع أحدا حتى الآن.

ومن معالم هذا الموقف الديمقراطي أيضا عدم الخلط المتعمد أو العفوي بين وجود حركة فكرية أوسياسية وبين العنف. فلم يتحول النزاع الراهن إلى معركة عنيفة إلا لأن العديد من السلطات رفضت الاحتكام إلى الرأي العام وأصرت على البقاء في السلطة بالقوة، ولا تزال تصر على تجميد عملية التحول السياسي وتداول السلطة. وإذا كان العنف قد أفسد صورة القوى المعارضة، فإنه قد نجح في إضعاف معركة التغيير الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، أي معركة الاصلاح، وسمح للفئات الحاكمة في البقاء في الحكم والتمديد لنفسها وتجنب المسؤولية.

ولن تقضي تصفية الحركة الاسلامية على أية حال على الاحتجاجات الاجتماعية. كما أنه ليس من المؤكد أن غيابها سيساعد على تكوين أغلبية سياسية أو قوة شعبية حقيقية قادرة على خلق مركز ثقل في السياسة الوطنية. وكما أن من الممكن أن تكون الحركة الاسلامية إطارا سياسيا ممكنا للاستيعاب السياسي والمطلبي للنقمة

الشعبية، من الممكن أن تتحول أيضا، وهذا ما نحن بصدده، إلى صاعق مفجر للمجتمعات العربية. بل لم يكن من الصعب دفع الحركات الاسلامية في اتجاه العمل السلمي والسياسي. فهي ليست كما يعتقد البعض زوايا دينية مغلقة ومتكورة على نفسها. إنها تعبيرات اجتماعية وسياسية عن مصالح حقيقية. وكما أن من الممكن إذا سيطرت عليها الفئات الأكثر تجذرا في الهامشية والفقر والنقمة أن تتحول إلى سلاح للتدمير والفتك، من الممكن أيضا لو أعطيت إمكانية العمل الشرعي والعلني أن تبقى تحت سيطرة فئات الطبقة الوسطى، وأن تنجح في الوقت نفسه في مد الجسور الضرورية مع الجماعات والفئات والكتل المهمشة وفرض قيادتها على تلك الفئات المحرومة والمستعدة لكل الاحتمالات. وكان هذا سيكون أكبر خدمة يمكن أن تقدمها للديمقراطية. لكن مثل هذا الاختيار كان يستدعي المراهنة على الديمقراطية والتسوية بين المصالح وعلى التغيير وانهاء عصر الاحتكار والتسلط. وهو ما لم تقبل به أغلب النظم القائمة، وفضلت عليه طريق الرفض والنفي والانكار والعنف.

المهم، ليس من الممكن تطوير القوة الديمقراطية، أي اجتذاب جزء من القوى الناقمة والمناهضة للنظام إلى موقف ديمقراطي، من دون الاعتراف بشرعية التغيير وضرورته. فحتى تصبح الديمقراطية الاستراتيجية السائدة والمقبولة في الخروج من الأزمة لا بد أن يظهر الديمقراطيون أو الذين يرفعون شعار الديمقراطية أنهم مع التغيير، بالعمل وليس بالقول فقط، وأن التغيير الذي يسعون إليه يقصد إلى احترام مصالح الأغلبية الاجتماعية لا فرض قيم معينة يسارية أو يمينية عليها. باختصار، لا يمكن بناء الخيار الديمقراطي، نظريا وتنظيميا، إلا بالعمل على تغيير الأوضاع. فليست هذه الأوضاع هي المسؤولة عن خلق ظروف الأزمة فحسب ولكنها لا تستمر منذ الآن إلا بقدر ما تنجح في تعميقها وتوسيعها والابتزاز بالحرب الأهلية.

هذا هو جوهر الصراع القائم اليوم في مجتمعاتنا العربية، وليس الصراع بين العلمانية والدينية ولا بين الاشتراكية والرأسمالية، بل ولا بين الكمبرادورية والرأسمالية الوطنية. إنه صراع بين قوى اجتماعية تحاول المستحيل للحفاظ على مصالحها ومواقعها في إطار نظام قائم على التمييز والظلم وإلغاء أي فرصة للمعارضة السياسية الشرعية والعقلانية، وقوى اجتماعية أخرى معارضة، مهمشة ومستبعدة من النظام لدرجة أو أخرى لا هدف لها إلا فرض نفسها عليه وفرض الاعتراف بمصالحها. إنها لا تريد أن تفكر حتى في طبيعة النظام القادم الذي تحلم بوراثته أو إقامته، وكل ما يهمها هو النفاذ إلى السلطة والسيطرة على أدوات القسر والقمع التي تمكنها من الانتقام من خصومها قبل أن تتفجر هي نفسها وتظهر التناقضات

العميقة في المصالح والمطالب والقيم التي تختفي وراء شعار الدولة الاسلامية. فهي تضم إذن مصالح متضاربة يجمعها التصادم العميق مع مصالح الطبقة الحاكمة أو مع بقائها في الحكم. وليست نقطة الضعف في هذا التكتل الواسع غياب المصالح الشعبية عنه، فهو يجمع بشكل أساسي مصالح شعبية، لكن تنافر المصالح والمطالب التي تتجمع فيها، ونزوعها حتما في مرحلة لاحقة إلى التصارع والتنازع، أو إلى سيطرة فئة منها بعد فترة الصراع الدامي، ومن ثم إقامة ديكتاتورية جديدة لأقلية جديدة. لكن لا ينبغي أن يمنع هذا التحليل من الاعتراف في الوقت نفسه بقوة هذه المصالح ومشروعية قسم كبير منها، أي لا ينبغي النظر إلى الحركات الاسلامية كتعبيرات ايديولوجية وتجاهل حقيقتها الاجتماعية.

نحن إذن أمام أزمة اجتماعية حقيقية وعميقة وطويلة المدى، وإن السلطات الرسمية التي لا تملك أي رؤية لعمق الأزمة ولا لوسائل مواجهتها مع الاحتفاظ بنظام الامتيازات والسرقات والاختلاسات الذي ترفض التخلي عنه، تتبع سياسة لاوطنية بالمعنى العميق للكلمة، وتدفع المجتمعات نحو الانفجار والتمزق والحرب الداخلية. وفي هذه الحالة هناك معركة حقيقية يمكن للذين لم ترتبط مصالحهم ورؤيتهم بمصالح ورؤى الأطراف المتنازعة العمل لها وفي إطارها. وهي ليست معركة الاشتراكية ولا معركة العلمانية ولا معركة الدينية ولا معركة الليبرالية، ولكن معركة التحويل الديمقراطي للعلاقات الوطنية، وفي مقدمه معركة التغيير للنظام القائم.

ومن شروط التقدم في هذه المعركة توجيه القوى الاجتماعية و السياسية والفكرية نحو تحقيق أهداف ايجابية، أي حل مسائل التطور والتنمية في إطار تحديات الثورة الصناعية والعلمية والتقنية. ومن شروطها أيضا تجنب الحروب الداخلية وعدم السقوط في ابتزاز النظم التي تحاول أن تنقل معركة تغيير النظام إلى داخل المجتمع نفسه. وهذا يعني إحباط مساعي النظم الرامية إلى تجنيد الطبقات الوسطى والنخب الاجتماعية في حرب أهلية طويلة المدى ضد الفئات والأحياء الشعبية، مهما كانت طبيعة الرؤى والمنظورات والتناقضات التي تسيطر على هذه الفئات. وهذه هي وظيفة الدعوة إلى الحوار، سواء من أجل إحراج النظم الحاكمة، وتضييق هامش مناورتها في الدفع نحو الحرب الأهلية، أو من أجل إبقاء الجسور مفتوحة بين الحركات الاسلامية وحركات المعارضة الاخرى. وليس الهدف من إبقاء الجسور مفتوحة دفع الحركات الاسلامية إلى الالتزام بالموقف الوطني، وإحباط التيارات المتطرفة فيها فحسب، ولكن أكثر من ذلك تشجيعها على تبني مواقف ايجابية، وفتح الطريق نحو صوغ مشروع ديمقراطي اجتماعي حقيقي ومشترك للخروج من الأزمة. وهو ما تخشاه النظم القائمة وما عملت المستحيل لمنع حدوثه.

لقد بنت استراتيجيتها كلها على دفع الحركة الاسلامية نحو التطرف حتى تعطي لنفسها شرعية القضاء على المعارضة بأرخص السبل والتكاليف.

وليس من قبيل الصدفة أن ينال مشروع الحوار الديمقراطي عدم رضى أو خوف الطرفين الرئيسيين المتنازعين، الأول لمعرفة واضحة بخطورة تفكيك قنبلة الحرب الأهلية، والثاني، أعني الاسلامي، لاعتقاد خاطيء بأن الحوار والتعاون والتفاهم مع المكونات الوطنية الأخرى يفقده من وزنه وسلطته الطاغية، ويحدد من هامش مناورته في مواجهة السلطة، بل ربما يقدم للسلطة وسائل الايقاع به ومحاصرته.

التحويل الديمقراطي للعلاقات الدولية

لكن مشروع التحويل الديمقراطي الوطني لا مستقبل له اليوم ولا ركيزة من دون أن يكون جزءا من التحويل الديمقراطي العالمي. ويعني التحويل الديمقراطي للعلاقات إلغاء كل أشكال التمييز والسيطرة والمعاملة المزدوجة والنهب والحرب في العلاقات الدولية والعلاقات بين الشعوب. فأصل التدهور الحاصل في الحياة السياسية والاجتماعية في الأقطار الفقيرة هو انهيار مكانتها في الاقتصاد والسياسة العالمية، وتعرضها بشكل دائم لهيمنة الدول الكبرى التي تخضع أي تطور فيها لمنطق التطور وحاجاته في بلدان المركز الصناعية. وإذا كان من الصحيح أن الطبيعة الأمبريالية لهذه العلاقات الدولية مرتبطة بالرأسمالية ومنطق تراكمها الداخلي والخارجي، فليس من الصحيح بالمقابل أن تغيير هذه الطبيعة الأمبريالية لا يتم إلا بالقضاء على الرأسمالية. إن أطروحتي هنا كما في المستويات الوطنية لمعالجة الأزمة تقول، بالعكس تماما من ذلك، إن تدمير العلاقات الأمبريالية وتحويل هذه العلاقات، ليس أمرا ممكنا وحسب، وإنما هو الوسيلة الوحيدة لمواجهة الرأسمالية والشرط الأول لتحويلها وتغيير طبيعتها، تماما كما أن زوال الاستعمار قد مهد لطفرة في طبيعة العلاقات الدولية انعكست ايجابيا على الحياة الوطنية للبلدان المستعمرة والمستعمرة معا، وكانت في أصل نشوء أول أشكال الديمقراطية الاجتماعية.

فأي عمل جدي يطمح إلى مواجهة الأزمة العالمية في الشمال والجنوب معا لا بد أن يمتلك أداة من مستوى القدرة على التدخل العالمي واستراتيجية واضحة المعالم والأهداف. والسؤال هو : كيف يمكن توفير هذه الأداة وتفجير المبادرات التي تسمح بإعادة بناء العلاقات الدولية على أسس ديمقراطية، أي إزالة الاستقطاب والقطيعة بين الجماعات، وما هي القوى التي يمكن الاعتماد عليها في ذلك؟

ليست الأداة قوة أو طبقة أو نخبة جاهزة موجودة في المجتمع المحلي أو العالمي، ولكنها فكرة ينبغي تحقيقها وتجسيدها انطلاقا من القوى المتعددة والمتنوعة التي تتفاعل داخل النظام القائم، واعتمادا على المصالح القائمة والتحالفات الممكنة.

والقوى الرئيسية التي يمكن الاعتماد عليها في بناء الكتلة العالمية موجودة في البلدان الفقيرة. لكنها موجودة أيضا في البلدان الغنية. وهي موجودة على مستوى الدول كما هي موجودة على مستوى التيارات السياسية والتنظيمات الحزبية.

تكمن المشكلة في أن هذه القوى ماتزال مقسمة ومليئة بالتناقضات إن لم تكن منهكة ومفتقرة كليا للارادة والرؤية معا. ويتطلب إحياؤها وبث الروح فيها، سواء أتعلق الأمر بتلك التي كانت تشكل النواة القوية لحركة عدم الانحياز أو لمجموعة ال٧٧ التي كانت وراء إعادة فتح الحوار حول تقسيم العمل الدولي، عملا متصلا على المستويات السياسية والعقائدية. وفي مقدمة ذلك معالجة القطيعة التي تتجسد بأشد صورها في سوء الفهم السائد حول الاسلام والقيم الاسلامية لدى قوى التغيير اليسارية والديمقراطية في العالم الصناعي، أو حول الثقافة الديمقراطية في العالم النامي. ومن الضروري رؤية الحركات الاسلامية من هذا البعد العالمي للتغيير أيضا.

وأول مهام بناء أداة التغيير العالمي الدفع في اتجاه تكوين التكتلات الاقليمية التي تستلهم الثقافة أو اللغة المشتركة أو حتى الجوار الجغرافي والمصالح المتبادلة لتحقيق أهداف إنسانية وحضارية. وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم العربي هي المناطق الثلاث الرئيسية التي لا تزال بمنأى عن هذه الحركة العالمية التي تدفع نحو التجمع والتكتل الحضاري. ورغم كل ما حصل، لم تستنفد بعد إمكانيات هذا البناء، ولا تزال في بداياتها الأولى. ويشكل إرث الثقافة والمدنية العربية أو العربية الاسلامية منبعا قويا لإعادة تنظيم المنطقة وترتيب موقعها في الساحة الدولية على أسس جديدة. وبالمثل، يشكل الانتماء للاسلام أرضية ثانية، تتجاوز الدائرة العربية، لبناء شبكة تضامن عالمية بين دول المجموعة الاسلامية، على شرط أن تتحرر دول المؤتمر الاسلامي من الخضوع للسياسات الغربية والأمريكية بشكل خاص.

.وبالرغم من التنافس الاجتماعي في مجتمعات الشمال والجنوب، تدفع الأزمة العالمية باستمرار جزءا مهما من النخب الاجتماعية إلى إعادة النظر في النظام العالمي القائم، والعمل في سبيل الاصلاح. ويزداد هذا النزوع إلى الاصلاح والتغيير عند فئات النخبة المهمشة وطنيا أو عالميا.

وفي اعتقادي لا توجد هناك بذور ثورة أخرى على مستوى العالم غير التحويل الديمقراطي للعلاقات الدولية والوطنية معا، وهما وجهان متباينان لعملية وحركة واحدة. والتحويل الديمقراطي للعالم لايعني ما ترمي إليه الاستخدامات الايديولوجية المحلية والدولية التي نعرفها من تغطية على ما أطلق عليه دعاة الديمقراطية اسم النظام العالمي الجديد، والذي لايقوم إلا على علاقات الحرب والنهب والتسلط وطمس انتهاكات حقوق الانسان ونشر الفوضى والخراب في كل مكان من أجل

السطو على الموارد العالمية واحتلال المواقع الاستراتيجية، ولكنه يعني العكس تماما، أي بناء نظام دولي، وبالتالي وطني أيضا، قائم على أسس العلاقات المتكافئة والتضامن والمساواة والندية والتفاهم والتعاون وتقاسم المنافع والسلام، أي كل ما يعمل النظام القائم على تلغيمه وتدميره من الجذور. وهذا هو الفرق بين استخدام الديمقراطية كشعار لكسب الشرعية في المعركة الاستعمارية الجديدة، وبين التحويل الديمقراطي كدليل ومعيار لبناء علاقات جديدة تلغي ما تبقى من قيم ومخلفات وعلاقات الاستعمار القديم والجديد، وتعلن المساواة الحقيقية بين الأمم والشعوب.

والنتيجة أن التغيير ليس مشروعا مؤجلا حتى زوال الرأسمالية أو توقف حركة توسعها، ولكنه مشروع ممكن، بل هو قائم ومستمر تحت نظرنا في نضالات الشعوب والطبقات الفقيرة والنخب المهمشة عبر العالم كله. المهم أن نعرف كيف نشارك فيه، وما هي السبل التي تسمح لنا بتسريع وتيرته وتعميقه. فلابد من أجل ذلك من القدرة على تجاوز الحاضر نحو المستقبل، ورؤية الحاضر بعيون المستقبل، أو رؤية عناصر وملامح المستقبل فيه والتركيز عليها وتنميتها. ولا يعني هذا رفض الماضي ولا رميه في البحر. فلا تناقض بين التفكير بالمستقبل وبين الاستناد إلى الماضي وإلى التراث. بل إنهما وجهان لجهد واحد إذا كان المقصود بهذا الجهد الاندفاع والتحفز والمغامرة العالمية والانطلاق. وغير ذلك هو اجترار للأحزان القديمة أو الحديثة.

ولا بد من أجل تحقيق هذا التغيير الديمقراطي من رفض مطابقة نموذج التحويل الديمقراطي هذا بما يتضمنه من تحديث مع الرأسمالية أو مع المدنية الغربية. إن الحرية والمواطنية والقانونية من سمات الحضارة الانسانية، وإن اختلفت الصيغ التي تجسدت فيها عبر التاريخ. وهذه الصيغ جزء من المكتسبات الانسانية أيضا.

ولا بد كذلك من عدم الخلط بين الطوباوية وبين ما ينبغي أن يكون منذ الآن موضوع معركة فعلية. إن دمقرطة الحياة الاجتماعية الوطنية والعالمية ليست حلما ولا أملا بعيدا مستحيل التحقيق، ولكن حركة يومية تقوم على إعادة بناء هياكلنا السياسية والاجتماعية ومن ورائها إعادة بناء الوطنية العربية كملهم لقيم التكافل الاجتماعي. إنها كامنة في العمل على إدماج الجمهور الشعبي في العملية الاقتصادية والسياسية والثقافية وتجنب بناء نظام قائم على تهميش الأغلبية وازدهار الأقلية كما هو عليه الحال الآن. وبهذا المعنى ليست الديمقراطية بديلا للعدالة الاجتماعية أو للاشتراكية. إن النظام الديمقراطي هو ذلك الذي يتيح للرأي العام وللقيم السائدة أن تعبر عن نفسها من دون القضاء على قاعدة اللعب الأساسية. ففي ظل الديمقراطية يمكن قيام نظام اشتراكي أو ليبرالي أو قومي أو إسلامي، حسب تغير وتبدل الرأي

العام وسيطرة القيم الأساسية النابعة من هذا التوجه أو ذاك، في هذه المرحلة أو تلك.

ويستدعي كل ذلك عدم الخلط بين الرأسمالية الوطنية القديمة كتجسيد لمنطق علاقات السوق في مواجهة منطق الاشتراكية التخطيطي، وبين الرأسمالية العالمية الراهنة التي هي ثمرة استراتيجيات كبرى لا تخضع للمنطق الاقتصادي بقدر ما تقوم هي بتكوينه وخدمته. فليس هناك اليوم سوق رأسمالية يشكل البعض ضحاياها الحتميين والبعض الآخر المستفيدين الأساسيين. إن السوق مندمجة كليا بالقوى السياسية والاجتماعية، ولا أمل لأحد في المشاركة الفعلية والمنتجة في دورة الاقتصاد العالمي، وبالتالي قطف ثمار هذه المشاركة، إلا إذا نجح في حل المعضلة الاستراتيجية الكبرى، أي إذا تمكن من بلورة استراتيجية من مستوى عالمي. ولا يمكن الوصول إلى هذا بالنسبة للبلدان الصغيرة إلا عن طريق التكتل الاقليمي النشيط والفعال.

والقصد من ذلك أنه ليس من الصحيح كما تحاول الفئات الحاكمة إقناعنا، أنه لا حل لنا إلا في قبول سياسة التبعية والاندماج من مستوى تقديم الخدمات الدنيا في الاقتصاد العالمي. إن من الممكن تغيير الأوضاع الوطنية الداخلية كما أنه من الممكن تغيير السياسة الدولية وتحسين موقع الشعوب الفقيرة في الثورة والثروة العالمية، على شرط أن نرفض فكرة الانغلاق على المذهبيات العصبوية ونعمل على توسيع قاعدة التحالفات الاجتماعية ونقبل بتجاوز محابسنا الوطنية ونخطط على مستوى التجمعات والتكتلات الاقليمية.

وإذا كانت الديمقراطية هي قاعدة تجميع أكبر قوى ممكنة قادرة على التغيير الايجابي للنظم القائمة، فإنها تشكل اليوم أيضا مصدرا لقيم التضامن الانساني وحق المشاركة في الحياة الدولية. وهي الإطار الوحيد الذي يسمح بقيام التكتلات الاقليمية التي يتوقف عليها تعديل ميزان القوى الدولي وتغيير شروط التبادل وتوزيع فرص التقدم بين المجموعات البشرية. إن إخراج الديمقراطية من إطارها الوطني التقليدي وطرحها على مستوى العلاقات الدولية يشكل ولادة جديدة لها، بقدر ما يفتح إمكانية بناء عالمية أو مجموعة دولية وأممية جديدة تستلهم مبادىء السلام وتبادل المنافع والاحترام المتبادل وترفض الأنانية والحرب والمعايير المزدوجة. ولا ينبغي أن يمنعنا استخدام الدول الكبرى لخطاب الديمقراطية وحقوق الانسان والتدخل الانساني لأغراض سياسية واستراتيجية خاصة، من إدراك ما ينطوي عليه هذا الخطاب من القيم العظيمة التي تستطيع وحدها أن تفتح باب التضامن والتواصل والتعاون بين قوى اجتماعية تنتمي لتشكيلات وثقافات مختلفة ومتباينة، وأن تلحق تغييرا جذريا بالسياسات الوطنية والدولية السائدة.

إن جميع عناصر التغيير موجودة كما نرى في الداخل والخارج، ولكنها مبعثرة

أو متروكة للقوى المسيطرة تستخدمها بما يمكنها من زيادة قدرتها على التدخل والتحكم بمصير الأمم والجماعات، وذلك لصالح الابقاء على نظام عالمي جوهره الحقيقي وضع أغلبية الانسانية في خدمة أقلية صغيرة، عالميا ووطنيا. وهذا هو الوضع الذي يبعث على الثورة في كل مكان. وليس علينا نحن العاملين في الساحة الفكرية والسياسية الوطنية والعالمية أن نخلق هذه الثورة وشروطها. إن المطلوب منا هو أن نقدم لهذه الثورة الانسانية القائمة والمتعددة الأشكال والوجوه والمطالب رؤية منطقية ومتسقة تساعدها على إدراك أهدافها الحقيقية بصورة أفضل وتسمح لها بتوحيد عناصرها وتجميع قواها.

برهان غليون

* مدير «مركز دراسات الشرق المعاصر Centre d'Etudes sur l'Orient Contemporain »
وأستاذ علم الاجتماع السياسي في جامعة السوربون في باريس.



«قبل الشتات»

"BEFORE THEIR DIASPORA"

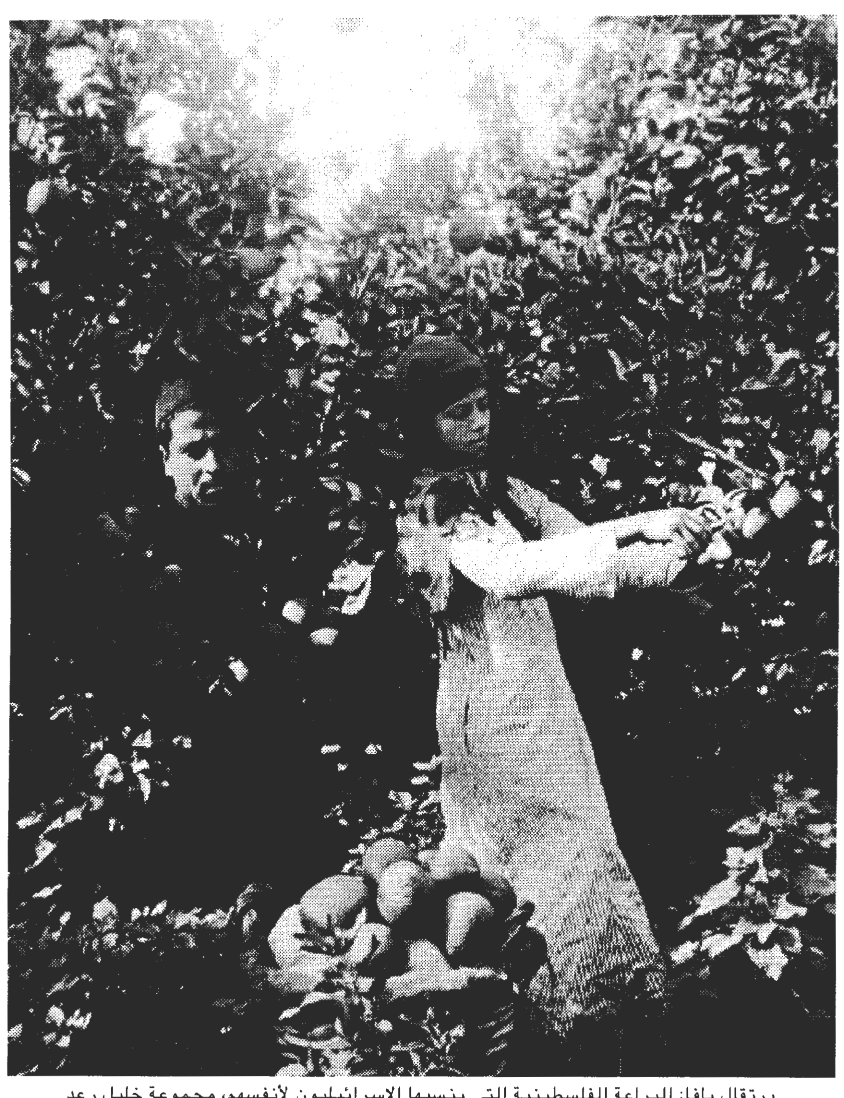
This war did not spring up here in our land;
this war was brought upon us by the children
of the Great Father who came to take our land
from us without price, and who, in our land,
do a great many evil trouble...
It has been our wish to live here
in our country peaceably, and do such things
as may be for the welfare
and good of our people, but
the Great Father has filled it with soldiers
who think only of our death.

(Sinte Galeshka)

لم تشتعل هذه الحرب هنا في بلادنا ، بل فرضها
أبناء «الأب الكبير» الذين جاءوا لاغتصابها منا
وارتكبوا فيها أبشع الجرائم. كنا نرجو
أن نعيش في بلادنا بسلام ونعمل ما قد يأتي
بالرفاه والخير على شعبنا ، لكن «الأب الكبير» ملأ
بلادنا بجنود لا يفكرون إلا في موتنا

سنته غاليشكا

زعيم هندي أميركي



برتقال يافا: البراعة الفلسطينية التي ينسبها الإسرائيليون لأنفسهم، مجموعة خليل رعد
Jaffa Oranges: The Palestinian skillship that has been claimed by the Israelis
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



برتقال يافا، قبل ١٩٤٨
Groves of Jaffa Orange, before 1948
Before Their Diaspora, Walid Khalidi
"He hangs in shades the orange bright
like golden lamps ina green night"
(Andrew Marvell)



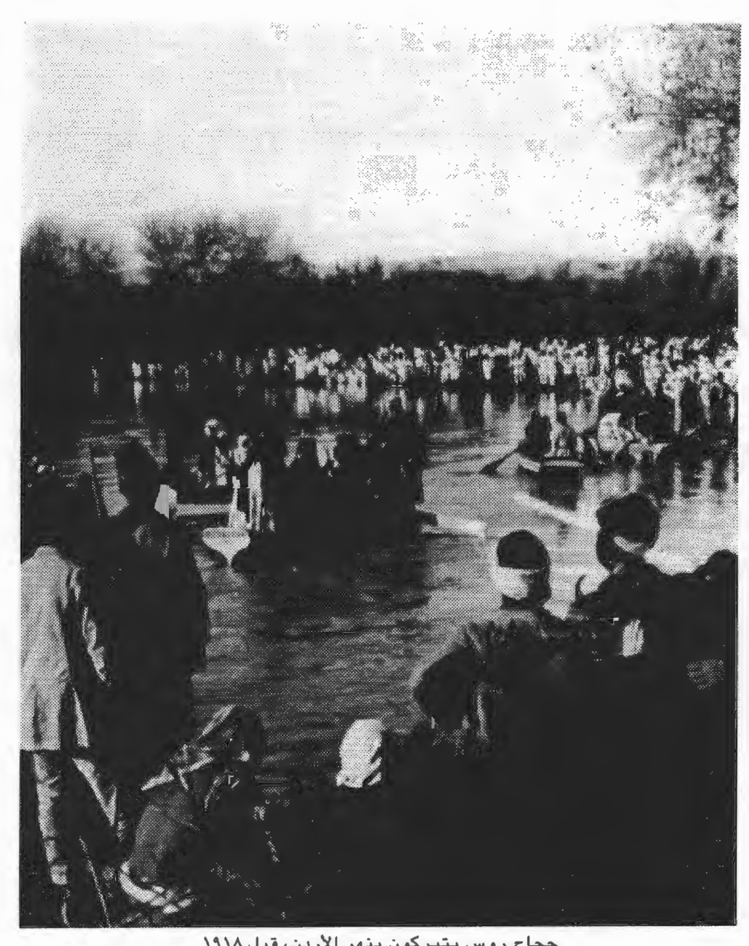
زراعة الزيتون: ملك الفلسطينيون ٩٩ بالمائة من زراعة الزيتون في فلسطين قبل ١٩٤٨
99% of olives growing in Palestine is due to the Palestinians, until the occupation
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



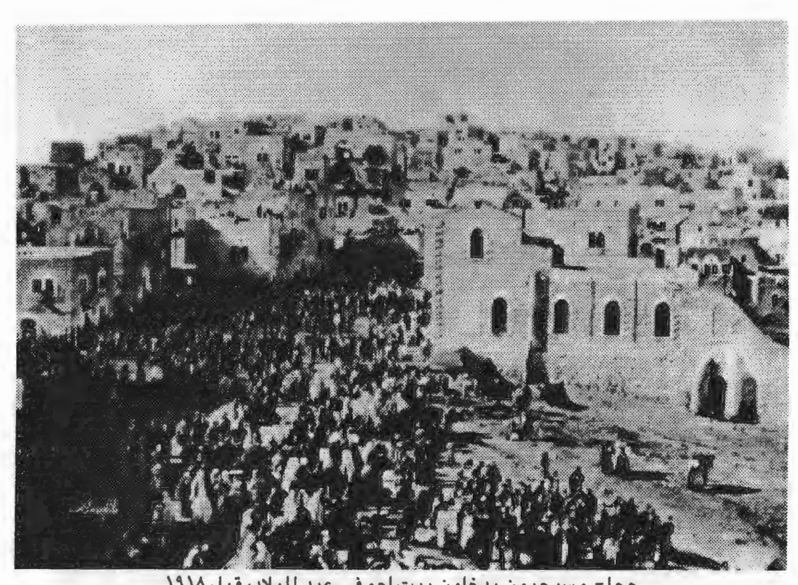
Grape growing also وزراعة العنب في فلسطين قبل الإحتلال
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi
"In his days every man shall eat in safety
Under his own vine what he plants; and sing
The merry songs of peace to all his neighbours"
Shakespeare, *Julius Caesar*



Vegetable growing زراعة الخضروات
More than 85% of vegetable growing in Palestine is due to the Palestinians, until the occupation
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



حجاج روس يتبركون بنهر الأردن، قبل ١٩١٨
Russian piligrims are blessed in the Jordan River, before 1918
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



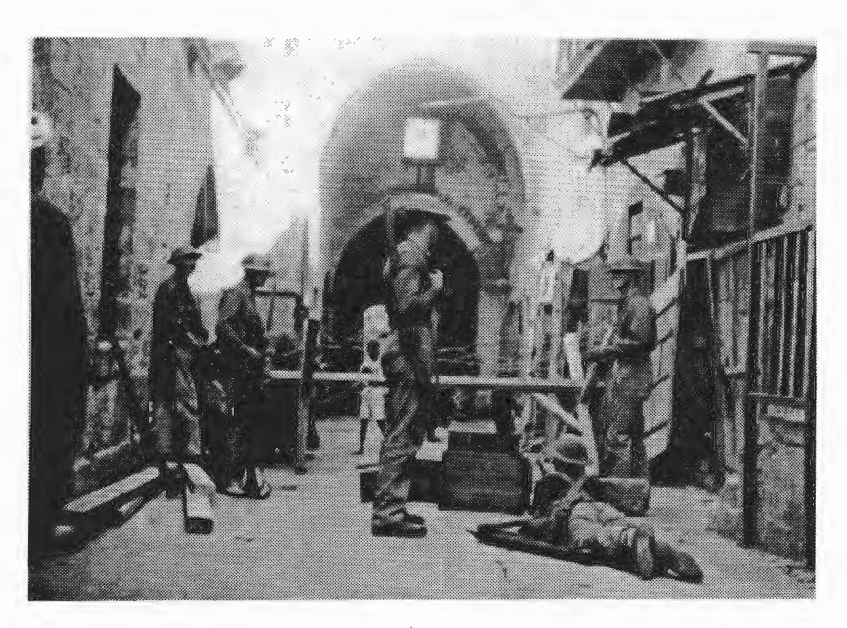
حجاج مسيحيون يدخلون بيت لحم في عيد الميلاد، قبل ١٩١٨
Christian pilgrims come into Bethlehem at Christmas, before 1918
The Collection of Palestinian Studies, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



أبناء الطائفة الأرثوذكسية يحتفلون بعيد الفصح، قبل ١٩١٨
The children of the Orthodox community celebrate Easter in Jerusalem, before 1918
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



نساء يهوديات يصلين أمام حائط المبكى، قبل ١٩١٨
Hebrew women pray at the Wailing Wall, before 1918
The Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi



بيضة الأفعى: البريطانيون في القدس عام ١٩٣٨، بعد أن سحقوا الثورة، مكتبة الكونغرس
The serpent's egg:
The British are again in Jerusalem, after crushing down the Revolution,1938
Library of Congress, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi

عبدالوهاب المسيري*

اليهودية

بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرر

ثمة توتر أساسي كامن في كل الديانات التوحيدية (التي نجحت في تجاوز الرؤية الحلولية الواحدية الكونية) بين النزعة التوحيدية الإنسانية العالمية والنزعة الحلولية الكمونية التخصيصية المحلية القومية؛ بين الإيمان بإله العالمين الواحد العادل، وبين الإيمان بالإله القومي الذي لا يعرف إلا شعبه، بين المقدرة على تجاوز الذات وصولاً إلى إنسانية مشتركة والرغبة في الإذعان إلى إغواء عبادة الذات وتوثنها. والحلولية الكمونية هي القول بأن العالم بأسره (الإنسان والطبيعة) يَردّ إلى جوهر واحد أو مبدأ واحد كامن في المادة، هو مصدر بقائها وحركتها، ومن هنا تسميتها بالواحدية الكونية (بالإنجليزية: كوزمك مونزم Cosmic monism)، هذا المبدأ أو الجوهر يسميه دعاة وحدة الوجود الروحية «الإله» فيحل الإله في الإنسان ثم في بعض ظواهر الطبيعة، ثم يحل فيها جميعها بلا استثناء حتى يصبح حالاً في كل شيء (الإنسان والطبيعة) ويصبح الإله والعالم وكل الوجود وحدة واحدة لا وجود مستقل للواحد عن الآخر، أي أن الإله يصبح متوحداً مترادفاً مع الكون ومع سائر مخلوقاته (الإنسان والطبيعة). وحينما يفقد الإله اسمه ويطلق على المبدأ الواحد عبارات مثل «قانون الحركة» أو «قوانين المادة» فإننا ننتقل من وحدة الوجود الروحية إلى وحدة الوجود المادية.

أولاً: الحلولية الكمونية اليهودية

والعقيدة اليهودية، في إحدى طبقاتها، توحيدية تؤمن بإله واحد يتجاوز الكون والمادة، منزه عن مخلوقاته يقف وراء الطبيعة والتاريخ، يحركهما ويوجههما، ولا يَرد إليهما. ولكن اليهودية تركيب جيولوجي تراكمت داخله عدة طبقات

متناقضة. وفي بعض هذه الطبقات، نجد أن اليهودية تأثرت بالوثنيات المختلفة التي تفاعلت معها، ودخلت عليها عناصر وثنية حلولية عديدة وجدت طريقها إلى العهد القديم عند تسجيله مثل : فكرة الشعب المختار المرتبط بأرض مقدسة والمتمركز حول ذاته، وفكرة الميثاق بين الإله وشعب بعينه، وتزايد الشعائر، خصوصاً شعائر الطهارة، وتداخل العناصر الكونية مع العناصر الدينية في الأعياد اليهودية، وتراجع فكرة البعث، واهتزاز الأفكار الأخروية، وفكرة الماشَح (المسيح المخلِّص اليهودي) الذي سيقود شعبه إل أرض الميعاد ليؤسس مملكته ويسود الشعب المقدّس على كل شعوب الأرض. وعلى هذا، فإن العهد القديم يعد وثيقة صراع بين اتجاهين؛ اتجاه توحيدي عالمي أخلاقي متسام يؤمن بإله يسمو على العالمين، ولا يفضل قوماً على قوم إلا بالتقوى، وهو الاتجاه الّذي حمل لواءه الأنبياء ، أما الاتجاه الآخر فهو اتجاه وثني حلولي قومي تخصيصي يرى إله اليهود على أنه إله يحل فيهم مقصوراً عليهم يحابيهم ويعطف عليهم، ويعصف بأعدائهم ويرى اليهود أنفسهم باعتبارهم شعباً مقدّساً يشغل مركز الكون. وظل الاتجاه التوحيدي قائماً له فعالية مادامت اليهودية في محيط وثني مشترك، إذ كان التوحيد (أو على الأقل مفرداته) هو الوسيلة للحفاظ على الهوية الدينية اليهودية في مقابل الحلولية الوثنية.

ولكن، مع تحول المجتمعات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية إلى ديانات توحيدية (الإسلام في الشرق، والمسيحية في الغرب)، لم يعد الاتجاه التوحيدي اتجاهاً مميَّزاً لليهودية، ولذا، بحث الحاخامات (واضعو الشريعة الشفوية) عن إستراتيجيات مختلفة للحفاظ على الهوية، حتى تغلبت النزعة الأسطورية الشعبية وأخذت شكلها الحلولي الكموني الواحدي، حيث تم التركيز على بعض مفاهيم العهد القديم ذات الطابع الحلولي، وتعميقها. وقد قوي هذا الاتجاه في كتب الرؤى (الأپوكاليبس)، وفي التعليقات المدراشية، وبلوره معلمو المشناه (تنائيم)، وأخذ شكلاً متكاملاً في التلمود حيث توجد آثار للنزعة التوحيدية، ولكن النزعة الغالبة هي النزعة الحلولية الكمونية. ومع هذا يمكننا أن نقول أن اليهودية التلمودية أو الحاخامية تتأرجح بين شكل من أشكال التوحيد وشكل من أشكال وحدة الوجود، ولا تقترب إلا نادراً من مرحلة وحدة الوجود الكاملة التي وصلتها الحلولية اليهودية في القبّالاه (وهي المرحلة التي عادت فيها كثير من الأفكار الغنوصية القديمة إلى الظهور). ورغم سقوط اليهودية الحاخامية في الحلولية الكمونية إلا أنها بذلت محاولة هامة لمحاصرة النزعة المشيحانية الحلولية بأن جعلت العودة للأرض المقدّسة منوطة بالأمر الإلهي، فكأنها استعادت شيئاً من الثنائية التكاملية التوحيدية بدلاً من الواحدية الحلولية وثنائياتها الصلبة.

وقد لعبت القبّالاه دوراً حاسمًا في تحويل اليهودية من نسق توحيدي إلى نسق حلولي. وتراث القبّالاه تراث حلولي كموني واحدي متطرف يساوي بين الإله والطبيعة، بحيث يصبح الإله هو الطبيعة، ويتم إلغاء التاريخ ويتركز الحلول الإلهي في الشعب اليهودي، إذ يحل المطلق أو المركز في الشعب. كما أن التصوف اليهودي أصبح تصوفاً حلوليًا غنوصيًا الهدف منه ليس فناء الذات والتقرب من الإله والتفاعل معه وإنما الالتصاق بالخالق والتوحد به بحيث يصبح المؤمن هو تجسد الإله، إرادته هي إرادة خالقه. وقد أدّت هيمنة القبّالاه وتصاعد معدلاتها في اليهودية إلى تراجع اليهودية الحاخامية ومؤسساتها، وتراجع الفكر التوحيدي تماماً، مما سبب أزمة اليهودية الحاخامية، إلى حد أن سقطت اليهودية، في نهاية الأمر، في قبضة الفكر الحلولي، فاختفى أي أثر للتجاوز ولم يعد من الممكن التمييز بين اليهود واليهودية (من منظور اليهودية ذاتها) إذ أصبح اليهود تجسيداً للمطلق، وأصبحت العلاقة بين الشعب والخالق (إن ظل قائماً بالاسم) علاقة حوارية، وقد تصاعدت الحمى المشيحانية بين اليهود التي عادةً ما تأخذ شكل تأكيد قداسة الشعب وحقه المطلق للعودة لأرضه المقدّسة، أي أن النزعة المشيحانية في اليهودية ذات توجه صهيوني واضح.

تأخذ الحلولية الواحدية شكلين أساسيين : الحلولية الثنائية الصلبة (شعب مقدّس واحد في مقابل بقية الشعوب) والشاملة السائلة حيث يصبح العالم بأسره موضع القداسة * . وفي إطار الحلولية الثنائية الصلبة اليهودية يحل إله الشعب اليهودي في شعبه ويتم استبعاد بقية العالم (الأغيار). ويمكن أن يحل الإله في أرض هذا الشعب (صهيون) ويستبعد بقية العالم.

وتتبدى الحلولية الثنائية الصلبة في العقيدة اليهودية من خلال الثالوث الحلولي المقدّس :

1 - الإله

يختفي الإله الواحد العلي المنزّه ويظهر بدلاً منه إله يسرائيل الذي يتحد بجماعة يسرائيل وتمتد القداسة الإلهية لتسري في أرض يسرائيل وتاريخ يسرائيل وكل مؤسساتها القومية. (يَستخدم كلمة «يسرائيل» للإشارة إلى المفهوم الديني، أما كلمة «إسرائيل» فهي تشير إلى الدولة الاستيطانية التي أسست على أرض فلسطين).

2 - الشعب المقدس

يصبح الشعب اليهودي، أو جماعة يسرائيل شعباً مختاراً وأمة من الكهنة والمشحاء المخلصين، بل هو شعب مقدّس يدخل الإله معه في علاقة حب حميمة

تتسم بالغيرة أحياناً. ويشار إلى الشعب بأنه ابن الإله. وتتعمق هذه المفاهيم في التراث القبّالي، فالشعب يصبح الشخيناه، أي جزءاً من الإله وتعبيراً أنثوياً عنه، نفيه هو نفي الإله ذاته، فالإله والشعب يتكونان من جوهر واحد. وتميل المعادلة الحلولية إلى صالح الشعب بحيث يصبح عنصراً أساسياً في عملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون) أو الخلاص وشريكاً فيها، ومن ثم، فهو الأداة التي يستعيد بها الإله وحدته، أي إن الإله يصبح معتمداً على اليهود في إصلاح الكون، وفي إكمال ذاته. واليهود، بأدائهم الأوامر والنواهي (متسفوت)، إنما يساعدون الإله على استخلاص الشرارات الإلهية المبعثرة (نيتسوتسوت) بعد حادث تهشم الأوعية (حفرات هكليم).

3- الزمان والمكان المقدسان

أ) الأرض المقدّسة (المكان أو الوطن المقدّس) : تمتد القداسة لتشمل، بطبيعة الحال، الأرض التي يعيش عليها هذا الشعب المقدّس، ويشار إليها باسم «صهيون»، و «إرتس يسرائيل». وإذا كان الشعب المقدّس مختاراً، فالأرض المقدّسة هي أرض الميعاد التي سيتحقق فيها الوعد الإلهي لهذا الشعب المختار حين يأتي الماشيَح ويقود شعبه إليها.

ب) الزمان المقدّس (التاريخ المقدّس) : وإذا كان الشعب مقدّساً ومكانه مقدّساً فزمانه لايقل قداسةً. وهذا التاريخ يصبح ذا معنى وشكل محددين من خلال حلول الإله، فتاريخ جماعة يسرائيل يبدأ بالخروج من مصر بمساعدة الإله ثم دخولها إلى كنعان. وهذه الحركة لا تتم إلا من خلال التدخل الإلهي المباشر والمستمر، تماماً كما ستنتهي بالعودة من المنفى إلى صهيون (فلسطين) تحت قيادة الماشيَح الذي سيرسل به الإله في آخر الأيام. وعلاقة الشعب بالأرض علاقة عضوية لأن الإله يحل في كليهما، وما تاريخ الشعب إلا تعبير عن هذه العلاقة العضوية الحلولية.

وفي إطار الحلولية الثنائية الصلبة أصبحت اليهودية ديانة مغلقة تستبعد الآخرين من نطاق القداسة وشرائع الخلاص، ولا تشغل نفسها بهم. ومن ثم، فهي ليست ديانة تبشيرية ولا تشجع أحداً على التهود إلا في لحظات نادرة من تاريخها (في القرن الأول قبل الميلاد وبعده). وأصبحت رؤية الكون استبعادية حادة ضد الأغيار، وظهر التمركز الحلولي القومي حول الذات.

كما أدّت الحلولية الثنائية الصلبة إلى تزايد الشعائر التي تهدف إلى عزل الشعب المقدّس عن الآخرين وعن محيطه، مثل : الاحتفال بالسبت، والختان، وقوانين الطعام، وتحريم الزواج المختلط وشعائر الطهارة. وأصبحت المعايير ازدواجية بحيث أصبح الأغيار في بعض الصياغات مدنّسين تماماً، بل إن اتجاه الإله إلى خلق

هؤلاء الأغيار على هيئة إنسانية يعود (حسب الرؤية القبَّالية) إلى رغبته في تيسير عملية قيامهم على خدمة اليهود. والأغيار يقعون، بطبيعة الحال، خارج دائرة القداسة، ولذا يكون من المباح سرقتهم وقتلهم.

ويأخذ النسق الحلولي الثنائي الصلب، من الناحية البنيوية، شكلاً مخروطيًا؛ دوائر متداخلة متراكمة كل منها أصغر مما يليها وتعلوها، وتستدق حتى تصل إلى قمته التي هي مركز هذه الدوائر.

قاعدة المخروط، من الناحية الجغرافية (المكان) هي العالم، أما قاعدته التاريخية (الزمان) فهي الأغيار.

وفي مركز العالم، وعلى ارتفاع منه، تقف إرتس يسرائيل، الأرض التي اختارها الإله وحباها بنعمه الخاصة.

وفي مركز التاريخ، وعلى ارتفاع منه، يقف الشعب اليهودي (جماعة يسرائيل) الذي اختاره الإله ليكون أمة من الكهنة والقديسين والأنبياء.

وفي وسط إرتس يسرائيل، وعلى ارتفاع منها، تقف أورشليم (القدس).

وفي وسط الشعب، وعلى ارتفاع منه، يقف الأنبياء والملوك والكهنة.

وفي وسط أورشليم، يوجد الهيكل، في داخله قدس الأقداس، وهو سرة الدنيا (حسب كلمات المشناه)، يوجد فيه تابوت العهد الذي توجد فيه الوصايا العشر وتحل فيه روح الإله. وأمام التابوت يوجد حجر الأساس حيث خلقت الدنيا.

وفي وسط الأنبياء، يقف الماشيَّح، نبي الأنبياء وملك الملوك، والذي يجسد روح الإله. وكان الكاهن الأعظم يدخل قدس الأقداس مرة كل عام (في يوم الغفران) لينطق باسم الإله الأعظم فيكتمل من خلاله الحلول الإلهي في الشعب.

وهكذا، فإن قمة المخروط هي النقطة التي يتحد فيها عاملا الجغرافيا والتاريخ، ويذوب فيها الزمان في المكان والطبيعة في الإنسان/ الإله، أي هي نقطة تحقق وحدة الوجود الكامل. ونلاحظ أنه، حسب هذا البنيان، يمكننا أن نرى المكانة التي تشغلها جماعة يسرائيل وإرتس يسرائيل، فهما مركز الكون وعنصران أساسيان لأي خلاص للعالم.

وقد أخذت الحلولية الكمونية اليهودية عبر تاريخها الطويل الشكل الثنائي الصلب. ويستمر هذا الوضع قائماً حتى نهاية القرن الثامن عشر (وحركة التنوير اليهودي). وبعد ذلك التاريخ بدأت تظهر الحلولية الشاملة السائلة. وقد تلازم ظهور هذا الشكل من أشكال الحلولية وشيوعه في اليهودية مع تزايد اندماج اليهود في المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية العلمانية وتحولهم من جماعات وظيفية إلى أعضاء في طبقات المجتمع المختلفة، وتحول المفكرون اليهود من مفكرين يهود إلى

مفكرين علمانيين عالميين يدينون بالولاء إما للدولة القومية المطلقة ويتوحدون معها بشكل عضوي أو يؤمنون بأيديولوجية عالمية يرون أنها الطاقة الدافعة للمادة المسيرة للكون الكامنة في كل البشر والطبيعة، وليست في شعب مختار بعينه أو في أرض بعينها.

ويمكن القول إن تاريخ اليهودية منذ نهاية القرن الثامن عشر هو تاريخ التأرجح بين الحلولية الثنائية الصلبة والشاملة السائلة مع الاتساع التدريجي لنطاق الحلولية السائلة. ويبدأ فكر حركة التنوير اليهودية بمحاولة التوفيق بين اليهودية وروح العصر. وروح العصر هنا هي مطلق كامن في الزمن لا يميّز اليهود عن الأغيار وإنما يجمع بينهم. وقد انتشر الفكر الربوبي بين اليهود، وهو فكر حلولي شامل سائل، فالإله يحل في الطبيعة ويمكن للعقل البشري أن يحيط به دون حاجة إلى كتب سماوية أو أي خصوصية دينية، فكتاب الطبيعة مفتوح أمام الجميع. وقد ورثت حركة التنوير اليهودية هذه الفكرة، وتأثرت بها اليهودية الإصلاحية التي بدأت ترى الإله كمبدأ واحد يسري في المخلوقات ولكنها احتفظت باسم الإله.

ويتسع نطاق الحلولية الكمونية الشاملة السائلة ليصل إلى اليهودية الإنسانية الإلحادية التي ترى أن الإيمان الحق باليهودية يعني الإيمان الحق بالإنسانية ومن ثم فإن جوهر اليهودية الحق يتحقق من خلال اختفائها، بل واختفاء الإله بالتحامه الكامل بالمادة. ومع اختفاء الإله ندخل في يهودية عصر ما بعد الحداثة ويظهر عالم لا مركز له إذ إنه كل ما فيه متساو نظراً لتحقق الحلولية الشاملة السائلة التي تذيب حدود كل الأشياء فتختفي.

عند هذه اللحظة يمكن أن يحدث أي شيء وكل شيء فتظهر اليهودية المتمركزة حول الأنثى. وينضم اليهود بأعداد متزايدة إلى الماسونية والبهائية والعبادات الجديدة وهي كلها عقائد حلولية كمونية شاملة سائلة ذات طابع واحدي تنكر التجاوز. ولعل هذه الحلولية الشاملة السائلة هي الإطار الذي تدور فيه الراديكالية المعرفية التي يتسم بها كثير من المفكرين من ذوي الأصول اليهودية إذ نجدهم يتجهون نحو رفض المجتمع بقضه وقضيضه والتاريخ الإنساني بأسره نتيجة لرفضهم كل الحدود. ومن هنا، يوجد المثقفون اليهود بشكل ملحوظ في حركات الحداثة وما بعد الحداثة بكل ما تتسم به من عدمية ناجمة عن الراديكالية المعرفية والأخلاقية التي تنكر أي يقين معرفي أو مطلقية أخلاقية وأي مرجعية متجاوزة، إنسانية كانت أم إلهية.

وتشكل اليهودية المحافظة عودة إلى الحلولية الثنائية الصلبة إذ إن مركز الحلول يصبح هو الشعب اليهودي ومؤسساته القومية، وتحتفظ اليهودية المحافظة

باسم الإله، ولكنه إله غير متجاوز، كتعبير عن الذات اليهودية، ولذا فهي تظل في إطار وحدة الوجود الروحية وشحوب الإله. والصهيونية هي الأخرى عودة للثنائية الصلبة، فبعد موت الإله يبقى الشعب المقدّس المتمركز في أرضه المقدّسة (المستوطنون الصهاينة في فلسطين) حيث تنتظمهم الدولة الصهيونية صاحبة الإرادة النيتشوية التي تصدر عن حقوق مطلقة منحها اليهود لأنفسهم وتساندها القوة العسكرية - وتقف هذه الدولة أمام الأغيار (الذين يقعون خارج نطاق القداسة) تمارس حقوقها بالقوة وتهدر حقوق الآخرين. والصهيونية تأخذ شكلين : ثنائية صلبة روحية (الإله يحل في الشعب)، وثنائية صلبة مادية (القوة الدافعة للمادة، الكامنة في الشعب) واللذين يترجمان أنفسهما إلى صهيونية دينية أو علمانية. وأخيراً ترجمت الثنائية الصلبة نفسها إلى لاهوت موت الإله.

ثانيا : لاهوت موت الإله

كلمة «لاهوت» تشير إلى التأمل المنهجي في العقائد الدينية. وعلى هذا، فإن الحديث عن «لاهوت موت الإله» ينطوي على تناقض أساسي. ومع هذا، فإن العبارة شاعت في الحضارة الغربية، خصوصاً في عقد الستينيات. وعبارة «موت الإله» في حد ذاتها مأخوذة من فيلسوف العدمية والعلمانية الأكبر فردريك نيتشه. ويحاول لاهوت موت الإله تأسيس عقيدة تصدر عن افتراض أن الإله لا وجود له وأن موته هو إدراك غيابه.

والحديث عن موت الإله أمر غير مفهوم في إطار إسلامي، فالله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وفي المسيحية، وعلى الرغم من حادثة الصلب، فإن الإله موجود من الأزل إلى الأبد، ونفس الشيء يقال عن الطبقة التوحيدية داخل التركيب الجيولوجي اليهودي. ولكن، في إطار حلولي، يصبح الحديث عن موت الإله أمراً منطقيًا، فالحلول الإلهي يأخذ درجات منتهاها وحدة الوجود حيث يتجسد (يحل) الإله تماماً في الطبيعة وفي أحداث التاريخ ويتوحد مع الإنسان ومخلوقاته ويصبح كامناً فيها، ولكن لحظة وحدة الوجود هي ذاتها اللحظة التي يصبح الإله فيها غير متجاوز للمادة ويتوحد الجوهر الرباني بالجوهر المادي ويصبح هناك جوهر واحد، ومن ثم يفقد الإله سمته الأساسية (تجاوزه للطبيعة والتاريخ) ويشحب ثم يموت، ويصبح لا وجود له خارج الجوهر المادي. ولاهوت موت الإله هو فكر ديني مسيحي ويهودي ظهر في عقد الستينيات في العالم الغربي، وما يهمنا هنا في هذه الدراسة هو التيار اليهودي داخله.

ويمكن القول أن لاهوت موت الإله هو حلولية كمونية وثنية بدون إله، أو

حلولية كمونية يموت فيها الإله تماماً وتظهر مطلقات دنيوية أخرى كامنة في المادة والتاريخ تحل محله وتهب التاريخ معناه أو تفسر فوضاه. وينطلق لاهوت موت الإله عند اليهود من فكرة قداسة التاريخ اليهودي النابعة من قداسة الشعب اليهودي ومن مركزيته الكونية، وهي قداسة تشمل ما يقوم به هذا الشعب من أفعال، وما يقع له من أحداث. إن أهم الأحداث التي وقعت له في الماضي هي العبودية في مصر، والسبي البابلي، ثم سقوط الهيكل والشتات. ولكن أهم ما وقع لليهود على الإطلاق هو الإبادة النازية ليهود أوربا. وهذه الإبادة ليست فعلاً ارتكبته الحضارة الغربية ضد ملايين البشر (من يهود وبولنديين وغجر ومعوقين وعجائز)، وإنما هي جريمة ارتكبت ضد اليهود وحسب. وهكذا ينظر إلى الإبادة باعتبارها حادثة تاريخية هي تجسيد للشر المطلق - رهيبة لدرجة أنها تنفي وجود الخير أو وجود الإله. وإن كان الإله موجوداً فيجب عدم الثقة فيه إذ أنه تخلى عن الشعب اليهودي، بل إن هذه الحادثة تكاد تكون حدثاً يقف خارج التاريخ، فهي عدم كامل. وهي مدلول متجاوز لايمكن لدال أن يدل عليه فهو مرجعية ذاته ولا يمكن فهمه إلا بالعودة إليه خارج أي سياق. ويمكن القول أن كلمة «هولوكوست» أصبحت دالاً ومدلولاً في ذات الوقت، فهي تشبه الأيقونة. ولذا فالفهم غير ممكن ولا يمكن سوى التذكر.

وكما كان هناك في الماضي الخروج بعد العبودية، والعودة بعد السبي، فإنه بعد حادثة سقوط الهيكل والشتات ثم الإبادة جاءت وقفة الشعب اليهودي ومقاومته لما يتهدد بقاءه. فكأن الشعب اليهودي قد استوعب في ذاته كل المطلقية والقداسة الممكنة وأصبح مركز الكون - أصبح الكلمة المقدّسة (اللوجوس) والغرض الإلهي (التيلوس) في آنٍ واحد معاً. ولذا، فإن مقاومة الشعب اليهودي للإبادة هي بمثابة تنفيذ الأوامر والنواهي (متسفوت) في التراث القبَّالي؛ فهذه المقاومة هي التي تقوم بعملية إصلاح الخلل الكوني (تيقون). وهي عملية يستعيد الإله من خلالها وحدته التي فقدها من خلال عملية تهشم الأوعية (حفرات هكليم). وكلما قاوم اليهودي، زادت عملية الإصلاح تسارعاً واكتملت استعادة الإله لوحدته. ومن ثم، فإن الشعب اليهودي يوجد خارج التاريخ ككيان لا يخضع لقوانينه العبثية، ويؤكد المعنى من خلال مقاومته، أو هو بمثابة الجسر (الكوبري) الذي يصل بين الإله والتاريخ (على حد قول أرثر كوهين). وكل هذا يتضمن فكرة حلولية كمونية متطرفة وهي أن الشعب هو الإله وأن هذا الإله لا يتجاوز تاريخ هذا الشعب وإنما يتجلى ويحل ويذوب فيه تماماً ويختفي!

وأهم أشكال مقاومة هذا الشعب هو ظهور دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة تعبّر عن إرادة الشعب اليهودي، وتثبت أن الشعب اليهودي يرفض أن يلعب الدور

المفوض به من قبل المسيحية ليكون شعباً شاهداً، ومن قبل اليهودية الحاخامية ليكون شعباً شهيداً، شعباً مختاراً من القديسين والأنبياء والكهنة لا سيادة له، عاجزا لا يشارك في السلطة، وهو الدور الذي أدى باليهود إلى الاستسلام للإرهاب النازي، وعبر عن نفسه في اشتراك القيادات اليهودية في المجالس اليهودية التي أسسها النازيون والتي قامت بتسليم اليهود إلى قاتليهم. لكن الدولة الصهيونية تقف على الطرف النقيض من هذا كله، فهي تحل مشكلة العجز اليهودي الناجم عن انعدام السيادة وعدم المشاركة في السلطة، فإسرائيل دولة ذات سيادة ولها سلطة وجيش قوي ومؤسسات عسكرية تدافع عن الإرادة اليهودية المستقلة، وإسرائيل هي الشيء الإيجابي الذي ظهر من رماد أوشفيتس، وهي (باعتبارها رمز بقاء الشعب) تشكل هزيمة للعدم ولهتلر (ولذا يشار للاهوت موت الإله على أنه «لاهوت البقاء» و «لاهوت ما بعد أوشفيتس»). بل إن إسرائيل هي حقًا الوسيلة الكبرى لعملية الإصلاح الكوني. فمن خلال هذه الدولة يعلن المطلق عن نفسه ويستعاد الحضور الإلهي داخل التاريخ (على حد قول الحاخام أليعازر بركوفتس). فبقاء الشعب والدولة هو بقاء الإله، واستمرار الشعب والدولة هو استمرار الإله. ولذا، فإن من يقف ضد الدولة ولا يقبلها فهو كمن ينكر وجود الإله، ومن يقبلها بلا شرط فهو وحده المؤمن (على حد قول أرثر روبنشتاين). وقد صرح الحاخام إيوجين بورويتز أحد مفكري لاهوت موت الإله أنه إبان حرب ١٩٦٧، كان الإله نفسه مهدداً بالخطر. فالدولة قد حلت محل الإله أو توحدت به تماماً.

ويجب ملاحظة الثنائية الصلبة التي تسم لاهوت موت الإله: عبودية/ خروج - سبي/ عودة - شتات/ استقلال إسرائيل - إبادة/ بقاء الشعب، وهي ثنائية صلبة تأخذ شكل حركة دائرية متكررة (ويتسم التفكير الحلولي بالدائرية إذ يختفي التاريخ ويتداخل القومي والديني والإنسان والإله). ولكن هذه الوثنية الحلولية الجديدة هي وثنية بدون إله إذ تحل الذات القومية محل الإله تماماً.

ويمكننا الآن أن ننتقل من عالم المعرفة والتاريخ إلى عالم الشعائر والأخلاق. والقيمة الأخلاقية المطلقة هي بقاء الشعب اليهودي، فهذا البقاء هو نهاية في حد ذاته، والحفاظ على الدولة وبقائها وبأي ثمن هو أيضاً مطلق أخلاقي (أو ليس دفاع اليهود عن أنفسهم هو دفاع عن الإله؟). ومن ثم نجد أن لاهوت موت الإله يؤدي إلى ظهور أخلاقيات برجماتية، أي أخلاقيات هي في جوهرها لا أخلاقيات، إذ أنها لا تحاكم إسرائيل بأي مقاييس أخلاقية، وإنما تبرر كل أفعالها وتقبلها تماماً. بل إن الشغل الشاغل للشعب اليهودي هو: تذكر الإبادة وما حل بهم، ثم الالتزام ببقاء إسرائيل وحماية سيادتها وصون بقاء الشعب اليهودي.

أما الشعائر، فهي تكتسب أبعاداً جديدة تماماً. فإن كان تذكر الذات واجباً أخلاقيًا، فإن كتابات اليهود من أمثال إيلي فيزيل عن الإبادة تصبح هي الكتب المقدّسة، ويعتبر متحف مثل متحف بيت هاتيفوتسوت (متحف الدياسبورا في إسرائيل) مستودعاً للذاكرة وزيارته شعيرة دينية مقدّسة، والأوامر والنواهي يضاف إليها أوامر ونواهٍ تضفي الطابع الديني على الدولة والمؤسسات الصهيونية والإسرائيلية مثل مؤسسة الحماية اليهودية والكنيست وجيش إسرائيل. وقد نجح اليهود، في حوارهم مع المسيحيين، أن يجعلوا من الإيمان بالدولة الصهيونية أحد المطلقات حيث لا يجوز في شأنها حوار، كما لا يمكن مناقشة أفعالها.

وقد يكون من المفيد أن نشير هنا إلى أن هذا الإدراك للإبادة النازية ليهود أوربا هو إدراك حلولي كموني متأثر بحادثة الصلب المسيحية (وتشويه لها في ذات الوقت)، فالمسيح هو اللوجوس ابن الإله الذي ينزل فيصلب ثم يقوم ويعود إلى أبيه (وهذا هو الحلول الموقت الشخصي المنتهي). أما في اليهودية، فالشعب هو اللوجوس الذي يعيش بين الأمم ويتعرض للشتات والعذاب وأخيراً الصلب في حالة الإبادة النازية. وكما أن حادثة الصلب لابد وأن تقبل كما هي في الوجدان المسيحي، فإن لاهوت موت الإله اليهودي يتطلب من اليهود والأغيار قبول حادثة الإبادة باعتبارها سرًا من الأسرار. وكما أن المسيح يقوم بعد الصلب، فإن الشعب يبقى بعد الإبادة ويقوم على هيئة الدولة الصهيونية! أي إن الحلول المسيحي الشخصي المنتهي قد تحول إلى حلول دائم وقومي مستمر.

ولاشك في أن هذا الخطاب لا علاقة له بأي دين، سواء كان الإسلام أو المسيحية أو حتى اليهودية الحاخامية. وهو بالفعل يصدم أسماع كثير من الحاخامات الذين قاموا بتكفير أصحابه. ولكن التركيب الجيولوجي للعقيدة اليهودية يجعل من الممكن وجود سوابق لمثل هذه الأفكار. ففكرة الإصلاح (تيقون) في القبّالاه اللوريانية تمنح اليهود مركزية كونية وتجعل وجود الإله أو وحدته مرهوناً بوجودهم. والقبّالاه لم تكن هرطقات ثانوية هامشية وإنما كانت هي العمود الفقري لليهودية الحاخامية أو لتيار هام داخلها.

ويمكننا القول ببساطة أن لاهوت موت الإله هو اللحظة التي تتم فيها الصهينة والعلمنة الكاملة للاهوت اليهودي، إذ يختفي الإله تماماً ويموت وتموت معه شعائره وكتبه المقدّسة ليحل محله إله جديد هو الذات القومية اليهودية والدولة الصهيونية وتظهر شعائر جديدة هي الدفاع عن الدولة وتذكر الشعب اليهودي، أما الكتب المقدّسة فهي سجلات هذه الذاكرة.

وكثير من الحركات الصوفية الحلولية تترجم نفسها إلى أساطير من هذا

النوع، ويخلع الأتباع القداسة على أنفسهم. ويلاحظ كذلك أن الحركات الفاشية تخلع القداسة على نفسها وعلى تاريخها وتعلن نهاية التاريخ. ومع هذا، فإنها تتحرك داخل التاريخ لاغتيال الأطفال وللاستيلاء على الأرض. هذا ما فعله النازيون، وهذا هو ما يفعله الصهاينة. ولاهوت موت الإله ينجز ذلك أيضاً، لكنه يحتوي داخله على تناقض أساسي، فهو يصر على أن يخلع المطلقية على اليهود ومؤسساتهم وتاريخهم (فالإبادة لا يمكن النقاش في معناها، والدولة الصهيونية لا يمكن نقدها أو الحوار بشأنها وهكذا)، ولكنه في ذات الوقت يرفض دور الشاهد على التاريخ ويصر على المشاركة في السلطة مع أن من يتصف بالمطلقية يقف خارج التاريخ، على حين أن من يشارك في السلطة ويستخدمها يقف داخله، ولكن هذا التناقض العميق تتصف به كل النماذج الحلولية الكمونية حينما تتحول إلى نظام حكم.

ولاهوت موت الإله هو تعبير عن العلمنة الكاملة للنسق الديني اليهودي، فهو شكل حاد من حالات توثن الذات القومية التي تتحول إلى مطلق يعبر عن نفسه من خلال مطلق آخر: الدولة. وهي مطلقات مادية لها كل صفات الغيب والميتافيزيقا دون أن تُحمّل من يؤمن بها أي أعباء أخلاقية، بل وتعطيه العديد من المزايا، والتزامه الوحيد هو البقاء. ولكن البقاء بأي شرط ليس عبئاً وإنما هو حالة تتسم بها كل المخلوقات البيولوجية، لا فرق في ذلك بين الإنسان والحيوان الأعجم والنبات الذي لايتحرك، فهذه هي أخلاقيات النظام الحلولي الكموني الواحدي الذي ينتظم كلاً من الإنسان والمادة.

ولعل إدراكنا لمنطلقات لاهوت موت الإله بمطلقيته وتاريخيته، وكذلك إدراكنا لنتائجه المعرفية والأخلاقية، يفسر لنا شيئاً من الموقف الصهيوني والإسرائيلي تجاه العرب، فإذا كانت الذات القومية مطلقة فلا مجال للحوار مع الآخر ولا حقوق له، إذ أنه يقع خارج الدائرة المقدّسة. ويمكننا القول أن لاهوت موت الإله هو النسق الكامن وراء الخطاب السياسي الإسرائيلي بكل علمانيته وبريقه وعنفه وقوته.

إن لاهوت موت الإله هو تعبير عن النسق المعرفي الجديد الذي يسيطر في الوقت الحالي على الحضارة الغربية، أي نسق ما بعد الحداثة (التي يشار إليها أيضاً بالتفكيكية أو ما بعد البنيوية) وهي شكل من أشكال العدمية الكاملة التي لا تنكر وجود الإله وحسب، وإنما تنكر أي مركزية للإنسان. وهي لا تنكر الحقيقة الدينية وحسب وإنما الحقيقة في أساسها، ولا تتمرد على فكرة القيمة الدينية أو الأخلاقية، وإنما على فكرة القيمة ذاتها، أي أنها تنكر قيمة القيمة. وقد بدأ يظهر داخل الفكر الديني اليهودي رفض لهذا الموقف العدمي الفاشي الذي يعبّر عن نفسه من خلال «لاهوت التحرر»، الذي يؤكد الفكر التوحيدي ومسئولية اليهود الخلقية، ولا يعطي

أي مركزية للدولة اليهودية ولا أي قداسة لليهود.

3 : لاهوت التحرر

«**لاهوت التحرر**» حركة دينية في العالم الغربي المسيحي تصدر عن الإيمان بأن العقيدة الدينية هي في جوهرها رؤية ثورية للواقع ترى الإيمان الديني يعبّر عن نفسه من خلال إقامة الشعائر الدينية ومن خلال الدفاع عن قيم العدل والمساواة الاجتماعية وحقوق الأقليات والمضطهدين ضد الاحتكارات العالمية وقوى الرجعية والطغيان العالمي. أي إنه موقف ديني يؤدي إلى تبني ما يسمّى «قيم التحرر» ومن هنا التسمية. ودعاة لاهوت التحرر يتمردون أيضاً ضد المؤسسات الدينية القائمة باعتبارها مؤسسات تم استيعابها في المؤسسات الحاكمة، سواء المحلية الرجعية أو العالمية الإمبريالية، ولهذا فإن هذه المؤسسات أصبحت من منظور دعاة لاهوت التحرر امتداداً للسلطة توظف الدين والشعائر الدينية في خدمة مؤسسات الطغيان والظلم.

وتأثر الفكر الديني اليهودي، بلاهوت التحرر المسيحي. وكما أدّت حركة الإصلاح الديني إلى ظهور اليهودية الإصلاحية، وأدّت الحركة المعادية للاستنارة بتأكيدها لروح الشعب وروح الأرض إلى ظهور اليهودية المحافظة، وأدّى ظهور موت الإله في المسيحية إلى ظهور مدرسة دينية مماثلة في اليهودية، فإن ظهور لاهوت التحرر في صفوف المسيحيين كان له صداه في صفوف أعضاء الجماعات اليهودية.

ولكن لاهوت التحرر اليهودي له خصوصية يهودية نابعة من وضعه الخاص. فلاهوت التحرر اليهودي هو تمرد على لاهوت موت الإله في صيغته اليهودية.

إن لاهوت التحرر ينطلق من رفض الحلولية الكمونية الوثنية ومن رفض إضفاء المطلقية على اليهود وتاريخهم. فالإبادة النازية حدث تاريخي هام ولا شك، ولكنها ليست البداية والنهاية في حياة اليهود، كما أنها ليست النمط المتكرر في حياة اليهود في العالم، فقد حدثت تحولات جوهرية لليهود ولابد من ثم التمييز بين أوضاع اليهود قبل الإبادة وبعدها. فيهود الدياسبورا يعيش معظمهم الآن في سلام في الولايات المتحدة، وهي بلد لا تعرف تقاليد معاداة اليهود ولا تميز ضدهم، وقد حقق اليهود فيها قدراً عالياً من الحراك الاجتماعي والاندماج، والمنفى لم يعد منفى. غير أن لاهوت موت الإله يتجاهل هذه الحقائق ويضع اليهود داخل قالب جامد: دور الضحية الأزلية الذي يحتكر الاضطهاد لنفسه، ولذا فإن لاهوت التحرر لا يذكّر اليهود بأوضاعهم المتميّزة في الوقت الحالي والتي تجعل من الإبادة حديثاً مملاً معاداً لا علاقة له بالواقع، وإنما يذكرهم أيضاً بضحايا الإبادة الآخرين، بل ويذكرهم

بضحاياهم، أي الفلسطينيين (فتاريخ الفلسطينيين أصبح جزءاً من تاريخ اليهود).

وينطبق نفس الشيء على دولة إسرائيل، فهي جماعة يهودية هامة، ولكنها ليست الجماعة اليهودية الوحيدة (المطلقة)، ولا هي مركز الوجود اليهودي ولا السمة الوحيدة للوجود اليهودي. وهي ليست مضطهدة مهددة بالإبادة، وإنما هي دولة مسلحة تحرك جيوشها لتضرب جيرانها وبعض سكانها، أي أن وضع الدولة، مثله مثل وضع يهود العالم، قد تغير. ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل يذهب لاهوت التحرر إلى أن اليهود واليهودية فقدا براءتهما مع احتلال إسرائيل للضفة الغربية، ومع اندلاع الانتفاضة التي أصبحت نقطة حاسمة في التاريخ اليهودي وفي تاريخ اللاهوت اليهودي. فالدولة لم تعد تعبيراً عن رغبة اليهود في التخلص من عجزهم وفي تأكيد إرادتهم، وإنما أصبحت تعبيراً عن إرادة البطش والعنف. بل إن استمرار بقاء الدولة أصبح متوقفاً على موت الأطفال الفلسطينيين، أي إبادتهم! وإذا كان لاهوت موت الإله يصر على أنه لايمكن الإجابة على أي سؤال إلا في حضور الأطفال اليهود المذبوحين، فإن الانتفاضة تواجه الدولة اليهودية واليهود بنفس السؤال : إذا كان اليهود يتذكرون عذاب الإبادة وقسوتها، فماذا عن عذاب الفلسطينيين ؟ لكل هذا لايمكن الحديث عن مستقبل اليهود أو عن الهوية اليهودية إلا في ضوء هذا التحول التاريخي. فإذا كانت الإبادة قد عرَّفت اليهود بأنهم "من ذبحهم هتلر"، فإن الانتفاضة تطرح أسئلة جديدة. فإذا كان اليهود يعرفون من كانوا بعد أن حَفرت الإبادة في وجدانهم، فهل هم يعرفون ماذا أصبحوا بعد أن قامت الانتفاضة وكسرت الدولة الصهيونية عظام الأطفال؟ إن من الطبيعي على اليهود أن يتذكروا أوشفتس وتربلينكا، ولكن عليهم أيضاً أن يتذكروا صبرا وشاتيلا.

هذا على مستوى قراءة التاريخ، وعلى مستوى تعريف الهوية. أما على المستوى الأخلاقي، فإن الدولة لم تعد مطلقاً بعد فك المطلقات الحلولية الوثنية - فإذا كانت الإبادة حدثاً هامّا ولكنها ليست مطلقاً - فما هو المطلق إذن؟ يؤكد لاهوت التحرر أن المطلق الوحيد هو القيم الأخلاقية التي وردت في التراث الديني اليهودي (الذي يعرفونه تعريفاً إنسانيّا عالميّا). ولذا، فإن بقاء الدولة ليس أمراً كافياً، والتخلص من العجز لا يجبُّ التساؤلات الأخلاقية، فمن يحصل على السيادة يمكنه أن يستخدمها في الخير أو البطش. وكذلك، فإن السيادة ليست ميزة خالصة وإنما لها مخاطرها. ومن ينجز معجزة البقاء يمكن أن يكون خيراً أو شريراً، ومن يكلف بالرسالة (الاختيار) يمكنه أن يخونها. ولذا يقرر لاهوت التحرر أن إسرائيل ليست فوق يهود العالم أو فوق ضمائرهم، وأن عليهم الالتزام بالقيم الأخلاقية وحدها.

وإذا تحركوا فهم لن يتحركوا لتأكيد أهمية إسرائيل وحسب والدفاع عن بقائها، وإنما لتأكيد القيم الأخلاقية المطلقة. ولن يتم إصلاح الخلل الكوني (تيقون) من خلال الدولة وإنما من خلال الأفعال الأخلاقية الخيرة. ويجب على اليهود أن يقفوا لا ضد ذبح الأطفال اليهود على وجه الخصوص وإنما ضد ذبح أي أطفال بما في ذلك الأطفال الفلسطينيين. ويجب على اليهود أن يلجأوا لكل شيء، بما في ذلك العصيان المدني، لوضع القيم الأخلاقية المطلقة موضع التنفيذ.

ويلاحظ أن الإيقاع العام للفكر الديني اليهودي لايزال كما كان منذ بدايته، فقد كان هناك دائماً دعاة الوثنية أو القومية أو الحلولية (الكهنة أو الملوك)، الذين يصدرون عن الطبقة الحلولية داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي، وكان هناك دعاة الأخلاق العالمية والشاملة (الأنبياء وبعض الحاخامات) الذين يدورون في نطاق الإطار التوحيدي. كما أن التوتر بين لاهوت موت الإله ولاهوت التحرر هو ذاته نفس التوتر القديم بعد أن تصاعدت حدته بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبعد أن أصبح الخطاب الوثني أكثر صَقَلاً وأكثر إلماماً بالخطاب الديني وأكثر امتلاكاً لناصيته. ومن أهم مفكري لاهوت التحرر آرثر وإسكو ومارك إليس.

وقد تصاعدت حدة لاهوت التحرر مع تصاعد حدة الانتفاضة، فالانتفاضة هي التي أثبتت أمام الجميع أن الدولة الصهيونية ليست مطلقاً وأن التاريخ اليهودي ليس مقدّساً وأن أرض فلسطين ليست أرض ميعاد تنتظر سكانها، فهي ليست سوى أرض مأهولة بسكانها الذين يحيون ويموتون ويحيون ويجاهدون. والله أعلم.

عبدالوهاب المسيري

* (لمزيد من التفاصيل – انظر للمؤلف : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري وتصنيفي جديد ، ستة أجزاء (القاهرة : ١٩٩٥).

والدكتور المسيري من أبرز المتخصصين في الظاهرة اليهودية والصهيونية. ومما صدر له: «نهاية التاريخ» و «موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية» و «الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة»، إضافة إلى دراسات أدبية وحضارية مختلفة. ومما نشرله بالإنجليزية : The Land of Promise المقرر في عدد من الجامعات الأميركية.



بساتين أريحا قبل ١٩٣٥ وتظهر فيها بعض منازل الشتاء، مجموعة خليل رعد
Gardens of Jericho and Winter Houses of Palestinians, before 1935,
Collection of Khalil Raad, *Before Their Diaspora*, Walid Khalidi

المصريون والإسرائيليون
في التوراة وفي التاريخ

من استهلاك الوقت أن نتحدث عن مصر في التاريخ والكلام بشأنها من نوافل القول، فشأنها معلوم وأنشر من أي حدث آخر حتى أصبح من فساد الرأي أن يؤرخ باحث لأي علم من العلوم دون الرجوع إلى أصول تلك العلوم في مصر القديمة، هذا في مجال العلوم، وفي ميدان التاريخ كعلم. أما في ميدان الإعتقاد، وفي الصحائف المقدسة فلها شأن عظيم أيضا، لكن بوصفها ذلك البلد الضال أهله الذي تأله فكفر، فوصم مع شعبه بأنهم من المجرمين، لذلك استحقوا أن يكونوا من المغرقين، بقرار من يهوه، رب التوراة وبضربة من عصا إعجازية دمرت الزرع والضرع في وادي النيل قبل أن تطبق البحر المغلوق على من بقي منهم. أليسوا مجرمين؟

أما إسرائيل فهي عمدة المقدس وعقدته الجامعة. هي المحور منه والقلب الخافق، فهي شعب مقدس فضله الله على العالمين؛ سلسلة من النجباء الأنبياء المطهرين. فالأب نبي ينجب نبيا، في سلسال توارث النبوة كما توارث أرض فلسطين. خير خلف عن خير سلف. فكانوا في المقدسات هم المقدمين علي غيرهم من الأمم الضالة. جدّهم البعيد إبراهيم الخليل، وآباؤهم إسحق ويعقوب الملقب بإسرائيل، وبنوه (بنو إسرائيل) الأسباط المكرمون. ومنهم يوسف الصبي الفاتك الجمال الذي توزر على خزانة المصريين وعلّم خبراء الزراعة ومهندسيها في مصر كيف يواجهون قحط السنين، ومن بعده جاء موسى أعظم أنبياء إسرائيل. ويغص التاريخ المقدس بعد ذلك بسيرة أولئك الهداة المطهرين. فهذا شاؤول يقيم لهم دولة في فلسطين ليترك تأسيسها وتعميدها لداود الملك وولده سليمان الذي أصبح سيدا على مملكة عظمى تغنت بها كتب الدين وكتب الأساطير، فتسلط على الوحوش والهوام والجن

والعفاريت، وأصبحت إسرائيل في زمانه أغنى الدول حتى كانت الفضة في الشوارع مثل التراب (بتعبير التوراة). أما في المأثور الإسلامي فكان أحد أربعة ملكوا العالم الأرضي من أقصاه إلى أقصاه.

هذا شأن إسرائيل في مأثورات الدين، لكن الغريب والمشكل الحقيقي أمام هذا الرتل العقائدي الهائل أن التاريخ كعلم يعلم يقينا تاريخ مصر بحفائره وعلمائه وأركيولوجيته، بأعلامها الأثارية الشاهدة، كما انتهى ترتيب أوضاعها الزمني عبر أسر ودول، من «مينا» موحد القطرين مرورا ببناة الأهرام إلى التحامسة ثم المناتحة فالرعامسة حتى الشناشفة فالبطالمة، فأرض مصر تفيض بالحفائر، غنية بالأحداث، لكن ذلك العلم نفسه، علم الحفائر والآثار، علم التاريخ، رغم الهوس الحفائري في إسرائيل الآن يجد الأرض ضنينة بأي معلومة ذات شأن، فالتاريخ كعلم لا يعرف عظيما أقام لإسرائيل مملكة باسم شاؤول، ولا يعلم شيئا عن محارب ذي بأس أسس لإسرائيل قوميتها باسم داود، ولم ترد في وثائقه على الإطلاق أية إشارة لملك حكيم حاز شهرة فلكية باسم سليمان، كما لم يسمع أبدا ولم يسجل في مدونات مصر ولا في مدونات الدول المجاورة خبر جيش الدولة العظمى وهو يغرق في بحر بضربة عصا، وإطلاقا لا يدري شيئا عن صبي جميل فتن نساء مصر وأذهلهن بجماله فقطعن أياديهن وهن في الهيام به ساهمات. كلا ولا يعلم علم التاريخ من كل ذلك شيئا ولو يسيرا. وكل ما يعلمه عن «إسرائيل» حكايات متناثرة عن شوارد لقبائل من شذاذ الأفاق باسم «الخابيرو/ العابيرو» وإيماءة هنا ولفتة هناك تتحدث عن جماعة باسم إسرائيل سحقتها كتائب الفرعون «مرنبتاح» أو جاء في نصوص الرافدين عرضا عن مملكة باسم عمري، ربما، ويحتمل، ويظن، ومن الجائز، وقد تكون هي مملكة إسرائيل زمن ملكها عمري وابنه آخاب. لكن الأسماء المعظمة المبجلة المفخمة في التاريخ الديني فلا شيء عنها البتة وقطعا في التاريخ كعلم.

الإسرائيليون يدخلون مصر

تقول التوراة – ولا يقول التاريخ هنا شيئا– إن أول احتكاك للبدو العبرانيين بمصر والمصريين كان زمن الأب إبراهيم الذي هبط مصر مع زوجته سارة هربا من القحط الذي حل بأرض كنعان فحصل هناك على فضل عظيم وخير عميم يأتي خبره من نص التوراة القائل عن هدية فرعون لإبراهيم: «فصنع إلى إبرام خيرا بسببها– أي بسبب سارة– وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال.. فصعد إبرام من مصر.. وكان إبرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب» (سفر التكوين ١٢و١٣).

ثم تحدثنا التوراة –ولايحدثنا التاريخ – عن قصة الصبي الآخاذ في جماله؛

يوسف ابن إسرائيل (يعقوب)، وقصة بيعه في مصر، وكيف أثبت مهارة إسرائيلية أوصلته إلى كرسي الوزارة ليصبح الرجل الثاني في مصر بعد الفرعون، وكيف أرسل يوسف يستدعي أهله لينعموا بخير مصر حيث أذن له الفرعون بذلك، وهي ثاني رواية توراتية تتحدث عن مصر كملجأ للإسرائيليين كلما قحطت بهم الحياة ولحقت بهم المجاعات.

لكن التوراة لا تخبرنا بالسبب الذي أثار حنق الفرعون التالي على العرش إلى حد تسخيره ضيوف مصر في الأعمال الشاقة، عقابا لهم على أمر مجهول. ونحن نعلم أن ماعت/ العدالة/ القانون الكوني) كان تاج القانون المصري الدائم. ومن هنا يظن أغلب الباحثين أن الإسرائيليين لعبوا دورا مع الهكسوس الغزاة ضد المصريين وتعاونوا مع أعداء البلاد فحقت عليهم النقمة وتم أسرهم مع فلول الهكسوس الآسيرة بمصر.

وبدورنا، نذهب مع هذا الظن، ونرى-احتمالا- دخول يوسف وأهله مصر في عهد «أسيس» آخر الحكام الهكسوس على مصر، وهو ما يلتقي مع الإسم «عزيز» الذي جاء في القرآن الكريم، خاصة أن الأيات كانت تتحدث دوما عن حاكم مصر باسم الفرعون، عدا زمن يوسف، زمن دخول الإسرائيليين إلى مصر، ناهيك عما سجلته التوراة عن سياسة يوسف في مصر أثناء السنين القحط السبع، حيث احتكر الميرة جميعا في خزائنه وباعها للمصريين الذين يموتون جوعا مقابل الرستيلاء على أرضهم ثم مواشيهم ثم أنفسهم هم ليتحولوا إلى عبيد لصالح الحاكم الهكسوسي. أما مشاعر المصريين تجاه هؤلاء الإسرائيليين فقد تبدت بوضوح في اعتبارهم الإسرائيليين نجسا يجب اجتنابه، وهو ما ورد جميعه في نصوص توراتية من قبيل: «اشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون، رذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم، فصارت الأرض لفرعون. أما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى مصر إلى أقصاه.. فقال يوسف للشعب: إني اشتريتكم اليوم وأرضكم للفرعون..» (سفر التكوين ٤٨). وفي نفس السفر، كان يوسف يقول لإخوته: «جواسيس أنتم لتروا عورة الأرض جئتم». وكان ينصحهم دوما بالإبتعاد عن المصريين، «لأن كل راعي غنم رجس عند المصريين» (سفر التكوين ٤٦).

الإسرائيليون يخرجون من مصر

هذه حكاية التوراة عن الدخول إلى مصر، فماذا عن الخروج؟ تقول التوراة: إن موسى قد ولد في مصر إبان أزمة الإسرائيليين بمصر. والقصة معروفة فقد ربي في القصر الملكي وتبنته ابنة الفرعون وأكرمت مثواه، لكن الصبي يكبر فيقتل مصريا

تعصبا لبني جلدته، فيطلبه القصاص وتطارده العدالة فيهرب إلى مديان بسيناء حيث يلتقي هيناك برب سينائي يدعى «يهوه» على هيئة نار في عليقة، ويحمل منه أوامر صريحة لبني إسرائيل بأن يخرجوا من مصر تحت قيادة موسى إلى فلسطين. وعاد موسى إلى مصر بتلك الأوامر وبالعصا الثعبان مع وعد إلهي يقول يقول: «الآن تنظر ما أنا فاعله بفرعون فإنه بيد قوية يطلقهم، وبيد قوية يطردهم من أرضه.. أنا أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم» (سفر الخروج ٦).

وتتالى الأحداث، فيضرب موسى بعصاه النيل ليتحول دما، وتصير مصر خرابا. ثم يضربه بعصاه ضربات متتالية فتمتلئ مصر بالضفادع والبعوض والذباب والطاعون والجراد مع برد وظلام. ثم يهبط الرب يهوه بنفسه لتحقيق الضربة الأخيرة: قتل أطفال المصريين، وذلك في النص: «وقال موسى: هكذا يقول الرب: إلى نحو منتصف الليل، أخرجَ في وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر الفرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التي خلف الرحى، وكل بكر بهيمة. ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر» (سفر الخروج). وفي تلك الليلة، «كان صراخ عظيم في كل أرض مصر، لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت» (خروج١٢). ولم ينس الإسرائيليون عادتهم في الخروج من مصر بالخير الوفير، فقد «فعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى، طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبا وثيابا، وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين، فارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس» (خروج١٢).

ثم تأتي الضربة الحقيقية لإفناء المصريين في رواية التوراة عن قيام ملك مصر وجيوشه بمطاردة الفارين بالذهب حيث أدركوهم عند البحر. وهنا تحدث المعجزة الكبرى: «ومد موسى يده على البحر فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم.. فمد موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة.. فدفع الرب المصريين في وسط البحر» (خروج ١٤). ويتوجه الخارجون من مصر إلى فلسطين ليغزوها ويحتلوها ويقيموا لهم هناك دولة؛ تلك الدولة التي قيض لأحد ملوكها «سليمان» أن يحوز في مقدسات المنطقة شهرة لا تضارع. ومع ذلك فقد قال هـ. ج. ويلز ونقل عنه الباحثون العرب مثل أحمد سوسة وأحمد شلبي قوله: «أما الوصف الذي اعتاد الباحثون ترديده على اتساع وامتداد حدود مملكة سليمان فيعده أكثر الباحثين من قبيل المبالغات التي درجت عليها دويلات تلك العصور. والحقيقة أن مملكة سليمان التي تتبجح التوراة بعظمتها كانت أشبه بمحمية

مصرية مرابطة على حدود مصر قائمة على حراب أسيادها الفراعنة. وكان سليمان يريد أن يجاري الفراعنة في البذخ والظهور بما هو فوق طاقاته وامكانياته الإقفتصادية، فأثقل كاهل الشعب بكثرة الضرائب. ولما عسر على سليمان أن يحتل أرض فلسطين الساحلية طلب معونة فرعون مصر فأرسل جيشا مصريا صغيرا احتلها وسلمها له مهرا لابنته». ثم يتساءل: «كيف صور كتبة التوراة مملكة سليمان في صورة تفوق الواقع بكثير؟- فسليمان لم يكن وهو في أوج مجده إلا ملكا صغيرا يحكم مدينة صغيرة. وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى استولى شيشنق أول فراعنة الأسرة الثانية والعشرين على أورشليم». ثم يتابع قوله: «إن أمور مصر في عهده كانت مرتبكة فخفت هيمنتها على فلسطين وبلاد الشام. وكانت أمور الدولة الآشورية مرتبكة كذلك. وهذا ما منح سليمان شيئا من الحركة والنشاط والتبسط في ممارسة السيادة. أما ما جاء عن قصة ملك سليمان وحكمته التي أوردها الكتاب المقدس فقد تعرضت لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخركان شغوفا بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولها بتمجيد حكمه. وقد استطاعت هذه الرواية أن تحمل العالم المسيحي، بل والإسلامي، على الرعتقاد بأن الملك سليمان كان من أشد الملوك عظمة وأبهة. لكن الحق أنه إذا قيست منشآت سليمان بمنشآت تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نبوخذ نصر لبدت منشآت سليمان من التوافه المبتذلة. أما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينقيا، وترجع أهميتها في عظم أمرها إلى ضعف مصر الموقت».

ماذا يقول التاريخ؟

وهكذا يتضح أن الباحثين عندما يريدون الحدث عن أحداث التوراة حديث المؤرخين يضطرون إلى المقارنات والإستنتاجات، بالنظر إلى أن تاريخ مصر، على كثرة ما اكتشف منه، لا يشير إلا لماما في لمحات هامشية سريعة إلى القبائل البدوية، بينما تتحدث التوراة بالتفاصيل عن مصر وملوكها ومدنها وطبائع أهلها، مما يشير إلى معرفة واضحة من جانب الرسرائيليين بشؤون مصر والمصريين، وهو أمر طبيعي تماما حيث أن وضع إسرائيل كقبائل هامشية ما كان يشغل حيزا هاما في المدونات المصرية بينما كان المدون الرسرائيلي لا يستطيع إغفال مصر.

المهم أن أول ذكر لإسرائيل في مدونات مصر جاء في قصيدة منقوشة على لوج تذكاري من الجرانيت الأسود، أقيم في معبد الملك مرنبتاح الجنائزي. والقصيدة تتغنى ببطولات الملك وانتصاراته حيث تقول: «الأمراء منبطحون أرضا يصرخون طالبين الرحمة، وليس بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه. لقد دمرت أرض التحنو

(ليبيا)، وخاتي(تركيا) هادئة، وكنعان قد استلبت بقسوة، وعسقلون تم الإستيلاء عليها، وجازر قد أخذت، وينوعام أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أقفرت وليس لها بذر، وخوري (أرض فلسطين) عدت أرملة لمصر».

وقد وقف علماء كثر عند هذا النص واعتبروه دالا على حدث الخروج من مصر حيث ترد كلمة إسرائيل في نصوص مصر لأول مرة، واعتبروا الفرعون مرنبتاح هو فرعون موسى والخروج، بينما ذهب آخرون إلى أن النص يتحدث عن حرب شنها مرنبتاح على عدد من الشعوب خارج مصر وأنه هاجم أراضيهم ومنها إسرائيل.

هذا كل ما ورد من التاريخ التوراتي المهول في تاريخ مصر: «إسرائيل أقفرت وليس لها بذر».

ويبدو أن الأمر لم يكن يستأهل الفخار به والإطالة بشأنه، قياسا على أعمال الفرعون الأخرى، فاكتفى بتلك الإشارة السريعة التي قامت عليها ألوف الأبحاث في جامعات العالم، مقارنة بالتوراة، ولم تزل.

أما قول ويلز السالف بأن إسرائيل كانت مجرد دويلة رهينة لمصر، وأنها كانت تابعا متقدما في آسيا للفراعنة فهو استنتاج يطابق أحداث التاريخ وما ورد في تاريخ مصر القديمة من وثائق عن الحملات التأديبية التي كان يقوم بها الفراعنة على بدو آسيا في حال أي تمرد أو عصيان، مع تركهم على أحوالهم يحكمون فقط بوال من قبل الفرعون غالبا ما يكون منهم مع بعض كتائب لقمع الشغب.

وتتحدث التوراة عن زمن حكم رحبعام بن الملك سليمان ولم يمض على موت سليمان خمس سنوات، فتخبرنا بشأن حملة قام بها فرعون مصري باسم شيشق على دولة يهوذا في فلسطين، حيث تقول: «وفي السنة الخامسة للملك رحبعام صعد شيشق ملك مصر إل« أورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء وجمع أتراس الذهب التي عملها سليمان» (سفر ملوك أول ١٤).

وهو الخبر الذي يلتقي مع الوجود التاريخي لفرعون باسم شيشق وبأخبار الحملة التي قام بها على فلسطين، مع جدول بالمدن التي هاجمها، لكن دون أن يذكر إطلاقا كلمة إسرائيل، ولا كلمة يهوذا ولا حتى أورشليم. وهذا هو الفرعون الذي قالت التوراة إنه كان صهر سليمان وأن سليمان طلب مساعدته للاستيلاء على مدينة جازر الفلسطينية الساحلية فأرسل إليه شيشنق بضع كتائب احتلتها له وتركتها له هدية. وقد عثر مؤخرا في مجدو على نصب تذكاري أقامه شيشنق هناك تذكارا لحملته على المنطقة التي كانت فيها «المملكة السليمانية» بعد موت سليمان، وهو الأمر الذي يشير إلى أن سليمان كان تابعا مخلصا لشيشنق، كما يشير من جانب آخر إلى عصيان ما؛ ارتكبه ولده رحبعام بحق الفرعون فاستحق التأديب.

ومن المعلوم أن مصر ظلت ترعى فلسطين وتزودها بالميرة أيام القحط والجفاف، كما ظلت ملجأ آمنا لأهلها عند أي خطب أو غزو خارجي، وهو بالضبط ما حدث زمن هجوم الملك الكلداني نيوخذ نصر على يهوذا حيث لجأ أهلها بالألوف المؤلفة إلى مصر التي استقبلتهم بالترحاب زمن الفرعون «واح اف رع» المسمى باليونانية «إفريس» ٥٨٧-٥٦٨ق.م. أحد ملوك الزسرة السادسة والعشرين، وهو ما حكته التوراة في الإصحاح ٢٥ من سفر ملوك ثاني، وتأكد بوجود جالية يهودية تعيش بعد ذلك في جزر الفنتين جنوبي أسوان بمصر.

وتحكي لنا التوراة عن معركة بين مصر وأشور وقعت في بلاد الشام، مما يشير إلى خروج الجيوش المصرية للدفاع عن بلاد الشام ضد غزو أشوري. وتقول التوراة إن ملك إسارئيل يوشيا اعترض طريق الفرعون نخاو ليمنعه عن نجدة سوريا فاضطر الفرعون إلى قتل الملك الرسرائيلي كما اضطر بعد ذلك إلى أسر ابنه «يهوأحاز» الذي تخابر مع الأشوريين، وتم ترحيل الملك الإسرائيلي «يهوأحاز» إلى مصر، وهي رواية سفر الملوك الثاني في الإصحاح الثالث والعشرين، ولا نجد في مدونات التاريخ نظيرا لهذه الرواية لكن تم العثور على لوح عليه نقش ورسم وكتابة عن شخص باسم «يوده معلك»، وترجمتها ملك يهوذا، وتعود إلى زمن الفرعون نخاو، وهو ما جعل المؤرخين يقولون إنه الملك الإسرائيلي الأسير «يهوأحاز» بعينه.

وبينما كانت التوراة تصف مصر بأنها «جنة الرب أرض مصر» حيث الراحة والهدوء والرخاء والدعة نجد أيوب النبي يحلم بأيام مصر «قد كنت مضطجعا الآن ساكنا، كنت نمت مستريحا مع ملوك ومشيري الأرض الذين بنوا أهراما لأنفسهم» (أيوب ٣)، وفي سفر الخروج نجد الرسرائيليين يعانون الجوع بسيناء فيحتجون على موسى معبرين عن ندمهم لترك أسر مصر قائلين: «ليتنا كنا بمصر جالسين إلى جوار قدور اللحم» وهي كلها أمور تفسر ما استقر في نفوس الرسرائيليين تجاه المصريين متمثلا في نبوءات ترد لمصر الجميل.

نبوءات التوراة لمصر

في الأزمنة التوراتية الأخيرة لإسرائيل، زمن الأنبياء إرميا وأشعيا، وقبل زمن من تدمير الهيكل على يد طيطس الروماني وتشتيتهم في بقاع العالم، وقف أنبياء إسرائيل على عتبات النهاية يتنبأون بعودة المجد السليماني وقيام دولة إسرائيل مرة أخرى وأنها حينذاك ستسود العالم، لكن قيامها كان يشترط أولا وأخيرا خرابا تاما لمصر وإذلالا لها.

وهذا ما يفصح عن التكوين النفسي والعقلي وعن مدى التشوه الذي لحق بنفوس

القوم تجاه مصر.

يقول إشعيا: في الإصحاح ١٩ من سفره: «وحي من من جهة مصر. هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم إلى مصر.. يذوب قلب مصر في داخلها.. تنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس، وتنتن الأنهار... والرياض على النيل على حافة النيل على حافة النيل وكل مزرعة على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون.. في ذلك اليوم تكون مصر كالنساء، فترتعد وترتجف من هزة يد رب الجنود التي يهزها عليها وتكون أرض يهوذا رعبا لمصر».

ثم يؤنب أشعيا بني جلدته الذين يلجأون إلى مصر وفيئها في الملمات بقوله في إصحاحه الثلاثين: «ويل للبنين المتمردين يقول الرب.. الذين يذهبون لينزلوا إلى مصر للمعونة.. ليلتجئوا إلى حصن فرعون ويحتمون بظل مصر فيصير لكم حصن فرعون خجلا والإحتماء بظل مصر عاراً».

أما النبي أرميا في الإصحاح ٤٦ فقد وقف يعبر عن مكنون كل إسرائيلي تجاه مصر في قوله: «أخبروا مصر واسمعوا في مجدل واسمعوا في نوف (منف) وفي تحفنميس، قولو انتصب وتهيأ الآن، لأن السيف يأكل حواليك.. نادوا هناك فرعون ملك مصر هالك.. نوف تصير خربة وتحرق فلا ساكن.. هأنذا أعاقب آمون نو وفرعون مصر وآلهتها والمتوكلين عليه».

أما حزقيال النبي فلم يبخل على مصر وهو يتوج روح الكراهية والتشوه بتوجيه كلاب الرب الإسرائيلي إلى الفرعون المصري المقبل بالإصحاح ٢٩ حيث يقول:

هأنذا المليك على أنهارك، أجعل من أرض مصر خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان.. وأشتت المصريين وأبددهم من الأرض».

سيد محمود القمني

سيد محمود القمني: باحث متفرغ، من أهم أعماله المنشورة (غير الكتب الفلسفية المتخصصة): «أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة»، «الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية»، «النبي إبراهيم والتاريخ المجهول»، «الأسطورة والتراث»، «حروب دولة الرسول (الجزء الأول: بدر وأحد)»، «إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل»، «قصة الخلق: منابع سفر التكوين».

في مواجهة الإذابة

...ووجدنا أنفسنا في مواجهة خطر ماحق يصغر أمامه ما تعرضنا له في القرن التاسع عشر عندما دمرت مدافع الأساطيل الأوروبية حصون الموانىء الإسلامية، ودخلت جيوشها أراضينا، واحتلت عواصمنا في الشمال الأفريقي ومصر وسورية والعراق وإيران وبقية الدول الإسلامية...

الخطر الماحق الذي يحيق بنا اليوم ليس خطر الإحتلال العسكري الذي كان على فجاجته ملموسا يمكن مواجهته وجها لوجه، فإذا حصدت البنادق صفا حلت محله صفوف. لم يعد القتال على الأرض. أصبح في السماء، وأصبح قوى غير منظورة يمكن أن تدمر كل شيىء: صواريخ تنطلق من حاملات الطائرات في عرض المحيط أو طائرات دون طيار...

هذا التقدم الرهيب في فنون القتال ليس إلا ضلعا واحدا من أضلاع «مربع الإذابة:

١- قوة عسكرية قاهرة لا يمكن لأي دولة إسلامية، أو حتى لمجموع الدول الإسلامية مقاربتها، دع عنك مغالبتها. وساعد على ذلك أن التقنية العسكرية على أعلى صور التقنية وأبهظها تكلفة. فطائرة «الشبح» مثلا تتكلف بضع مئات من ملايين الدولارات. وقد يكون من المفارقات أن تستعيد شركات السلاح بعض مواردها من بيع الأسلحة المتخلفة إلى العرب والمسلمين ولا قيمة لها بالطبع أمام الأسلحة الاميركية المتطورة.

٢- تقدم تكنولوجي في وسائل الإنتاج لا يمكن منافسته واحتكار أسراره والحيلولة دون تسربها. وهو يقوم على استخدام العلوم من كيمياء وطبيعة وكهرباء... إلخ. وبهذا التقدم توصل الحرب إلى وسائل صنع وأداء، بل وإلى

«تخليق» المواد التي تعوزها، أو التي لا توجد في الأرض بالتكوين المطلوب، والتوصل إلى مصادر للطاقة، وإن كانت تفضل أن تستنزف طاقة المسلمين -البترول- أولا. وتوضع الخطط الإقتصادية والمالية لمساندة التقدم التكنولوجي كاتفاقية الجات GATT وكالشروط التي يضعها صندوق النقد الدولي على السياسات الإقتصادية للدول التي تريد مساندته بحيث تجد الدول الإسلامية نفسها مقيدة تكنولوجيا واقتصاديا وماليا.

٣- فكر حضاري- دعائي/ سيكولوجي يعرض عبر قنوات التلفزيون والأقمار الصناعية. وقد قدر أحد الكتاب أنه ستوجد قريبا ما يقرب من خمسمائة ألف قناة تلفزيونية تبث كلها أنباء أو أحاديث أو ثقافات أو صورا من الفنون لا تعرف حدا تقف عنده.. كلها بأعلى درجة من التقنية اللامعة، الجاذبة، الآسرة. وكلها تعمل على تمييع شخصية المواطن المسلم بحيث تذوب مقوماته شيئا فشيئا. وتنشر أجهزة البث التلفزيوني هذه الصورة الاستهلاكية الاستمتاعية للحضارة الأوروبية دون أن تشير أقل إشارة إلى ما تطلبه ذلك من عمل دائب أو علم نافذ.

٤- خط سياسي رئيسي يقوم على الشك في الدول الإسلامية، والنظرة إليها نظرة «دونية»، والتفرقة بينها، وتفتيت وحدتها إلى دويلات على رأس كل منها له حرس، وعلم، وسلام! وإضرام النعرات العنصرية. ولا مانع من التحرش بها أو إشعال نار الحرب فيما بينها بين آونة وأخرى كما حدث ما بين العراق وإيران، والعراق والكويت، ومساندة متمردي جموب السودان!

بتلاقي هذه الأضلاع الأربعة يتكون مربع الإذابة الذي يكون أشبه بحوض كبير يتدفق فيه حامض كبريتي يذيب القيم وكذلك المقومات، بل حتى بعض الخصائص البدنية للسكان بحيث يكونون -في النهاية- عجينة يمكن للغرب أن يشكلها كما يشاء ويتحكم فيها كما يريد.

وليس هذا كل شيء...

إن هذا المربع يعمل تحت مظلة الشرعية الدولية المزعومة، وهي التي ظهرت نتيجة لتفكك المنظومة الاشتراكية التي كانت توجد نوعا من «الثنائية القطبية» في السيادة الدولية فأفسح تحللها المجال للقوة الرأسمالية التي تمثلها الولايات المتحدة، وتملكها نوع من الغرور والزهو قد يمثله ما ذكره الكاتب الياباني/الأميركي عن «نهاية التاريخ»، أو ما أشار إليه القرآن الكريم «يحسب أن ماله أخلده».. وتحت مظلة مزعومة مصنوعة بدأت الولايات المتحدة ممارسات هي في حقيقتها نوع من العربدة أو القرصنة الدولية تعيد إلى الذهن سياسات روما في العهد القديم، وسلطت أسلحة جديدة لم يكن للعالم بها عهد كالمقاطعة التي تفرضها على دولة، فتشل

الطيران إليها أو إمدادها حتى بالغذاء! وطبقت ذلك بوحشية على العراق وليبيا بحيث لم تستطع مصر -وهي أقرب الدول إليها وذات المصلحة المباشرة- أن تفعل لها شيئا وانصاعت لأوامر المقاطعة. وفي الوقت نفسه فإنها تسكت على وحشية الصرب وتراوغ ووضعت قائمة للدول المساندة للإهاب تضع فيها ما تشاء.

وتتخذ الولايات المتحدة من إسرائيل وكيلا عاما مفوضا في التعامل مع الدول العربية بعد أن غرستها في قلب المنطقة ومكنتها من الاستحواز على أحد أقداسها وزودتها بالسلاح، وساندتها في كل ما تفعل حتى أصبح هذا القزم الضئيل ماردا. وهكذا تفعل إسرائيل فإنها تمد يدها لتشد إحدى جاراتها لكي تتفق معها وتذعن لها.

وبتأثير هذه القوى الضاغطة وتشرذم الدول العربية والإسلامية واستخزائها استطاعت إسرائيل أن تقفز بعدد سكانها من مليون إلى قرابة خمسة ملايين وأن تقضي على مقاومة الدول واحدة تلو الأخرى وأن تدخل في معاهدات معها، وهي اليوم تتهيأ لخطوة جديدة هي أن تجعل من منطقة الشرق الأوسط، كما يقولون، سوقا للمنتجات الغربية التي تمولها وتشرف على سياستها إسرائيل بحيث يستلحق اقتصاد المنطقة وانتاجها في الزراعة والصناعة والتجارة باقتصاد إسرائيل والرأسمالية الصاعدة.

وهكذا نجد مربع الإذابة يحتوي الدول العربية الإسلامية تدفعه وتحميه إسرائيل والولايات المتحدة من ناحية أخرى.

* * *

أين المفر؟ العدو في البر والبحر والجو. العدو يطبق على الإقتصاد والصناعة وما هو أهم: تشكيل العقل العربي وإذابة الشخصية الإسلامية ومقوماتها الحضارية.

تبدو الصورة قاتمة مظلمة. ولكن من أشد ساعات ظلمة الليل ينبثق الفجر.

إن السياسيين ورجال الإقتصاد وكثيرا من المفكرين لا يرون حلا أو فرارا إلا الإستسلام. وعزاؤهم هو أنهم سيستحوزون على الجزء الأعظم من فتات المائدة، وهو وإن كان فتاتا إلا أنه يكفيهم وزيادة، وهم بعد رجال «الممكن» وما من الممكن مناص، ورجال الأرقام والأرقام لا تخطىء.

والأوروبيون والأميركيون لا تخالجهم الشكوك في استسلام المنطقة بعد أن أطبقت عليها الشبكة واحتواها «مربع الإذابة» لأنهم يفهمون الإنسان ما بين «الإنسان الإقتصادي» الذي يعمل بوازع الربح وتحركه آليات السوق والإنسان «الفرويدي» الذي تحكمه الغريزة الجنسية وتدفع به بعد عمل اليوم الشاق، ولتعويض روتينية هذا العمل، إلى إثارة عاطفة جنسية يجد في نهايتها الإسترخاء

من توترات اليوم. إن إنسانا مثل هذا لابد وأن يستسلم بكليته إلى وازع الربح من ناحية وإلى غريزة الجنس من ناحية أخرى، ولايدور في ذهنه فكرة الثورة عليها. والأوروبيون يتصورون بقية الناس كالأوروبيين.. ما أن يوضعوا ما بين وازع الربح وغريزة الجنس حتى يستسلموا. ولكن الأوروبيين -بما فيهم من سياسيين ورجال اقتصاد- ينسون عاملا هاما يوجد لدى ناس المنطقة ولا يوجد لدى أوروبا هو «الإسلام».

وإنما أهمله الأوروبيون المعاصرون لأن أوروبا «وثنية» لم يظهر فيها الأنبياء ليعرفوها على الله، وقام بذلك الفلاسفة والشعراء والأدباء الذين صنعوا وجدان أوروبا ودينها. أما المسيحية التي تدعيها فليست إلا قناعا أو ثوبا احتفاليا تلبسه نصف ساعة كل أسبوع. وقد كان السياسيون الأوروبيون في القرن التاسع عشر أكثر ذكاء ونفاذا في فهم الأمور، فقدروا للدين في الشرق قدره. أما السياسيون الأوروبيون اليوم فقد استغرقتهم انجازاتهم في التقنية والإتصالات وعلوم الفضاء والذرة والكومبيوتر.. فتصوروا أن ما من قوة يمكن أن تقف في مواجهتها.

الإسلام اليوم هو خط الدفاع الأخير في مواجهة الإذابة، لأن أهم ما يجب أن نحرص عليه الآن هو أن نرفض الإذابة ونتحصن من تأثير عوامل الجذب وأن نحتفظ بشخصيتنا سليمة وتفكيرنا موضوعيا بحيث يمكن أن نفكر في الطرق التي يمكن أن ندفع بها هذه الجائحة ورأسنا فوق الأمواج المتدفقة. هذا هو أول وأهم ما يجب أن نحرص عليه. وهذا هو ما لانجده الآن إلا بفضل الإسلام، لأن الإسلام هو أبرز مقوم لشخصيتنا المستقلة وإرادتنا الحرة، وهو الوحيد الباقي بعد أن فقدنا حريتنا السياسية واستقلالنا الإقتصادي ومالا يمكن لأوروبا أن تتلاعب به.

إذن، ما الذي يمكن أن يجعل لنا شخصية مستقلة محصنة من الإذابة؟

قد يقال: اللغة. ولكن الإذابة تقدم باللغة العربية أيضا عبر الإذاعات الأوروبية والأميركية. ثم إن الصورة والنغم، وهما من أعظم معدات الإذابة ومؤثراتها تتجاوزان اللغة، لأنهما تخاطبان العين والأذن مباشرة ودون محاورة.

واللغة العربية بعد، هي بنت الإسلام. ولولا القرآن لتمزقت اللغة العربية أشلاء ولأصبحت لهجات لا تفهم أو لغات مستقلة على مدار ألف وخمسمائة عام منذ ظهور الإسلام.

هل تكفي القومية العربية أو التكتلات الإقليمية كالاتحاد المغاربي ومجلس التعاون الخليجي وجامعة الدول العربية..إلخ؟ لقد اتضح تماما أن هذه لا تقوم على أساس. وتجارب الوحدة الفاشلة وتعثر جامعة الدول العربية خير شاهد على ذلك.

العادات، التقاليد.. كلها مرنة، يمكن أن تتطور وتساير ما لم ترتبط بجذر

أقوى وأعرق منها.. وليس إلا الدين.

في مواجهة هذا، نجد أن الإسلام يقدم الحماية المطلوبة كأفضل ما يمكن أن نقدم، بحيث لا يكون سدا أصما قد يغلبه الذكاء، ولكن سدا واعيا ذكيا يمكن أن يمتص العناصر المغذية المفيدة في الحضارة الأوروبية وينفي خبثها في الوقت نفسه.

إن الإسلام -وهذه ميزته- لا يصد عادية الإذابة فحسب، ولكنه يغرس قوة في نفس الإنسان ويفتح له أبواب الحلول وسبلها. إن الإسلام وحده هو القوة الباقية التي يمكن أن تعصم إنسان المنطقة من الإذابة. كيف؟

أولا، هو يحول دون أن يصاب المسلم بصدمة الإنبهار، تلك الصدمة التي تجعله كالموقوذة لا يكاد يقف على قدميه. إن المؤمن بالله لا يدهشه ولا يبهره أي شيىء آخر، لأنه من خلق الله. ومن ثم فإن المسلم يحتفظ بذهنه صافيا، وبتفكيره سليما، يعمل عقله الإيماني، وليس ثمة تعارض ما بين العقلانية والإيمان، بل إن الإيمان هو أول ما تسلم به العقلانية الموضوعية الحكيمة.

إنه بفضل إيمانه يستطيع أن يحدد موقفه ويتخذ قراره أمام هذا السيل العرم الحديث. قد يكون هو أولا -مقاطعة الكثرة الكاثرة مما تدفع به الأسواق والأبواق. وهو وإن كان سلبيا، إلا أن المؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يقفه لأن إيمانه يحميه من الإغراء وعوامل الجذب والإنبهار. ولا نجد هنا حرجا في أن نستشهد بواقعة من التاريخ البريطاني لأن طبيعة الإيمان واحدة. وهذه الواقعة تصور لنا كيف يحقق الإيمان غايته. تلك هي قصة «ليدي جوديڤا» التي عاشت في القرن الحادي عشر وطلبت من الحاكم أن يرفع مظالمه عن سكان إقليمها في كوڤنتري فوضع لذلك شرطا هو أن تسير عارية في شوارعها. وقبلت ليدي جوديڤا. وفي اليوم الموعود أغلق تجار البلدة جميعا محالهم، وأغلق أهلها شبابيك بيوتهم بحيث أصبحت الشوارع خالية تماما كما لو كانت الحمام الخاص لليدي جوديڤا. وفشلت مؤامرة الحاكم في إذلالها. وهنا قد نذكر أيضا تجارب غاندي في المقاومة والعصيان المدني التي أجبرت بريطانيا على التعاون معه والإعتراف به.

وأثر الإسلام أعظم من هذه جميعا، لأن الإسلام منهج حياة، وهو يعترف بكل ما يؤثر على الحياة الدنيا ويفرزها ما بين صالح وطالح، حسن وسيىء، خير وشر. وهو يعترف أيضا بكل ما هو صالح وحسن وخير ويعمل له. ومن ثم فليس هو بالدين السلبي الذي يتجاهل الحياة، ولكنه الدين الإيجابي الذي يتعامل مع الحياة على هدى وبصيرة، ويستطيع أن يأخذ من الحضارة الحديثة ما يتفق معه. وهذه الحضارة ليست من إبداع أوروبا بالكامل فقد أسهم فيها المصريون القدماء، كما أسهم فيها العلماء المسلمون، فهي حضارة البشرية. ومع أن أوروبا طوعتها وختمتها

بخاتمها فإن عملية الإنتقاء والتمييز والتمحيص لن تكون عسيرة. بل يمكن أن نقول إن الإسلام يدفع المؤمنين به لمحاولة اختراق المجتمع الأوروبي والتأثير عليه لأن ما يعرضه من قيم هي ما يمكن أن ينقذ هذا المجتمع من بعض أزماته.

وبالنسبة لإسرائيل فهل يعقل أن توجد جزيرة صغيرة من خمسة ملايين وسط بحر هادر يزيد عن المائة مليون؟

إن كل حقائق الجيوبوليتيك وتجارب التاريخ تؤكد استحالة استمرار الروس الذين استقدمتهم اسرائيل من أقصى روسيا االباردة لتضعهم في فلسطين الحارة. ولو وضعت استراتيجية عربية إسلامية طويلة الأمد لإعادة هؤلاء الروس إلى بلادهم لنجحت. كان جمال الدين الأفغاني يقول «الإستعمار عارية» بمعنى أنه مهما وجد فلابد أن ينحسر! وقد ظلت بعض الولايات الصليبية في «الشام» لمدة قرنين، وحكمت فرنسا الجزائر لقرن ونصف، وساد البيض جنوب أفريقيا ثلاثة قرون، ولكن في النهاية لا يصح إلا الصحيح. «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».

جمال البنا

* جمال البنا مفكر إسلامي له العديد من المؤلفات منها «ديمقراطية جديدة» و«روح الإسلام» و«حرية الاعتقاد في الإسلام»و «الفريضة الغائبة: جهاد السيف أم جهاد العقل» و«الإسلام والعقلانية» و«مسئولية فشل الدولة الإسلامية».

رجلان.. وسؤال مهم

في حركة المسلمين السود في أميركا

لا شك أن قضية المسلمين من أصل أفريقي في أميركا على وجه الخصوص والذين عرفوا سابقا بالمسلمين السود Black Muslims من القضايا الهامة والخطيرة في حياة الأقليات المسلمة، خصوصا أن المعلومات التي طرحت كانت في كثير من الأحيان معلومات مشوهة وغير دقيقة، أو معلومات تأخذ بعض الجوانب والزوايا الخاصة في حياة هؤلاء الناس، ولا تسمح بإلقاء نظرة شمولية على أوضاعهم وتركيبتهم السياسية، وتلقي الضوء على أبعاد النشأة التاريخية وما صاحب ذلك من مفاهيم اعتبرت خاطئة لدى بعض المسلمين في الشرق، ونشأ بسبب ذلك خلاف واضح بين هذه المجموعات في أميركا وما تمارسه من طقوس وتقاليد وبين المراجع الإسلامية في الشرق، وبصورة خاصة في الأزهر والمملكة العربية السعودية، إلى أن شاء الله عز وجل بزيارة رجل من أولئك الرجال الذين تحملوا مسؤولية جانب أساسي من هذه الحركة وهو السيد مالكولم إكس Malcolm X الذي قدم للحج، وساهمت رحلته هذه في تصحيح مفاهيمه إلى حد كبير. ولكن ردة الفعل التي واجهته بعد عودته إلى أميركا أثرت بصورة كبيرة على إيجاد مجموعة من المشاكل وفي مقدمتها اتهامه بالتمرد والخروج على تقاليد ومبادىء الجماعة في ذلك الوقت. ونشأت كذلك مجموعة من المخاوف من أنه أصبح يبني الحركة على أنقاض حركة الأيجا محمد Elijah Muhammad.

ولد مالكولم إكس (مالكولم ليتل) في مدينة أوماها بولاية نبراسكا في عام ١٩٢٥ في فترة كان السود يعانون فيها من التفرقة العنصرية في جميع أنحاء الولايات المتحدة الأميركية. وقد عانى مالكولم إكس صنوفا مختلفة من تلك الممارسات العنصرية؛ من طرد لأسرته من منزلها وحرق المنزل ثم قتل والده ووضع

والدته في مستشفى للمجانين. ولقد دفعت تلك الأحداث مالكولم إكس إلى طريق الإجرام، وأدت إلى دخوله السجن. وفي آخر المطاف حكم عليه في قضية بثماني سنوات، بينما حكم على اثنتين من النساء البيض بالسجن مع وقف التنفيذ مع أنهما كانتا مشتركتين معه في نفس القضية التي أدت به إلى السجن. وكان هذا التصرف أيضا من العوامل الرئيسية التي دفعت مالكولم إلى محاربة الدين واستمراره في إثارة المشاكل لكل من حوله.

بدأ التحول الكبير في حياة مالكولم إكس وهو في السجن عندما تعرف على مبادىء الدعوة التي يدعو إليها الإيجا محمد والمسماة بـ «أمة الإسلام Nation of Islam ». وقد تعرف على تفاصيل هذه الدعوة من رسائل إخوته التي كانت تصله إلى السجن، وكانوا قد سبقوه للدخول فيها.

كتب مالكولم إلى إلايجا. وبذلك اعتنق دعوة «أمة الإسلام» في بداية سنة ١٩٤٩. وكان قبلها قد انكب على كل ما وصلت إليه يده من كتب عن تلك الدعوة، ثم استمر بعدها في الدرس والتحصيل. وقد صقلت هذه العملية موهبته في الجدل والحوار، ثم تطورت إلى مناظرات كان يقوم بها في السجن، بالإضافة إلى حرصه على تدريب نفسه على فن الخطابة وممارسته الفعلية لها من خلال الخطب التي كان يلقيها على السجناء السود ودعوته لهم باتباع دعوة «أمة الإسلام».

خرج مالكولم إكس من السجن عام ١٩٥٢، وحرص بعد خروجه مباشرة على مقابلة إلايجا محمد حيث رحب به ولمس فيه الحماسة والذكاء. ثم قام بتغيير اسم العبودية لأسرته «ليتل Little»، واختار حرف «إكس X» رمزا إلى ضياع إسمه الأفريقي الحقيقي. وسرعان ما بدأ إلايجا يوكل لمالكولم مهمات مختلفة ومسؤوليات كبيرة، كما عهد إليه بإنشاء معابد جماعة «أمة الإسلام» في مدن كثيرة لتوسيع نطاق الدعوة.

وكان للموهبة التي يتمتع بها في الحوار والمجادلة والقدرة على الدفع بالحجة دور كبير في ازدياد شعبية «أمة الإسلام» بين السود، فتحولت إلى حركة جماهيرية واسعة النطاق، وأصبحت «أمة الإسلام» معروفة في عموم أميركا بعد تلك الحلقات التلفزيونية التي عرضت في عام ١٩٥٩. وفي نفس العام اشتهر مالكولم أكثر من إلايجا محمد نتيجة لمقدرته ومواهبه الخطابية، كما ذكرت، ولتمسكه بالحق، بالإضافة لظهوره المتكرر في وسائل الإعلام، مما أثار بعض المشاكل بينه وبين إلايجا محمد، وخصوصا بعد أن بلغته أنباء عن تورط إلايجا في علاقات غير مشروعة مع بعض النساء، وهذه تضعف الحجة التي يدفع بها في محاضراته وتسيىء إلى المبادىء التي يدعو إليها، فقادت هذه المشاكل في نهاية المطاف إلى إيقاف مالكولم عن

جميع النشاطات التي يقوم بها باسم «أمة الإسلام».

دامت هذه الحال ثلاثة شهور ثم أعلن بعدها انفصاله عن حركة إلايجا محمد، وأنشأ منظمة «المسجد المسلم» مالبث بعدها أن أعلن عزمه على الحج. ويعتبر حج مالكولم إكس نقطة تحول مهمة جدا في حياته وفي حركة انتشار الإسلام في أميركا.

رأى مالكولم أن يبدأ مسيرته الجديدة بالحج أولا إلى بيت الله الحرام، سيما أنه كمسلم كان يأمل منذ وقت طويل أن تتاح له تلك الأمنية الغالية ولكن لم تتيسر له الظروف من قبل، أما الآن فلا شيء يحول بينه وبين أمنيته.

بمساعدة البروفسور محمود الشواربي -رحمه الله- أستاذ الكيمياء بجامعة القاهرة والذي كان منتدبا في ذلك الحين لإدارة المركز الإسلامي في مدينة نيويورك، استطاع الحصول على تأشيرة حج لدخول الأراضي المقدسة، واستلم من الدكتور الشواربي نسخة من كتاب «الرسالة الخالدة» الذي كان قد ترجم ونشر لتوه في نيويورك، إهداء من مؤلفه الدكتور عمر عزام -رحمه الله- الذي كان على معرفة بمالكولم من خلال متابعته لنشاطه في الصحف. ولم ينس الدكتور الشواربي أن يزود مالكولم برقم هاتف الدكتور عزام ليتصل به مالكولم عند وصوله إلى جدة.

أحرم مالكولم في القاهرة، ووصل إلى مطار القاهرة.. وهذا لسان حاله يقول:

«إن كل واحد من آلاف الحجاج الذين على وشك المغادرة إلى جدة يلبس نفس الزي. قد تكون ملكا أو فلاحا ولا يعرفك أحد. أشاروا لي إلى بعض الشخصيات الهامة فوجدتها ترتدي نفس لباسي. وبمجرد ارتداء لباس الإحرام بدأنا جميعا نردد من فينة لأخرى: «لبيك اللهم لبيك»، وبدأ المطار ينغم بأصوات المحرمين معلنين نيتهم أداء فريضة الحج.

كانت طائرات الحجيج تقلع كل بضع دقائق، والمطار يعج بالمزيد منهم ومن أقربائهم وأصدقائهم الذين أتوا لوداعهم. ومن لم يستطع الحج منهم كان يطلب من الحجاج أن يدعوا له في مكة.

صعدنا إلى الطائرة. كانت الطائرة مكتظة بالبيض والسود والسمر والحمر والصفر. عيون زرقاء وشعور شقراء مع شعري الأحمر المفتل. كلنا معا إخوة. كلنا نعبد نفس الإله: الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء»

هذا الشعور وهذا الإحساس الذي بدأ يشعر به مالكولم وهو يلبي مع إخوانه في الطائرة المصرية المتجهة إلى جدة: «لبيك اللهم لبيك». كان هو بداية الزلزال النفسي الذي واجهه في الأرض المقدسة حيث أن تجربته في أميركا لم تقنعه أن كل الناس باختلاف ألوانهم يمكن أن يعبدوا نفس الإله، ماذا كانت إذن تجربته؟ يقول مالكولم في ذلك مخاطبا قومه:

«أترون دموعي أيها الإخوة والأخوات؟ لم تدمع عيناي منذ كنت طفلا. إنني لا أتمالك نفسي من ثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي لكي أوضح للمرة الأولى ما فعلته بنا ديانة الرجل الأبيض التي نسميها المسيحية.

أيها الإخوة والأخوات: لقد علمنا الرجل الأبيض أن نتطلع إلى يسوع أشقر الشعر، أزرق العينين. إننا نعبد يسوعا لا يشبهنا في شيء.. نعم .. نعم إخوتي! صبرا.. لقد علمنا الرجل الأبيض أن نعبد إلها أبيض، إلها غريبا عنا ذا شعر أشقر ولون شاحب وعيون زرق مثل شعر ولون وعيون السيد الأبيض، وأن نصرخ ونغني ونصلي حتى الموت لتتحقق أحلامنا في جنة آخرة عندما نكون موتى بينما هذا الرجل الأبيض يلعق العسل واللبن في جنة شوارعها مرصوفة بالدولارات الذهبية في هذا العالم».

وحيث أن السود لم يقبلوا في كنائس البيض ليعبدوا ذلك الإله الأبيض المصبوغ على هيئتهم فقد جعلهم ذلك يتساءلون: أليس هناك ديانة خاصة بالرجل الأسود؟ يقول مالكولم مخاطبا قومه:

«أيها الاخوة والأخوات أرجو ألا يصدمكم هذا! أعلم انكم لم تتوقعوا مثل هذا الحديث. لم يفكر أحد منا من قبل ذلك، أيها الاخوة والأخوات إنه ربما تكون هناك ديانة خاصة بنا، ديانة الرجل الأسود. إننا نخطىء إذا لم نسأل أنفسنا مثل هذا السؤال. نعم هناك دين خاص بنا اسمه الإسلام.

ذلك الدين الذي اعتنقه مالكولم إكس وهو في السجن -كما ذكرت- عام ١٩٤٨ على أساس أنه ديانة الرجل الأسود (غير البيض)، وظل يبشر به لإثني عشر عاما بعد خروجه من السجن وانضمامه لجماعة «أمة الإسلام» بقيادة إلايجا محمد.

ما أن انتشر الخبر في الطائرة عن الأميركي المسلم الذي في طريقه إلى الحج حتى بدأت الوجوه تتجه نحو مالكولم ؛ تغشاها تحية وابتسامة. وكم كانت فرحة مالكولم عندما حضر إليه قبطان الطائرة المصري ليعبر له عن سعادته بلقاء أميركي مسلم وليدعوه إلى مقصورة قيادة الطائرة: " كانت بشرة مساعد القبطان أكثر سمرة من القبطان. لا أستطيع أن أصف لك ماغمرني به ذلك من شعور حيث أنني لم أر من قبل شخصا أسود يقود طائرة نفاثة. كلا الطيارين كانا يبتسمان لي ويعاملانني بنفس الإحترام والتقدير الذي حظيت به منذ غادرت أميركا. في أميركا ركبت الطائرات، ربما أكثر من أي أسود آخر، ولم يحدث أن دعاني أحد إلى مقصورة قيادة الطائرة». رجع مالكولم إلى مقعده وعاود التلبية: «لبيك اللهم لبيك...».

حطت الطائرة في الساعات الأولى من صباح يوم الجمعة في مطار جدة، ونزل مالكولم مع مجموعته ليرى ويسمع آلاف الحجيج تردد: «لبيك اللهم لبيك». وشق

مالكولم طريقه بصعوبة مع مجموعته نحو مكتب الجوازات، وبدأ يشعر بالقلق عندما وقف في الصف ينتظر دوره ليقدم جواز سفره للفحص. بدأ يتساءل: «أنظر ماذا أنا مقدم لهم. إنني هنا في قلب العالم الإسلامي عند المنبع، وأنا أقدم لهم جواز السفر الأميركي الذي يرمز إلى ما نقيض ما يدعو إليه الإسلام».

لم يقتنع ضابط الجوازات بما قدمه له مالكولم من جواز سفره الأميركي وخطاب محمود الشواربي، وأشار عليه بأن يقابل المحكمة الشرعية التي تنظر في حال المسلمين الجدد لتقرر إن كان يمكنه الدخول للأراضي المقدسة المحرمة على غير المسلمين. ولم تجد توسلات رفقائه الحجاج، فاضطروا للافتراق عنه وهم يعدونه بأنهم سيدعون له عند كل صلاة. وينظر مالكولم إلى قلقهم عليه فيحثهم بأن عليهم أن لا يحزنوا لأن الله سيهديه. وتحت إلحاح مطوفهم بالإسراع ابتعد عنه رفقاؤه وهم في طريقهم إلى مكة ملوحين لمالكولم بأيديهم.

كانت الأيام القليلة التي قضاها مالكولم في مدينة الحجاج ليس معه أحد يعرفه أو يتمكن من الحديث معه امتحانا عسيرا له اكتشف مالكولم من خلال تلك الأيام كيف أن التعاليم التي لقنها له زعيمه إلايجا محمد تناقض تعاليم الكتاب والسنة وجمهور المسلمين في الركن الثاني من أركان الإسلام: الصلاة.

بدأ مالكولم وكل العيون تراقبه يواجه جهله السابق بشجاعة ليتعلم ويتمرن على عبادات الركن الثاني من وضوء وقراءة للقرآن وقيام وركوع وسجود وتشهد. ولم يتورع وهو من أبرز القادة في بلده أن يتعلم من شاب حديث السن لا يستطيع أن يتخاطب معه بلغته ولكنه أوسع منه علما فيما هو يتعلم منه.

نادى الضابط المسؤول مساعد أحد المطوفين وطلب منه أن يأخذ مالكولم إلى المسكن في مدينة الحجاج (في المطار القديم). حاول مالكولم أن يحتج على حجز جوازه من قبل سلطات الجوازات لعلمه أن أول قانون يجب أن يراعيه المسافر ألا يفترق أبدا عن جواز سفره إلا أنه أمسك لسانه مضطرا. وبينما كان مالكولم ودليله في طريقهما إلى مبنى سكن الحجاج في المطار كان مالكولم في ذهول مما يراه لأول مرة: «كان الوقت قبل الفجر بقليل، والجو يشوبه بعض الظلام، والطائرات تهبط وتقلع بانتظام كاسحة بأنوارها الكاشفة مدرجات المطار هبوطا أو مومضة السماء بأنوار أجنحتها وذيلها إقلاعا، حجيج من غانا وأندونيسيا واليابان وروسيا يتحركون ذهابا وإيابا في المبنى الذي أتيت إليه. لا أصدق أن آلات التصوير السينمائي قد صورت أبدا منظرا بشريا أروع مما كانت تشاهده عيناي. وصلنا المبنى، وبدأنا الصعود إلى أعلاه في الدور الرابع مرورا بكل جنس ولون على الأرض: صينيين، أندونيسيين، أفغان. إن البعض لم يحرموا بعد ولم يزالوا بأزيائهم القومية.

كان المنظر وكأنه صفحات «المجلة الجغرافية الوطنية National Geographic».

أدخل مساعد المطوف مالكولم إلى الغرفة التي سيبقى فيها، وكان بها نحو خمسة عشر شخصا معظمهم رقود على سجاد افترشوه أرضا. بعد أن جلس مالكولم في أحد أركان الغرفة أشار عليه دليله بأنه سيريه التأدية الصحيحة للصلاة فبدأ مالكولم -والكل ينظر إليه- يتعلم قواعد الركوع والسجود والجلوس متشهدا وهو يذكر نفسه بجهله وقادة منظمته السابقة بتعاليم ركن الإسلام الثاني: «تصور إماما وقائدا في منظمة إلايجا محمد «أمة الإسلام» لا يعرف كيفية تأدية الصلاة. ولم يكن من السهل عليه إتقان الصلاة حيث أنه لم يكن بإمكان رسغيْ قدميَ الغربيين أن يؤديا ما أدته رسغا المسلمين طول حياتهم». ولكن لم يمنعه ذلك ولا نظرات الآخرين إلى منظره الغريب من أن يواصل تمارين أداء الصلاة من ركوع وسجود وجلوس حتى تعلمها بعد أن تورمت رسغاه. ولكن حقيقة الصراع في نفس مالكولم كان في اكتشاف الكثير من الزيف الذي كان يعتقد فيه أنه من الإسلام ليجد أن الإسلام والمسلمين منه براء ومن ذلك عبادة الصلاة كما عرفها ولقنها له إلايجا محمد مقارنة بما اكتشفه هو بنفسه.

بالرغم من اعتقاد إلايجا محمد بأن الصلاة فريضة واجبة في الإسلام وأنها صلوات خمس في اليوم إلا أنها لم تكن تقام على ما جاء في الكتاب والسنة، فهيئة الصلاة عند إلايجا هي برفع اليدين وقراءة الفاتحة أو آيات من القرآن أو دعاء مأثور. فإلايجا يزعم أن الصلاة ترتيل مع الوقوف منتصبا موليا الوجه نحو الشرق رافعا اليدين معلنا التوجه نحو خالق السموات والأرض. ويدعي إلايجا محمد أن هذه الصلاة خاصة بمن يسمون بالزنوج الذين فقدوا معرفتهم بإلاههم وأمتهم ويريدون العودة لدينهم وأمتهم وأعظم ما في الأمر أن عبادة الصلاة عند إلايجا محمد توجهه إلى والي فارد أو والاس فارد الذي يزعم إلايجا أن الله تجسد فيه (تعالى الله عن ذلك). وتلك الصلاة ما هي إلا الشكر والثناء لفارد لأنه جعلهم مسلمين عارفين بالله.

لم ينتظر مالكولم طويلا في مدينة الحجاج حتى أفرج عنه الدكتور عمر عزام وجعلهم يعيدون إليه جواز سفره. وظل مالكولم يربط حركات وأفعال وأقوال المسلمين الذين يشاهدهم بحياته في أميركا -مقارنة وقياسا- بتجاربه وحياته في أيام جاهليته في عالم البيض وفي «أمة الإسلام». ومن الأشياء التي استرعت نظر مالكولم الدور الذي تؤديه سجادة الصلاة في حياة المسلمين. شاهد أن لكل فرد سجادة صغيرة للصلاة ولكل رجل وزوجته أو مجموعة أكبر سجادة جماعية أكبر. وعند قيامهم للصلاة يصلي المسلمون على السجادة. وعند ذهابه إلى مكة والشعائر المقدسة مر بآلاف الحجيج يسمعهم يتمتمون بلغات مختلفة إلا الإنجليزية. وغضب

من نفسه لعدم تمكنه من تعلم عبادة الصلاة باللغة العربية حيث أنهم في منظمة إلايجا محمد «أمة الإسلام» لم يكونوا يصلون باللغة العربية.

دهش مالكولم وأعجب كثيرا بمنظر المسلمين من جميع العناصر والجنسيات مختلطين جميعا دون أي تمييز وهم يطوفون حول بيت الله الحرام. وتأكد له أن الدعوة التي ينادي لها إلايجا محمد باطلة، ورأى الإسلام الأصلي على حقيقته، وعقد العزم على نشر الإسلام الحقيقي عند عودته إلى أميركا، وقام بتغيير اسمه مرة أخرى إلى «الحاج مالك الشباز».

بعد عودته إلى أميركا قام مالكولم بجولة أخرى في بلاد الإسلام وأفريقيا إذ التقى بالرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر وبالعديد من الزعماء الأفارقة وعلماء المسلمين، وبلغت شهرته وسمعته إلى درجة أن الكثيرين ولاسيما من السود الذين كانوا يتوقعون أنه سيصبح الرئيس الفعلي للحركة القومية للسود بعد أن حرر نفسه من التبعية لالايجا محمد، ولكنه لم تكن له بعد، ذلك الحين، أية منظمة ذات وزن، كما أن خلافاته مع الايجا محمد كانت قد تفاقمت إلى درجة تبادل التهم الشديدة اللهجة والتهديدات الخطيرة بين الطرفين. وبعد فترة قصيرة (شباط/فبراير ١٩٦٥) اغتيل الحاج مالك الشباز (مالكولم إكس سابقا) في نيويورك في ظروف تتسم بشيء من الغموض، مع أن الكثيرين يظنون أن بعضا من أتباع حركة ألايجا محمد نفذوا اغتياله.

كان مالكولم إكس، كما يعتبره الكثير من المؤرخين، أهم مسلم أميركي ظهر حتى الآن. ولولا اعتناقه الإسلام الصحيح بعد حجه لم يكن الاسلام لينتشر بين الأميركيين بهذا الشكل الواسع والسريع.

والحقيقة أن هناك رجلا آخر ساهمت زيارته لديار الإسلام ودراسته بها في التأثير على مجرى الحركة الاسلامية هناك. ولقد زرته واجتمعت به، وهو وارث الدين محمدWarith Deen Muhammad الذي خلف والده الايجا في زعامة هذه المنظمة. وقد لاحظت جدية الرجل وإخلاصه وصدق توجهه، وأخذنا في التعاون معه. وكان لأخي الدكتور عبدالله نصيف الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي سابقا فضل تعريفي به وربطنا بجماعته الذين يعتبرون من المجموعات الملتزمة بالإسلام الفرحين المعتزين باسلامهم.

وقد حملت أم وارث الدين به في حياة «فارد Fard» المؤسس الأول للمنظمة. وكتب فارد على باب منزل الايجا محمد اسم والس Wallace كنبوءة بأن الأم الحبلى ستضع ولدا ذكرا يسمى على اسمه فارد والس Fard Wallace. بل إن فارد أخبر الايجا ان ابنه الذي لا يزال جنينا في بطن امه هو الذي سيخلفه في قيادة

المنظمة بعد موته. وكان لهذه النبوءة وتحقيقها أثر كبير في تذليل العقبات أمام وارث الدين ليعتلي عرش المنظمة بعد وفاة أبيه الايجا. وبسبب نبوءة فارد هذه أولاه والده عناية خاصة ورباه تربية تؤهله لان يكون الخليفة بعده. ويقول وارث الدين في ذلك: «وقد اعتنى بي والدي. وكان ذلك ضروريا ليس فقط بسبب تلك الكلمات المقدسة (يعني نبوءة فارد) بل إن كل أبناءالزعماء الروحيين الذين اختيروا ليلعبوا دورا هاما وليتحملوا مسؤوليات كبيرة ليس لأنهم منحوا ولادة مقدسة ولكن لأنهم منحوا أشخاصا أكفاء يهتمون بتطويرهم وتطورهم الديني والعقيدي بصفة خاصة».

لذلك لم يكن من الغريب أن يختاره والده مرافقا له في رحلته التي قام بها إلى الشرق الأوسط سنة ١٩٥٩، كما لم يكن غريبا أن يسند إليه القيام بدور المترجم له في أثناء تلك الرحلة. فلقد اهتم والده بتعليمه اللغة العربية والقرآن الكريم فضلا عن تعليمه حتى المرحلة الثانوية بالمدارس التابعة للمنظمة.

ومما سهل على وارث الدين تخطي عقبات الخلافة أن والده عينه إماما لمسجد شيكاغو وهو المنصب الذي كان يشغله الايجا نفسه، مما يدل على نوع من الترشيح له بالخلافة. كذلك ولعله من حسن حظه أن حصرت الخلافة في أبناء الايجا دون غيرهم من أقطاب المنظمة البارزين، ولكن لم يكن من بين أبناء الايجا من يضارع وارث الدين علما أومعرفة وحنكة، ويقول عنه أخوه ثائيل: «إننا ننظر إلى «ولاس محمد» على أنه متفوق في معلوماته دون بقية الأئمة وأنه الأصلح للاخذ بيد أفراد المنظمة إلى ما هو أعمق في تعاليم إلايجا محمد».

كل هذه العوامل ساعدت الإمام وارث الدين في خلافة والده. ولا شك ان اختياره هذا كان فاتحة عهد جديد تم فيه اعتراف المسلمين جميعا وفي كافة أنحاء المعمورة عامة باسلامية المنظمة التي يتزعمها، الأمر الذي كان مستحيلا لو انتخب خليفة آخر سار على مبادىء الايجا المخالفة للإسلام تماما.

ومما شجع وارث الدين محمد على التوسع في الدراسات الإسلامية دخوله السجن عدة مرات فقد ذكر أنه كان ينكب داخل السجن على الدراسات الإسلامية وقراءة القرآن الكريم. ومما قوى إيمانه بالقرآن الكريم دراسته أيضا للإنجيل الحاضر، وبالمقارنة بين القرآن والإنجيل تبين له الفارق الضخم بين هذين الكتابين.

ومن المفارقات التي تدعو إلى التساؤل أن والده أعطاه الحرية التامة فيما يدرسه عندما قبل انضمامه إلى المنظمة في سنة ١٩٧٤ وعينه إماما لمسجد شيكاغو التي كانت تعتبر محجة لأتباع الايجا وتعاليمه.

ويقول وارث الدين: «كنت أدرس أشياء أعلم أنها مخالفة لما كان يتعلمه الأتباع عن الايجا. ولم يحدث أن استدعاني والدي ليسائلني عن أي شيء قلته مما

قد يثير مشاكل لما فيه من مخالفة لتعاليمه. ولقد أرسل رجال الحرس السري «ثمرة الإسلام» شريطا مسجلا بما أقوله مما يخالف تعاليمه فلم يستمع إلي هذا الشريط المسجل إلا بعد أن استدعاني. وعند حضوري أدار الشريط ثم قفز من مقعده وقال في استحسان بالغ: «لا فض فوك يا بني». وكان ضابط الحرس السري وزوجته جالسين حول المنضدة فقال لهم: «إن في استطاعة ابني أن يذهب إلى أي مكان على الأرض ويعظ الناس بما يشاء». ولعل هذا مما ساعد أيضا على اختياره خليفة لوالده.

لقد خلف الايجا محمد بعد وفاته تركة من الايديولوجيات المتضاربة والخرافات التي تتنافى مع مباىء الإسلام وتنوء عن حملها الجبال. وأصبحت جزءا لا يتجزأ من نفسية كل عضو في «أمة الإسلام». وكانت هذه نقطة الاختلاف بين وارث الدين ووالده الايجا أثناء حياته والتي أدت إلى انشقاقه عنه في عام ١٩٦٤، وظل بعيدا عن والده منهجا وروحا وجسدا، وباءت كل محاولاته التي قام بها للإصلاح بالفشل، وشعر بأن الإصلاح من الخارج مستحيل وأن عليه العودة لمحاولة الإصلاح من الداخل. ولكن شاءت الأقدار أن يتوفى الايجا محمد بعد خمسة أشهر فقط من انضمامه إليه ليجد بين يديه تركة مثقلة إذ أن المطلوب من أي خليفة للايجا أن يسير على نفس المنهج الذي كان يسير عليه بل يعمقه ويعمل على نشره وهو يعلم أنه كان منهجا مخالفا لتعاليم الاسلام. ولو حاول أن يقودهم إلى المنهج الصحيح فكيف يمكن أن يتفهمه ويستسيغه أتباع والده وهو لم يخلف إلا لتعهد هذه المبادىء ورعايتها وحمايتها والدعوة إليها، وإن خالفها فإن أعضاء الأسرة سيكونون له بالمرصاد، كذلك منافسوه بخارج المنظمة من المنتفعين بها في عهد والده سيشنون عليه حربا لا قبل له بها وسيقومون بعزله من الزعامة التي أراد أن يتخذ منها وسيلة لتغيير الأوضاع والسير بالمنظمة على صراط الله العزيز الحميد ولكنه استطاع تجاوز تلك العقبة وعمل بما لم يستطع أن يصرح به.

كان الايجا يعتبر مجرد اختلاط السود بالبيض لعنة الحركة. وكان يسمي مجرد الاختلاط «أفيون المجتمع الأسود». هذا مجرد الاختلاط فكيف بالمساواة. ولما كانت المساواة تامة بين كافة الأجناس في الإسلام فقد جعل وارث الدين باب العضوية في المنظمة مفتوحا للجميع بمن في ذلك البيض. وبطبيعة الحال صحب كل ذلك العودة بأركان الإسلام إلى وضعها الصحيح. والغريب أن كل ذلك تم بصورة تكاد تكون فورية. وبسرعة ما كان ينتظر لها النجاح الذي أحرزته.. في عام ١٩٧٥ العام الذي استولى فيه على مقاليد الزعامة جعل الصوم في شهر رمضان، وكان والده يفرضه في ديسمبر من كل عام. وفي نفس العام أعاد الصلاة المفروضة والنفلية إلى هيئتها المعروفة لدى المسلمين. وكان والده قد مسخها وجعلها مجرد تلاوة لآيات

القرآن الكريم ودعاء مأثور خمس مرات في اليوم مستقبلين مكة المكرمة.

غير أن أخطر رد فعل واجهه وارث الدين محمد هو انفصال لويس فرخان Louis Farrakhan عن المنظمة في سنة ١٩٧٧، أي بعد أكثر من سنتين من خلافته واتباع فئات من السود له. وتصف صحيفة The Chicago Report انفصال فرخان هذا بأنه كان ضربة مريرة فقد كان فرخان من أقطاب المنظمة في عهد الايجا، بل لقد كان الناطق باسمها آنذاك، فقد أحيا منظمة ألايجا من جديد، وبدأ يسير على نهج ألايجا حيث لم يعجبه النهج الذي يسير الإمام وارث الدين. ولقد نجح فرخان، حتى إن عدد أتباعه بلغ عشرة آلاف، مما أضرم الجو بين أتباع كل من الزعيمين.

ولدرء وقوع صدام بين الفئتين، وخوفا من تفاقم الخلاف، اتفق الزعيمان على إصدار بيان في عام ١٩٨٣ يحثان فيه أتباعهما على نبذ المنازعات، وأظهرا فيه رغبتهما في أن يعيش الفريقان في سلام، حرصا منهما على حماية المسلمين ومكانة الإسلام. ثم اجتمعا في اكتوبر (ت ١) سنة ١٩٨٦، وأعلن الإمام وارث الدين نبأ هذا الإجتماع في بيان أذاعه في صحيفة البلاليين الرسمية حيث قال: «لقد أعلن السيد فرخان عن رغبته في أن يسير أتباعه على النهج الاسلامي الصحيح. وهذا مما يفتح الطريق بيننا للسير قدما في هذا المضمار». كما أدلى لويس فرخان بتصريح مماثل في نفس التاريخ.

ولكن هناك بعض أشياء تدل على أن فرخان مازال مرتبطا ببعض تعاليم وفلسفات الايجا، فالجريدة الناطقة باسمه وباسم دعوته ما زالت تنشر بعض الأفكار الموروثة من عهد الايجا. وقد واجهته أنا والدكتور عبدالله نصيف وبعض الإخوان بهذه المسألة عنا اجتماعنا في المملكة في عام ١٩٩٠ بصحبة مجموعة من العلماء وكبار رجال الدعوة، وناقشناه نقاشا صريحا سجلناه في شريط، فالرجل قد تبرأ من كل ما نسب إليه مما يخالف الإسلام عقيدة وشريعة ومنهجا، وذكر بوجود مساعدة السيد ليونارد أنه يحرص على التدرج في تنفيذ الإصلاحات على عكس الإمام وارث الدين. ولا شك أنه سيأتي اليوم الذي تختفي فيه كل هذه الضلالات التي تنشر في جريدته على الرغم من عدم إيمانه بها فيما ذكر لنا.

وهكذا وضع الإمام وارث الدين محمد المنظمة على النهج الاسلامي الصحيح، حتى إن المحافل الاسلامية في كافة أرجاء العالم الاسلامي اعترفت بها. وقد ذهبت إلى مقر الإمام وارث الدين، واجتمعت بالمسلمين هناك، وصليت معهم الجمعة، وأشهد أن كل ما يقوم به يسير وفق الشريعة الاسلامية السمحاء، وأنه رجل ورع ومتواضع يدعو إلى سبيل الله بحكمة وروية ويؤمن بالحوار.

وفي الختام لابد أن نعترف بأن هذين الرجلين لعبا دورا مهما في حركة المسلمين

السـود، فالأول لو قدر له البقاء لكان من الممكن أن يكون له تأثير كبير في تصحيح مسـار حـركـة المسلمين من أصل أفريقي . لقـد عاد وهو أكـثـر إدراكا وعلى وعي بمفاهيم الاسلام الصحيح. وكان من الممكن أن تـساهم قدراته ومركـزه وفعالياته في تصحيح التوجهات لهذه المجموعة. ولكن مخاوف الرجال الذين أحاطوا به من تفرده بمركز قد يؤدي إلى سحب البسـاط من تحت أقدامهم وضياع القيادة دفعتهم للتخطيط لتلك الكارثة التي أودت بحياته، وإن كـانت هناك إشارات خفية إلى أن بـعض أصـابع الكنيسة والسياسة في أميركا قد تكون مهدت إلى قتل الرجل وخروجه من السـاحة. وكان ذلك خسـارة حقيقية في مجال تصحيح حركة المسلمين السـود هناك.

أمـا الرجل الثـاني وارث الدين محـمـد فـلا شك أن بناءه العلمي وثقافتـه عن الاسـلام أفضل بكثير من مالكولم إكس وثقته بنفسه كبيرة. والدور الذي يحـرص على أن يقـوم به دور واضح في ذهنه، ولكنه يحتـاج إلى دعم سيـاسي ومـادي حتى يستطيع أن يلعب دورا أكـثـر فـعـاليـة في هذا الإتجاه. ومما يميزه أنه يسـيـر بهـدوء وبواقعية، ويحترم الحوار كما ذكـرت، ويسـعى إلى استيعاب الخلافات الموجودة على السـاحة، غير أن هذا لا يكفي للمرحلة المقبلة التي قد تحتاج منه إلى صرامة وقوة واستيعاب لأبعاد المرحلة الحاضرة والمتطلبات المستقبلية وإمكانات تساعد على لعب هذا الدور االهام في المرحلة القادمة.

تبقى هناك قضية أخرى تتلخص في سؤال ظل يؤرقني كثيرا. وقد حاولت الإجابة عليه فلم أستطع. وأرجو أن أتمكن إن شاء الله في المسـتقبل من دراسته بصورة أوسع، فـالمعلومـات تنقـصني في هذا المجال. ولا بـد من جولات أخـرى بين هؤلاء الأشـقـاء لمحاولة الإجابة على هذا السـؤال وهو: إلى أي مدى سيظل الإنسـان الأميركي الأفريقي الأصل معتزا بارتباطه بالإسلام كقضية عرقية وقضية انتماء واعتزاز وأصول وتاريخ، بعد أن أصبح المجتمع الأميركي مفتوحا أمامه، ويوفر له كل هذه الإنتماءات بعد أن كان يرفضه في السابق ويعتبره من طبقة محتقرة مرفوضة.

هذا هو السـؤال الذي أحاول أن أجيب عليه، فالطفل الأميركي من طائفة المسلمين السـود أو ما يسمى اليوم بالمسلمين من أصل أفريقي ينشأ وهو أكثر انتمـاء لأميركا كوطن بعد أن كـان يفتقد هذا الإنتمـاء في السـابق ويبحث عنه من خلال انتمائه للإسـلام كـقيم تعوض ذلك الحرمـان الذي كـان يعاني منه. أمـا اليوم وقـد توفـر له الإنتماء، فهل سيظل مرتبطا بالإسلام كدين، وهل سيظل نصيرا لقضاياه العادلة في العالم؟

هل مـا تزال الاستراتيجية السـابقة التي اتبعتها جمـاعات المسلمين السـود في أميركا -أو جماعات الدعوة الإسلامية في الشرق التي حاولت أن تدعم هذه الجماعة

لتأكيد ارتباطها بالإسلام وإعانتها في الحفاظ على عقيدتها- صالحة لتحقيق هذه الأهداف أم انها في حاجة إلى تغيير جذري أو جزئي؟ إن الطفل الأميركي المسلم الأسود يدخل إلى المدارس الحكومية ويتعلم فيها المنهج الوطني الأميركي ويتلقى دروسا ترسخ في أعماقه الإنتماء الأميركي، وإذا تخرج من المدرسة وجد الجامعة مفتوحة أمامه وفرص العمل متوفرة. وبهذا أصبح أكثر انتماء إلى هذا الوطن الذي يعيش فيه، وهو أمر طبيعي، فمن الصعب أن يلتفت أو يبحث عن انتماء آخر خصوصا إذا أخذنا في الإعتبار ضعف المصادر المتوفرة لترسيخ الإنتماء الديني أو الارتباط بالاسلام كعقيدة. ثم إن أكثر الرجال والنساء الذين كانوا ملتفين حول حركة المسلمين السود قد انفضوا من حولها نظرا لتغير الظروف التي أحاطت بهم وما طرأ من تحول على حياتهم المعيشية.. أضف إلى ذلك الدور النشط الذي تقوم به الكنائس في أميركا وغياب الجهود الجادة والفاعلة للدعوة الإسلامية.. أللهم إلا من زيارات عابرة أو كتب لا تسمن ولا تغني من جوع.

محمد عبده يماني

* **الدكتور محمد عبده يماني** استاذ «اقتصاديات المعادن والجيولوجيا الإقتصادية» في كلية علوم الأرض بجامعة الملك عبدالعزيز. حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كورنيل، وكان مديرا لجامعة الملك عبدالعزيز. ومن اهتماماته الأساسية قضايا الأقليات المسلمة في العالم. وله اكثر من ثلاثين كتابا منشورا بالعربية والإنكليزية وفي حقول موسوعية متعددة من المعرفة الإنسانية بدءا من فيزياء الكون والجيولوجيا الإقتصادية وانتهاء بقضايا الأقليات المسلمة في العالم. من كتبه المنشورة حديثا «أفريقيا لماذا - لا تضيعوا أفريقيا كما ضاعت الأندلس» و « مسلمو آسيا الوسطى بين محنة الإنفتاح وتحديات المستقبل» و «الأقليات الإسلامية قضية عاجلة».

اليهود الذين يديرون
بلاط كلينتون

قبل عدة أسابيع، خصص حاخام كنيس «عداث (ملة) إسرائيل» في «كليفلاند پارك» بواشنطن، موعظة السبت للحديث عن «المركز الثقافي السياسي اليهودي» الذي تأسس الآن في أميركا. قال الحاخام في موعظته: إننا لم نعد نشعر، ولأول مرة في التاريخ الأميركي، بأننا نعيش في الشتات، إذ لم تعد الولايات المتحدة دولة يحكمها «الغوييم *goyim*» <غير اليهود، وهو إسم يطلق تحقيرا>، بل صار فيها إدارة يشارك فيها اليهود في صنع قرارها مشاركة كاملة وعلى كل المستويات. ولربما أنه صار من اللازم إعادة النظرفيما تقوله «الشريعة الدينية اليهودية» عن «حكومة الغوييم»[1]، بعد أن عفى الزمن على هذا الإصطلاح في الولايات المتحدة.

وفعلا، فإن بيل كلينتون أحدث تغييرا حقيقيا في العلاقة بين الإدارة الأميركية وبين اليهود بعد أن أجرى سلسلة من التغييرات التي عززت السلطة اليهودية، وهي عملية بدأت مع الرئيس ريغان ووزير خارجيته شولتز. صحيح أن التأثير السياسي اليهودي كان بينا في الولايات المتحدة في العقود السابق، فقد شهدنا وزير خارجية يهوديا هو هنري كيسنجر الذي كان يتمتع بالثقة الكاملة للرئيس ريتشارد نيكسون. كذلك كان هناك وزراء يهود في عهد كارتر لكن ذلك كان استثناء ومحكا لتجربة الحكم، خاصة وأن اليهود المتدينين قلما أوكلت إليهم مناصب سياسية على علاقة بالشرق الأوسط.

لكن الصورة تغيرت تماما الآن بالنسبة للشرق الأوسط وغير الشرق الأوسط. فعلى سبيل المثال: تنطلق في السادسة من صباح كل يوم عدة سيارات من مركز السي آي إيه CIA متجهة إلى البيت الأبيض، وفيها كبار مسؤولي

الإستخبارات الأميركية ليقدموا للرئيس وأربعة من أرفع موظفيه «التقرير الرئاسي اليومي الذي يعتبر أرفع تقرير سري في واشنطن، يتألف عادة من ٥-٧ صفحات ويرفق بصور الأقمار الصناعية السرية التي حصل عليها «البنتاغون». ويتم إعداد التقرير ليلا من قبل أرفع خبراء الإستخبارات الأميركيين الذي يحللون البرقيات والتقارير التي تصل إلى السي آي إيه من شبكة عملائها في أنحاء العالم، وفيها أدق المعلومات عما يجري في العالم. إن فرادة هذه التقارير، مقارنة بما لدى الإستخبارات الأخرى، تكمن في أنه يشير دوما إلى مصدر معلوماته سواء كان ذلك وثيقة سرقها أحد جواسيسها أو عملائها السريين المندسين في أوساط الحكومات أو كان المصدر قمرا صناعيا. وعندما يكون كلينتون في واشنطن عادة فإنه يستعرض مضمون التقرير بسرعة مع خمسة من مسؤوليه الكبار: نائبه آل غور، ومستشاره للأمن القومي أنطوني ليك، ورئيس موظفي البيت الأبيض ليون پانيتا، ومساعد مستشار الأمن القومي صاموئيل (ساندي) بيرغ وأخيرا ليون پيرت مستشار الأمن القومي لنائب الرئيس. إن اثنين من هؤلاء وهما بيرغر وبيرث هم من اليهود المتحمسين. وقد وصلا منصبين على غاية كبيرة من الحساسية بالنسبة للسياسة الأميركية، لكنهما ليسا استثناء.

هناك سبعة يهود من أصل أحد عشر مسؤولا رفيعا في مجلس الأمن القومي. وقد تعمد كلينتون تعيينهم في هذه المناصب ليكونوا مفاصل وحلقات وصل بين <مجلس> الأمن القومي وبين <وزارة> الخارجية. ساندي بيرغر نائب رئيس مجلس الأمن القومي، مارتن إنديك (السفير المرتقب لدى إسرائيل) هو أكبر مدير مسؤول عن الشرق الأوسط وجنوب آسيا. دان شيفر - المستشار لدى الرئيس وأحد أكبر مدراء إدارته- مسؤول عن غرب أوروبا، دون ستينبرغ -مستشار الرئيس وأحد أكبر مدراء إدارته- مسؤول عن أفريقيا، ريتشارد فينبرغ مستشار الرئيس وأكبر مدير مسؤول عن اميركا اللاتينية، ستانلي روس مستشار الرئيس وأكبر مدير مسؤول عن آسيا.

والحالة لا تختلف في مكتب الرئيس <كلينتون> المزدحم باليهود المتحمسين: أبنر ميكف المدعية العامة(وزيرة العدل) الجديدة؛ ريكي سيدمان المسؤول عن تنظيم مشاريع ومواعيد الرئيس؛ فيل ليدا مساعدة رئيس موظفي البيت الأبيض؛ روبرت روبن مستشار اقتصادي، دافيد هايزر المدير المسؤول عن العلاقات الإعلامية، أليس روبين مديرة الموظفين، إيلي سيغال مسؤول عن المتطوعين، إيرا ميزينا المسؤولة عن البرنامج الصحي. وهناك وزيران يهوديان هما وزير العمل روبرت رايخ وميكي كانتور المسؤول عن الإتفاقيات التجارية الدولية. ومع هؤلاء

قائمة طويلة جدا من الرسميين اليهود الكبار في وزارة الخارجية وعلى رأسهم رئيس فريق «سلام» الشرق الأوسط دينيس روس، ويليهم عدد من مساعدي الوزير بل عدد من رؤساء موظفي كبار مساعدي الوزير.

أحد أكثر اليهود الذين يلفتون النظر من وجهة النظر الإسرائيلية ممن لم تتسلط عليهم الأضواء حتى الآن هو رحم إمانويل كبير مستشاري كلينتون المسؤول عن تنسيق بعض المشاريع الخاصة داخل البيت الأبيض. إنه يحتل المكتب المجاور للمكتب البيضاوي الرئاسي الشهير. وكان رحم قد حاز على تقدير كبير من رئيسه في الأسبوع الماضي عندما نجح في تمرير قانون مكافحة الجريمة. لقد أصبح خبيرا في في الإتصال بالكونغرس وأحرز الكثير من النجاح أهمها تعديل اتفاقية شمال أميركا للتجارة الحرة NAFTA... وكان مكتبه في الأسبوع الماضي قائما قاعدا، يحوم فيه كأنه «إسرائيلي» نموذجي. عندما أجرى معي حديثه الحيوي كان يتفحص بوتوكولات الجلسة المعقودة في مجلس الشيوخ ويشاهد مراسل «سي إن إن» وولف بيلتزر (يهودي أيضا) ويتلقى ما استجد في تصويت أعضاء مجلس الشيوخ من سكرتاريته وثلاثة من مساعديه. لهذا سألته: «هل تفضل أن نلتقي في عطلة نهاية الأسبوع عندما ينتهي هذا الكابوس» فأجاب: «إن ذلك سيكون مدعاة للراحة».

وفي اليوم التالي، عندما تم التصويت على القانون ، هاتفته مهنئا فقال لي: «إذا أردت أن تأتي فتعال الآن. لقد قرر الرئيس الذهاب في إجازة وقال لنا بأن من يريد منا أن ينعم بدفء الصيف فعليه بالإجازة. ولهذا فإنني أعد حقائبي للمغادرة يوم الأحد صباحا». ولم يكن حتى ذلك الحين هادئا بل كان يتململ بعصبية على كرسيه. إن له وجها أقرب إلى وجه سائح إسرائيلي منه إلى وجه مسؤول رفيع في الإدارة الأميركية. وقلت له: «أنت تعرف أن المكان المناسب الوحيد لإسم رحم ايمانوئيل هو دليل الهاتف لتل أبيب» فانفرجت ابتسامة عريضة دافئة من وجهه وقال: «كان إسمنا في الأصل أورباخ، وكنا أول من فتح صيدليات في القدس وتل أبيب. ثم غير والدي اسمه بعد أن قتل عمي ايمانوئيل في حرب استقلال إسرائيل»، وانضم إلى منظمة «إتزل (الأرغون)» التي كان يتزعمها <مناحيم> بيغن. وكان من المألوف تغيير أسماء العاملين في الخفاء. نعم إنه ما يزال من أشد أنصار الليكود لكنه أيضا معجب باسحق رابين بعد الإنتخابات الأخيرة لأنه يعجب بكل من يصبح رئيسا للوزارة. بعد الحرب جاء إلى أميركا فدرس الطب والتقى أمي. وكان يومها يدرس ويعمل. وقد ولدت في شيكاغو». تلقى رحم وأخواه تعليما يهوديا حماسيا. «أنت تعرف. لقد تعلمنا في مدرسة يهودية وكان لنا أساتذة خاصون

لتعليم العبري. كانت زيارتي الأولى لإسرائيل بعد ثلاثة أيام من حرب الأيام الستة قال لي والدي يومها إن علينا الذهاب إلى إسرائيل. كنت يومها في الثامنة، لكنني مازلت أتذكرها وكأنها هذا الصباح. كان العرب قد هزموا تماما وعمت الفرحة. وكان ذلك مثيرا جدا. وارتفعت الآمال بأن اليهود سينعمون بالحرية والسلام نتيجة لذلك. ومنذئذ واظبت على زيارة إسرائيل كل صيف حتى عام ١٩٧٢. ثم بدأت دراستي. وعندما نضجت انخرطت في خضم السياسة التي هي متعة الشاب الأميركي.

وماذا تعني لك اليوم العلاقة بإسرائيل واليهودية؟

بين ١٩٧٢ و١٩٩١ لم أزر إسرائيل ثم اشتعلت حرب الخليج وبدأت الصواريخ تتساقط في تل أبيب. عندها تطوعت فورا لخدمة شهر في الجيش الإسرائيلي عبر «وحدة التطوع[٢] لماوراء البحار». ما فعلته لمساعدة اليهود كان متواضعا. وبالطبع فلم تكن خدمتي ذات طبيعة قتالية. لكننا ساعدنا ما استطعنا. وأهم شيء هو أننا كنا هناك. هل هذا يجيب عن سؤالك؟».

لعل أكثر ما أثارني شخصيا في بحر العام الماضي، منذ أن تم تعييني في واشنطن، هو اللقاء مع الأميركان اليهود المنظمين. إن أفضل مكان لرؤيتهم على ما هم عليه، المكان الذي أزورهم فيه كل سنة معجبا بهم، هو المؤتمر السنوي لقوى الضغط «لوبي» المناصر لإسرائيل: إيباك. هنا لا تشعر فقط بنبض الإهتمام الأميركي بالشرق الأوسط بل هنا تشعر أيضا بالعزاء عن كآبة الشعور بالوحشة والعزلة من العيش في دولة تقع في قلب عدد من الدول العربية المعادية. ولطالما كنت أتساءل عن قيمة التجربة اليهودية في أميركا بالنسبة لإسرائيل. هل إن التوحد والتماهي مع إسرائيل ينبع من حس عميق بالمصير اليهودي المشترك أم إنه عبارة عن وسائل تستعملها جماعة محلية للإمساك بخيوط القوة التي تمكنها من إنجاز حقوق متساوية فعلا في مجتمع مختلط يتألف من مهاجرين كثيرين ذوي معتقدات مختلفة؟ هل إن القوة اليهودية في الولايات المتحدة ظاهرة تتزايد أم تتناقص؟ هل إن الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود «غوييم» يهدد باضعاف القوة اليهودية في الولايات المتحدة؟ أم أن اليهود الأميركان يشيدون مركزا جديدا للثقافة اليهودية منافسا لإسرائيل، وهذا ما أخشاه أحيانا؟

إن كنيس «عدات يسرائيل» في واشنطن ليس مجرد مكان للعبادة، بل هو أيضا مركز للجماعة اليهودية يضم روضة أطفال معتبرة ومدرسة يهودية تعلم الأدب اليهودي والثقافة اليهودية إضافة إلى تعليم العبرية طبعا. في أيام السبت تقام دورتان من الصلوات منفصلتان. الأولى صلاة طويلة يؤمها مئات من المصلين تتبعها مائدة مباركة تضم الكثير من الأطايب اليهودية. هؤلاء الذين يؤمونها هم نخبة

المجتمع في واشنطن: مسؤلون كبار في الإدارة الأميركية، محامون ناجحون، ورجال أعمال أثرياء . .. وإن ثمن تذكرة الدخول ألف دولار. أما الصلاة الثانية فللأحدث سنا، وتذاكر دخولها أرخص. وهي صلاة تقام وفق الطريقة الاسرائيلية باستثناء اختلاط الرجال بالنساء. ومن ميزات هذه الصلاة أن معظم الذين يؤمونها يزورون إسرائيل مرة في السنة ويتحدثون العبرية بطلاقة. وكلهم على معرفة تامة بشعائر الصلاة... ولعل أهم سبب لصلاتهم هو تمتين الأواصر مع إسرائيل. أما أولئك المتيمون بإسرائيل فانهم يتابعون أخبار التلفزيون الاسرائيلي كل ليلة. وقد يبدو الأمر غريبا، لكن شركة الكابل في واشنطن تنقل أخبار التلفزيون الإسرائيلي كل ليلة بعد منتصف الليل بنصف ساعة.

الكنيس الآخر التي ينافس هذا الكنيس على استقطاب الشباب من أثرياء اليهود يقع في جورجتاون. إنه أرثودكسي حتى العظم لكن صلواته تقام على الطريقة الإسرائيلية المفضلة لدى «غوش إيمونيم». ويرفرف العلم الإسرائيلي فوق «تابوت العهد». وتتضمن الصلوات كل سبت الدعاء (منح البركة) للجنود اليهود الإسرائيليين، والصلاة من أجل خير وتوفيق الحكومة الإسرائيلية وموظفيها. وفي هذا الكنيس يصلي عدد كبير من المسؤولين اليهود في الإدارة الأميركية. إنهم أبدا لا يحاولون التستر على تعاطفهم الديني بل إنهم على العكس يتمظهرون به لأن ذلك يساعدهم على التقدم في أعمالهم ومهامهم.

والتأثير اليهودي الهائل في واشنطن لا يقتصر على الحكومة ففي وسائل الإعلام نجد عددا كبيرا من أهم الشخصيات المهمة ومقدمي معظم البرامج الشعبية يهودا متحمسين . إن عددا كبيرا من كبار المراسلين الإعلاميين ومحرري الصحف والمعلقين من اليهود المتحمسين أيضا. معظم هؤلاء يعملون لصالح إسرائيل بتأثير مواظبتهم على كنيسهم المناسب. المراسل السياسي للاسوشييتد برس باري شويد والمراسلة التربوية للواشنطن بوست آمي شوارتز يواظبون على حضور الصلوات الحماسية لاسرائيل في كنيس كليفلاند پارك. هنا أيضا يرتفع العلم الإسرائيلي بكل اعتزاز فوق «تابوت العهد». ودعنا لا ننسى في هذا السياق هيمنة اليهود على المؤسسات الأكاديمية في واشنطن. إن نسبة الباحثين اليهود في المركز الطبي الوطني أعلى بكثير من نسبتهم العددية بين السكان. وفي حقول الأمن والعلم وصناعة الأفلام والفن والأدب فإن التأثير اليهودي لا يمكن وصفه إلا بأنه تأثير هائل يتعاظم مع تعاظم القوة اليهودية.

من أين ظهر كل هؤلاء؟ نحن في اسرائيل اعتدنا على سماع أسماء يهودية مثل دنيس روس ودان كيرتزر وأهارون ميللر لأنهم اشتركوا في كل زيارة قام بها

وزير الخارجية للشرق الأوسط خلال السنوات الست الماضية. غير أن هذه ظاهرة حديثة نسبيا. فعندما استطاع دان كيرتزر -وهو يهودي متدين يواظب على صلوات السبت ويتمسك بكل الوصايا اليهودية- أن يصل إلى الإدارة الأميركية قبل ١٨ سنة، وكان يحمل دكتوراه في الدراسات الشرق أوسطية قالوا له : «إنك تتمتع بكل المؤهلات التي تخولك العمل في قسم الشرق الأوسط، ولكن لاتفكر، مجرد التفكير بذلك، بسبب أصلك اليهودي». إنه اليوم رئيس أولئك الذين سمع منهم هذه النصيحة. كذلك تزايد نفوذ اليهود تزايدا كبيرا في نفس الوقت. عندما وصل كان المستعربون يديرون وزارة الخارجية وكان على القلة من اليهود الذين تسللوا أن يخفوا يهوديتهم. كانت هناك سوابق مثل سابقة الراحل أرنولد رافل الذي كان كبير مساعدي نائب وزير الخارجية للشرق الأوسط لكن زملاءه لم يعرفوا عن ديانته شيئا حتى واوروه في مقبرة يهودية. كان دان كيرتزر أول من أعلن أنه لا يستطيع العمل في أيام العطل اليهودية لأنه يهودي متدين يحفظ كل الوصايا اليهودية ويواظب على الكنيس...

عندما تأزمت الأوضاع في هايتي وتفاقمت هتفت لوزارة الخارجية وسألت عن تقرير حول ما يجري في تلك المنطقة. وحولوني إلى يهودا ميرسكي. قدمت نفسي لسكرتاريته. وفجأة التقط أحدهم سماعة الهاتف وسمعت صوتا يقول بعبرية إسرائيلية قحة: «صباح الخير. كيف استطيع مساعدتك؟». وللوهلة الأولى ظننت أنني على الخط بالغلط مع وزارة الخارجية الإسرائيلية. أين تعلمت العبرية؟ هل أنت إسرائيلي؟. وقال: «لا. إنني أميركي، لكنني أمضيت ثلاث سنوات لا أدرس فيها إلا الكتاب المقدس والتلمود في القاعدة العسكرية هار اتزيون - هزدر يشيفا مع الحاخام ليشتنشتاين والحاخام أميطال في غوش اتزيون». وميرسكي مثل كيرتزر يعتبر من المحترفين في وزارة الخارجية.

وهناك يهودي آخر مسؤول وصل إلى وزارة الخارجية هو توم ميللر. وهو الآن الملحق السياسي في أثينا. وكان سابقا من بين ما كان مساعد فيليب حبيب في لبنان ورئيس مكتب شمال أفريقيا في فترة الحوار مع منظمة التحرير <في تونس>، ثم صار لاحقا رئيس مكتب النزاع العربي الإسرائيلي. قابلت توم عندما كان رئيسا في مكتب قسم مكافحة الإرهاب. لقد بدأ اهتمامه باسرائيل عندما أرسله أبوه إليها خلال حرب الأيام الستة لمساعدة صديق عائلي كان قد هاجر إلى إسرائيل قبيل بعض الوقت. وكان الصديق قد تجند في الجيش وكانت مزرعته بحاجة إلى من يرعاها. بعد ذلك أمضى توم ميللر ستة أشهر في مزرعة أروت التعاونية قرب كيريات مالاشي <قرية الملاحة -الملاقة>. وكان تأثير ذلك عليه مماثلا للتأثير على

رحم إمانويل في زيارته الأولى لإسرائيل. وقد أخبرني: « كانت فترة عامرة بزهوة النصر والحماسة المتوقدة بما حققه الشعب اليهودي من إنجازات عظيمة. وكان يستحيل علي في ساعة ذلك الإنتصار العظيم أن لا أكون إسرائيليا ». أما الحادث الثاني الذي ترك في نفسه تأثير سيئا فهو قصص الأهوال عن الهولوكست. «إن الهولوكست خلق إحساسا بالمصير اليهودي المشترك. إن على اليهود أن يعملوا على تقوية إسرائيل حتى لا يتكرر الهولوكست» كما أخبرني في محادثة أخرى.

والحقيقة أن كل اليهود في قمة مناصب إدارة كلينتون، بمن فيهم دنيس روس ومارتن إنديك، يعتقدون جازمين بأن التغيير الذي طرأ على موقف اليهود الأميركيين يعود بالدرجة الأولى إلى حرب الأيام الستة التي نبشت ذكريات الهولوكست [٣] ثم أفعمتهم بفيض من الكبرياء والفخار. « إن حرب الأيام الستة هي التي أخرجت يهود أميركا من عزلتهم. كانوا هناك يجمعون قواهم ونفوذهم في ميادين الثقافة والعلم ولكنهم كانوا في واد آخر غير إسرائيل » كما قال لي أحد كبار المسؤولين المقربين جدا من كلينتون. «لقد كان الهدف الأكبر لجيل آبائنا أن يكون جزءا من المجتمع الأميركي، ولربما كان الهدف هو «الإستيعاب والتماثل »». ويجب أن لا ننسى أن الهولوكست أحدث جرحا مؤلما لدى يهود أميركا[٤] ، فقد كانوا عاجزين عن فعل أي شيء لإخوانهم الذين قتلوا. إن حرب الأيام الستة خلقت علاقة قوية بين يهود أميركا وإسرائيل. وأهم ما فيها أنها خلقت شعورا عميقا بين اليهودية الإصلاحية وهي أكبر نزعة يهودية في أميركا وبين إسرائيل...

تم الطلاق بين والدي دنيس روس حين كان في الثانية من عمره. وقد انقطع انقطاعا يكاد يكون كليا عن أبيه رئيس فرقة الترتيل <في الكنيس> في شيكاغو. بعد سنتين من الطلاق تزوجت الأم من رجل كاثوليكي ورحلا معا إلى كاليفورنيا. وقد اشترطت على زوجها الجديد أن يتلقى أطفالها تعليما يهوديا. بذلك نشأ دنيس روس في محيط يهودي... وفي عام ١٩٧٠ في فترة الإنتشاء بنصر حرب الأيام الستة، قام بزيارة إسرائيل لأول مرة مع مجموعة من الطلاب الأميركيين. ومن يومها بدأ تعلقه باليهودية يزداد ويترسخ. بعد ذلك تزوج من «ديبي» التي تلقت تعليما يهوديا تقليديا حول التاريخ اليهودي. وكان شديدة النشاط في محيطها بالنسبة للكنيس اليهودي. وفي سن مبكرة بدأ دنيس روس بدراسة العبرية وفتح كتاب الصلوات، لكن الصلاة صارت لدية عادة منتظمة. إنه يقول إن جذوره اليهودية من أغلى ما لديه وقد كان لها تأثيرها في سلوكه. ثم إن أولاده تبعوه في جميع خطواته، ففي كل سبت -إذا كان دينيس روس في واشنطن حيث لا يتنقل بين القدس ودمشق والقاهرة- يرافق أولاده إلى الكنيس. إن ابنه الأكبر قد احتفل ببار ميتزفاه

وقد حضر الحفل في الكنيس سفير سوريه وإسرائيل ومصر والأردن حيث جلسوا بجانب بعضهم.

هل بامكان إسرائيل أن تطمئن برغم مسافة آلاف الأميال إلى أن هناك مركزا يهوديا مزدهرا لا يعجب بها ويدعمها وحسب بل يشاركها مصيرها أيضا؟

ليس هناك من شك في ذلك، وخاصة حين يتعلق الأمر بوجودها. إن جميع مسؤولي إدارة كلينتون الذين يتعاملون مع إسرائيل: روس وكيرتزر وانديك وميللر، وهؤلاء نقطة من بحر، قد تكون لهم وجهات نظر مختلفة حول حل النزاع العربي الإسرائيلي لكنهم جميعا من اليهود المتحمسين في كل ما يفعلونه. إنهم يختلفون فيما بينهم أحيانا وقد يختلفون أحيانا مع وجهة نظر الحكومة الإسرائيلية لأنهم أولا وقبل كل شيء أميركيون وولاؤهم الأول هو لأميركا(!!). لكنهم أيضا يؤمنون بأن المصالح المشتركة بين الدولتين أساسية وثابتة أبدا. ولعله بسبب ذلك الإعتقاد بأنهم أسهموا مساهمة عظيمة حين جعلوا إدارة كلينتون تتبنى موقفهم من العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل. ولعله بسبب ذلك الإعتقاد يدعون أنهم منزعجون من خرق إسرائيل لحقوق الإنسان في الأراضي<المحتلة> وأنهم أكثر من منزعجين حين يتخذ هذا الوزير الإسرائيلي أو ذاك مبادرة بخصوص العراق مما لا يتناسب مع الموقف الأميركي. « إذا كانت إسرائيل تريد الدعم الأميركي لجميع مصالحها فإن عليها أيضا أن تنسق خطواتها معنا عندما يتعلق ذلك بالمصالح الأساسية للولايات المتحدة »، كما قال لي أحد المسؤولين الكبار هذا الأسبوع بعد تردد الأنباء عن مبادرة الوزيرين موشيه شاشال وبنيامين بن العازر بضم العراق إلى عملية السلام.

إن فيض اليهود في إدارة كلينتون لم يخلق هكذا عن تصميم لكن عددهم الكبير لم يصل بمجرد المصادفة أيضا. إن أسلوب الحياة الأميركية يساعد الناجحين. فعلى الرغم من أن الجيل اليهودي السابق كان ينزع إلى الذوبان فإنه قدم لأبنائه أفضل حظ من التعليم، غير مقتصر على الديانة اليهودية. ولعل أن قدراتهم وما حققوه من إنجازات هي التي أوصلت الجيل الحالي من اليهود إلى مراكز نفوذهم الكبير في الوقت الذي كانوا فيه يحتفظون بجذورهم اليهودية. إن دنيس روس الذي أطلق نظرية «معايير بناء الثقة» بين إسرائيل والدول العربية هو نتاج نموذجي لذلك الجيل اليهودي في أميركا. إن قوتهم ستدعم بقوة ثقة اليهود الاسرائيليين بخلود الشعب اليهودي وتخفف من شعورهم بالعزلة بين العرب.

ومع أن قوة اليهود في الإدارة الأميركية الديمقراطية الحالية هائلة فإن هناك العديد من اليهود المتحمسين في قمة المراكز في الحزب الجمهوري. لقد قابلت بول ولفويتش مثلا الذي كان كبير مساعدي وزير الدفاع في إدارة بوش.. قابلته أثناء

زيارته لقاعدة صواريخ باتريوت أثناء حرب الخليج. وعندما استقبله رئيس القاعدة الذي كان اسمه مكتوبا على سترته: المقدم كريموكوفيتش، انفرجت أسارير وجهه باسما، وقال: « أنت كريموكوفيتش وأنا ولفويتش إن لكلينا أقارب مشتركين هنا ». وهذا لا يعني أنهم جميعا متشابهون. فحتى في أميركا تجد يهودا لا يساندون إسرائيل. وهذا ما كان عليه وزير الدفاع السابق كاسبر واينبرغر وهذا ما كان عليه ريتشارد هس (سلف مارتن إنديك في مجلس الأمن القومي). لكنهم الآن في الواقع شيىء استثنائي.

ربما أراد حاخام كنيس «عدات إسرائيل» أن يهنى بيل كلينتون على حماسته الشديدة لليهود وأراد أيضا أن يزيد من ولاء يهود إدارة كلينتون لأميركا. لقد أخبرني رحم إمانوئيل أن قربى كلينتون من اليهود يجب تفسيرها من خلال حبه للإنسان كما يعبر عنه في كل مناسبة. ويفسر آخرون ذلك بالمحيط اليهودي الذي عاشه كلينتون أثناء دراسته الجامعية. وأود أن أضيف إلى ذلك عددا من العوامل المتداخلة، ومن أهمها ما أبداه من افتتان شديد بإسرائيل بعد حرب الأيام الستة مباشرة. ثم إن كلينتون بفضل كثرة أصدقائه اليهود على وعي بهول الذكرى المؤلمة للهولوكست كما يعيشها زعماء اليهود الأميركيون، وعلى وعي بأهميتها في مسألة الدعم الإجباري المستمر لإسرائيل.

(معاريف، ٢ سبتمبر ١٩٩٤ .ترجمه عن العبرية إسرائيل شاحك) ترجمه عن الإنكليزية

نويل عبدالأحد

إشارات إسرائيل شاحك

١- وفقا للديانة اليهودية فإن الولاءلقوانين وأنظمة حكومة غير يهودية محدود جدا...

٢- بموجب إذن خاص من الإدارة الأميركية ولأسباب لم ينوه عنها الإعلام لأسباب ذكرناها. إن بإمكان اليهود الأميركان أن يتطوعوا في الجيش الإسرائيلي، وبخاصة؛ يتم ذلك أثناء الحروب. إن عدد اليهود الأميركيين الذين تطوعوا في الجيش الإسرائيلي أثناء الإجتياح الاسرائيلي للبنان كبير جدا. ولكن بما أن الرقابة الإسرائيلية منعت تسرب هذه الأخبار فإن وسائل الإعلام الأميركية أصمت آذانها وأغمضت عيونها. وليس هناك من جيش في العالم يتمتع بمثل هذه الميزة أو ما يشابهها...

٣- لا حاجة للقول بأن «ذكريات الهولوكست» ملفقة إن الإسرائيليين لم يكونوا خائفين، بل على العكس كانوا على ثقة من النصر قبل حرب الأيام الستة. وبالطبع لم تواجه إسرائيل أي خطر حقيقي أثناء حرب الخليج. ولكن عندما شعر الاسرائيليون بالخوف أثناء حرب اكتوبر عام ١٩٧٣. ولم يكن خوفهم من هولوكست بل من موقف متأزم يضر بمصالحهم. لقد ابتلع اليهود الأميركيون كل القصص عن النصر الإسرائيلي المفترض.

٤- الواقع أن الصدمة لم تحصل وقت الهولوكست، بل تطورت لاحقا. وخصوصا عندما حصل اليهود الأميركان على السلطة.

THE STORY OF CULTURAL ARROGANCE

"The story of western civilization is now the story of mankind,
its influence so diffused that old oppositions and antitheses are now meaningless.
'The West' is hardly now a meaningful term, except to historians."

J. M. Roberts, *The Triumph of the West*, B.B.C. 1985

ما قاله دُريد بصدد غَزيّةَ المتهافتة

-١

قلَبتُ لحِلميَ ظهر المِجنّ وأزمعتُ شرا
وإذ أنضجتني التجاريبُ حاورتُ نفسي
وقلّبتُ بين بصيرةِ أمسي
وخبرةِ يومي شؤونَ غَزيّه..
فألفيتُ أن مِن الحكمةِ الصرف ألا أكونَ حكيما
وأدركتُ أنْ كانَ رُشدي وقد رَشَدَتْ
هفوةً، واحتمالي سجيّه..!

-٢

وهأنذا تحتَ سِترِ الدّجى مستثارُ الدماءْ
أنَقّبُ هذي السَريرةَ سراً فسرا
أفاجئني في شِباك الحوارْ
أعيدُ امتحاني فألفي
ضميري نقيّـاً وأنيَ لم أقترفْ غيرَ محضِ الوفاءْ

وأني حملتُ غزيّةَ -عمريَ- همًّا عظيما
وأنزلتُها بينَ هدبي وهدبي المقامَ الكريما
وأني لها عشتُ أحملُ روحي بكفّي
لها عشتُ أسرجُ حزمي وأستلّ سيفي
وأقحمُ حتى أقيها العثار
حجارةَ دهري، وحتى أقيها المهانةَ حتفي..!

-٣
أكابرُ.. لكنّني متعبٌ من تخاذلها
من تساقط أيامها في السقوط
أشدُّ خيوطَ الرجاء، أخاتلُ كلّ الشراكِ اللعينةِ
ينسجها حولَ روحي القنوط
أدافعُ هذا التبدد مستوحشًا في عراء الليال
ألوذُ بصمتي إذ يتجهّمني قلقي واحتدامُ السؤالْ
لماذا غَزيةُ هانَتْ ومنْ قبلُ كانتْ
مَعينَ الإباءِ وسيفَ المضاءِ وعزَّ الرجال
لماذا غَزيّةُ هانت؟

-٤
لماذا وقد كنتُ بَصّرتُها بالطريقِ السويّ
وحذّرتُها من أساليبِ هذا الدعيّ
وقد عاشَ مستغرقاً في الصّغارْ
يبيعُ الذي لا يباعُ: الكرامه

ويرهنُ حتى حسامَه
يهون عليه الذي لا يهونُ: حِماها ؟
لماذا ؟ وكيفَ غزيّةُ لم تستبنْ ما
نصحتُ لها، عندما رابني من نُبُوّ الدّعي إئتمار ؟
لماذا ارتدتْ عِبطةً جَهلَها ؟

٥-
وإذْ فاجأتني غَزيّةُ قد ساومتْ جلدَها
هَجّنتْ وُلدَها، رَهَنَتْ زَنْدَها للغريبْ
وقد حشدَتْ جُنْدَهَا في خَنادقِ أعدائها
صرختُ بأعلى احتدامي: لا ياغزيّةُ.. لا ياغزيّةُ حتى متى؟
تراختْ بمربطكِ الخيلُ بانَ كُلاها
أأبكي إذن زهوكِ الميّتا ؟

٦-
خاتلتني غزيّةُ، كانت معي ثم صارتْ عليّ
خاتلتني فما في يديْ
سوى قبضِ ريحِ انتمائي إليها
وهذا الحنوّ القتيلِ ونارِ السؤال المقيم
وهذا الأسى المتمدد في حُرقةِ الروحِ،
هذا الفراغِ العقيمْ
وهذي النجومِ التي تتراءى: تغورُ وتُشرقُ
حتى تذكرني بالفجيعه

وهذا الأديمِ الموشى بنزفي ولويةِ نفسي الوجيعه.

-٧

ورجع يُريني غَزيّه:

« لا شيىء أكثر قبحا   من وجهها المتصابي
معروقـــة تتخـــفى   من عارها بالخضاب
من ندرة الخيل راحت   تشد فوقَ الكلاب.. »

-٨

غَزيةُ! آهٍ غزيّةُ! ماذا ؟
أأهجوكِ باسمِ الهوى المستباحْ؟
وباسمِ صليبي المدمّى، وباسم المساميرِ، باسم الجراحْ؟
دريدٌ.. وكنتُ إذا ما غويتِ.. إذا ما رشدتِ
فكيفَ وها قد سقطتِ
لماذا وكنتُ أغيرُ لمجدكِ كلّ مَغار؟
أجوعُ وأعرى لأكسوكِ أرديةً من فَخَار؟
لماذا وكنتِ رهاني
وكنتِ زمانَ العشيرةِ في وجه كل زمانِ؟

-٩

غَزيةُ وطّنتُ نفسي وإن قراري القرارْ
وهذا خروجي الجديدُ
وماعادَ يمسكني آصرٌ أو قرابه

يكونُ جنوني صوابي ودربَ المتابه
إذن إن بيني وبينكِ سيفي
إذن بيننا يا غزيةُ ثأرٌ ولنْ أتركه
أبيع سوادَ الشغافِ لكي أدركه
سأشهرُ سيفي عليكَ وما بيننا المعركه
سأثأرُ منكِ لنفسكِ حتى تعودي النقيّه
وحتى تكوني غَزيّه..
وهأنذا ومعي فقراءُ العشيرةِ نعلنُ عصر الجنون
تكونُ غزيّة أو لا نكونْ..!

خليل الخوري

حديث الأحجار

-١

طفلٌ يحمل مئذنتَه
ويؤذنُ وحده
مسجدُه يرعشُ من برد العدوان..
بلا جدران
أعواد المنبر شاردةٌ تتخطى الأسوار
تطفو سابحةً في تيارِ الذُعر
يجوسُ خلالَ أزقّةِ أغلى البلدانْ
ومن القدس إلى غزة
الطفلُ الأعزلُ يحملُ مئذنته
أعواد المنبر تتبعه كي يلقي الخطبة
والأقصى خلفهما يبكي

-٢

الطفلُ يواصلُ إلقاءَ الخطبة
ماتت لغةُ الإنسان

فجاء حديث الأحجار:

الإنسـانُ حجـرْ
التـاريـخُ حجـرْ
الوطن المسلوب حجر
الماضي والحاضـرُ والمستقبل
أحجـارٌ تتكلـمُ فـي أيـدي الأطفـال.

-٣
أيدي أطفال الأرض المسلوبه
تخرج بيضاءَ كنورٍ في ليل العسـفِ
بلا سوء
تلقي أحجار الأرض المسلوبه
تلقفُ ما يأفك بطش المحتلين
وسـحر المسـتقوين..
وماحشـر الجلادون
يغرق في بحر من مطر الأحجـار!

-٤
حديث الأحجـار:
وطـنٌ ينهـضُ من تحت الأنقـاض
ينفضُ عنـه تراب المحتليـن
يعلنُ أن القـوة للحق
أن حـصـاةً تفترس المدفـع.
حفنـةُ رمل في يـد طفـل أعـزل
قشـرةُ ليمـون من يـافا في يـد طفـل أعزل

كسرة تفاح من رام الله
مازال عليها دمُ طفل أعزل
ترعب أسراب الجو وأسرابَ الأرض.
من جاء يصب الموت
يخشى الموت
من حجر في يد طفل أعزل
من كسرة ليمون بقيت بعد القصف
من كسرة تفاح لم يكملها طفل عاجله صياد الموت
مسكونا بالحقد على الكون
وبالخوف من الكون
وبالكذب على الله
وعلى الإنسان.

-٦
هوذا داوود العربيُ الطفلُ
ينازلُ جالوت..
....
ألقى الطفل حصاه
سقط الجبارُ الزائفُ
والطفلُ يحثُ خطاه
يواصلُ إلقاء الخطبه!

قاسم الوزير

أرض المرايا

يحضُرني منكِ المـاء
فيرتجفُ الكـاسُ وتُمحى من عينيَّ جموعُ النـاس
شربتُ المـاءَ فذاب الثلـجُ .. شوقـاً للماء
انفكّـت حلقاتُ الذهب

دخلتُ الكـاس ..
ورافقتُ الحلقاتِ وعدتُ إليكِ يـا أرضَ المرايـا
قادتني إليكِ نساءٌ يسعلن في الهـواء فينتفـخ الهواء
ويغمرني الغبار
وحين وصلتُ إليكِ سمعتُ مطرا يهطل مني
ورأيتُ مسايل أوديتي تتسع وتجري نحو مصبّـك
ورأيتُ منازلكِ معلقـةً في المرآة تتوهّـجُ بين شمسين
ستائرُها لا مغلقـةٌ، لا مفتوحـه .. بين سؤالِ ظلامٍ وجوابِ نور
أدخلُها.. أدخلُ زورقَ ذهبٍ وأعود إليـكِ يا أرض المرايـا
تنبتُ ضفائـرُ ألمي

ألمح في المرآة شلة ذهب.. أحضنها وأفك عقدها
أمسِكُ بالخيط- يتلوى ألما
والإبرةُ تتلوى معه وأنا أرتقُ ثوبي في أرض المرايا
سالَ النهرُ من الثوب والخيط صاعد نازل مع أنفاسي
القماش يضيق والقدمان تذوبان
تتسع مسايل أوديتي وتجري نحو مصبّك يا أرض المرايا|

عدتُ إليكِ بلا ذاكرة
لأراك عجينا في أيدي النسوة
وأراك تفرّين إلى النار وتحترقين بلا ذاكرة
هل أحدق في المرآة لأشربَ قهوتي وأخترعَ ذاكرة لك
أحدق فإذا بالأفق دخانٌ وإذا ريشُ غرابٍ أسود
يكسوني والسماءُ تشربُ معي القهوة
وبكيتُ لأنكِ تحترقين بلا ذاكرتي|

أنسى أني كنتُ في ترابك نهرا
ألهذا أضج وأصخب من حلقي حتى أخمص قدمي
ألهذا تعتمُ ألوان غاباتي شوقا إلى شموسكِ
ألهذا أراكِ بلا ذاكرتي حلقات مِن ذهب أفتحها
واحدة واحدة أرميها في الماء|

بالأمس رفعتُ غطاءَ القِدرِ وحَدقتُ بقاعه:
ظلمات تختلج بمخلوقات من ظلماتٍ - تتمرى بأظافرها

وتضاريسُـكِ عنقودٌ من عنبٍ مأكول
هل تغيب أقمارُك عني لتمتحن نـفسـها ؟!

خبأتُ حديقتي في جيبي
وقلت غدا أكتبُـك قصيدة يا أرض المرايا
حين استيقظتُ وجدتُ شيـخَ ذاكرتي
أمامي يصافح الشجرة المقدسة .. يحادثها
كيف ملأتَ قصيدتي بأوراق الشجرة ياشيخ
كيف نبشتَ الماضي مثل قماش تطويه وترميه
تحت شباكي قطع من ذاكرتي:
مربعاتٍ - مثلثاتٍ - أهراما - ملحا
وأنا أبكي وأكتب لكِ قصيدتي!

أفك حلقات الذهب وأرميها في الماء
وأقول: سأجدك!

يحضرني عواء الذئب من وديانك
يحمل لي أخبارَ عماليقَ طوالٍ يُشيّعونكِ يا أرضَ المرايـا
إلى جبِّ الأفق. يحضرني تغريد عصافير جبالـكِ
ينتصب الماء مثـل الشجر العاري في حلقي
آه إني أختنق .. أنحني .. وأنطوي على ألمي
يحضُرني هذا - ويغيبُ فيسيل الماءُ
يحضُرني ويلامسُني نسيمٌ من أجوائـكِ

.. وصداعٌ يتدحرج فوقي صخرا من قِمَم جبالِك|

كيف أعود إليكِ وأنت الآن بلا ذاكرة
يحضرني صوتٌ مائيٌّ منكِ ويسألني:
كيف كتبتِ قصيدتَك
ولماذا يَهمِس من حولي الناسُ وتهتَز رؤوسُ الأزهار البريّـة
أرجف من بردي وأنا أحفر أرض الغرفة
لأراك يا أرض المرايا
ممددة في ضريح ذاكرتي|

أميـرة الزيـن

أحمر على أحمر

إن قلتُ على مسرحِك الواسع ما لايرضيكِ فعذرا ياإنسانية/ عذرا فأنا اليافع لم امتع إلا بالأربعة عشر ربيعا/ مازلت طري العود نديا/ ماعندي حراسٌ أو عَسَسٌ أو أوراقْ / ماعندي إلا نزرٌ من كلماتٍ فوق لساني، ضحكاتٌ، وصراخٌ، واستسلام للنومْ / ماعندي إلا صمتٌ أفصحُ من كلمات الشعراءْ / مازلت طريّ العود بلا زغبٍ وأطيرُ بأجنحةِ أبي/ رفقا بي يا إنسانيةُ ودعيني اطلق ريحَ لساني لا يمنعني أني ما زلت طري العود نديا لم أعجم عود الدنيا|| هأنذا مسكونٌ بالقلق ونارٌ يا أهل الأرض تُلهبُ أعصابي وجنونٌ يعصف بابن الأربعة عشر ربيعا/ تُهراق بعينيه سيول دم البرآءِ -الأطفال-الوطنيين- الجبناء- الأعداء/ إلامَ سيصفعنا هول المشهد قبل جفاف الدمْ / ونهوضِ الزنبق منه نقيا فتانا|| وإلامَ يظل المذياعُ نذيرَ الشر يعذبنا/ يدكّ مسامعنا بالأهوال وقصص الرعب ويحصي عدد القتلى/ إلامَ نعاقر كأس القسوة/ تتحجر عيناي ويجمد هذا الإحساس المرهف إذ ينطفيء البرقُ بعقلي/ماعدتُ أرى الشهداء سوى أرقام صماء/ رفقا بي يا أهل الأرض فإني مازلت طري العود نديا/ مازلت غريرا لم أذبح أحدا/ لم أحرق إنسانا بالغاز ولم

أستعبد عبدا أو قنا أو استأثرْ بحياة البؤساء التعساء/ لم أهلك بلدا أو قرية / لم أتلوث بدماء || هيا ألقوا أسلحة الموت إلى الأرض/ يامن صرتم أرقاما صماء || ألقوها أرضا يامنسيّون تروا أسلحة الموتْ.. أعجازا خاوية /وتروا كل جيوش الأرض غبارا تذروه الريح / ممالكُ تنهار وأمجاد تتداعى/ترتد الحملات على الأعقاب وتمحى من ذاكرة الأرض|| أبدا لا تنسوا أن لكم أبناء ونساء/ أن لكم أعيادا ومباهج/ أن لكم مستقبلكم.. خلف خنادقكم || مازلتُ طري العود غريرا لم أعجم عود الدنيا/ فليعذرني القادةُ / وليغفر أهل الفلسفة العظماء لابن الأربعة عشر ربيعا ما طاف بخاطره البرعم من قلق الشعراء.

شادي خوري

(تعريب نويل عبدالأحد)

* شادي خوري عربي-أميركي في الرابعة عشرة من عمره. يكتب قصائده بالإنكليزية، وقد نال عددا من الجوائز.